د. رضا بن علي كرعَاني

أعداء محمد زمن النبوة





دار الطليعة - بيروت



أعداء محمد
زمن النبوة

ص. ب ١١١٨١٣
الرمز البريدي ٩٠ ٧٢٠ ١١٠
بيروت ـ لبنان
تلفون ٣١٤٦٥٩/٠١
فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ١ ـ ٩٦١
E.mail: daraltalia@yahoo.com

الطبعة الأولى
أيلول (سبتمبر) ٢٠١٠

د. رضا بن علي كرعاني



أعداء محمد زمن النبوة

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

□ هذا الكتاب بحث لنيل شهادة الدكتوراه أشرف عليه الأستاذ المنصف بن عبد الجليل وناقشته لجنة متكوّنة من الأساتذة: محمّد بوهلال ونائلة السلّيني وحمادي المسعودي ومصطفى التواتي، وذلك يوم السّبت ١٣ شباط/ فيفري ٢٠١٠ بكلّية الآداب في سوسة (تونس).

فلهم منّا أصدق آيات الشّكر وأوفى عبارات التّقدير.

□ الإهداء: إلى الأستاذ المنصف بن عبد الجليل

بعض دين ووفاء...

مقدّمة عامة

استطاع النبي محمّد في مدّة زمنيّة قصيرة تحقيق إنجازات عديدة، صدّقه عدد لا يُستهان به من النّاس ودخلوا في دينه، وساهموا معه في تأسيس الإسلام والذّب عنه، وامتدّ نفوذ كيانه السّياسي على مساحات شاسعة من جزيرة العرب وبلاد الشّام، كما واجه محمّد طوال مسيرته النّبويّة حركة معادية شارك فيها عدد كبير من النّاس ومن مواقع مختلفة ومرّت بأطوار عديدة واتّخذت عدّة أشكال. جاء في النّص القرآني «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا» (الفرقان ٢٥/ ٣١). يتمثّل عملنا هذا في تحديد أعداء محمّد وذكر ما أمكن من خصائصهم وضبط الأسباب والغايات التي كانت تحرّكهم وذكر مختلف الأنشطة التي قاموا بها ضده وضد أتباعه وأهل بيته، واكتفينا في هذا العمل بدراسة أعداء محمّد في التّاريخ الحقيقي، ولم نهتم بأعدائه في المخيال الإسلامي.

يمكن تصنيف المصادر التي اعتمدناها لدراسة أعداء محمّد في ثلاثة أقسام: **القسم الأوّل** يمثّله النّص القرآني، فهذا النّص هو أكثر المصادر جدارة بالثّقة، وهو أقدمها، ظهر زمن النّبي، ودُوّن ـ أغلبه على الأقلّ ـ بعد عهد النّبوّة بزمن قصير. ولا يخلو اعتماد النّص القرآني لدراسة أعداء محمّد من صعوبات كثيرة، أولاها أنّه ليس نصّاً محايداً إنّما هو إحدى أدوات محمّد في صراعه ضد أعدائه، لذلك كان في حالة تفاعل مع الواقع الذي نزل فيه، يتأثّر به، ويحاول التّأثير فيه. الصّعوبة الثّانية هي غلبة ما هو خارق وأسطوري على قسم مهمّ منه مثل حديثه عن قتال الملائكة مع محمّد يوم بدر. الصّعوبة الثالثة هي عدم معرفتنا ما طال هذا النّص من تغييرات بالحذف والزّيادة أثناء حياة محمّد (وربما بعدها) إذ لم يصلنا عن نسخ القرآن لفظاً ومعنى إلاّ القليل الذي يغلب عليه الغموض، يظهر ذلك في ما يعرف بالآيات الشّيطانيّة ورفع القرآن الذي نزل في واقعة بئر معونة[1]. الصّعوبة الرّابعة هي غلبة الإيجاز والإيحاء والرّمز على قسم كبير من الآيات، ولذلك يتعذّر إدراك معانيه إلا بالعودة إلى غيره من المصادر. ويضمّ **القسم الثّاني** من مصادرنا كتب السّيرة النّبويّة وكتب المغازي وكتب

(١) ابن سعد: **الطّبقات الكبرى**، م ٢، ص ٥٣.

التّاريخ العام وكتب تفسير القرآن وكتب طبقات الصّحابة ومجاميع الحديث، وما يجمع بين هذه المصادر هو اهتمامها المباشر بسيرة النّبي محمّد. ويضمّ **القسم الثّالث** من مصادرنا كتب الأخبار بمعناها العام (**كتاب الأغاني** لأبي الفرج الأصفهاني، كتاب **العقد الفريد** لابن عبد ربّه...) وكتب الجغرافيا وكتب المختارات الشعريّة وكتب نقد الشّعر وأخبار الشعراء... فهذه المصادر قد ضمّت أخباراً عديدة تتعلّق بجوانب كثيرة من حياة أعداء محمّد.

تواجه دراسة أعداء محمّد صعوبات كثيرة لأسباب عديدة، **أوّلها** أنّ مختلف المصادر التي يمكن اعتمادها في دراسة هذا الموضوع كتبها أتباعه، ولا تنقل هذه المصادر رواية أعدائه ووجهة نظرهم الخاصة. السّبب **الثّاني** هوّ قلة أخبار أعداء محمّد في المصادر، ويعود ذلك في بعض أسبابه إلى ميل بعض الرّواة (ثمّ الكتّاب) إلى إغفال كثير من أنشطتهم مثل الأغاني والأشعار الفاحشة التي قيلت في هجاء محمّد، واشتدّت هذه النّزعة مع تقدّم الزّمان. يقول السّهيلي الذي عاش في القرن السّادس للهجرة: «وقد شرطنا الإضراب عن شرح شعر الكفرة والمفاخرين بقتال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلاّ من آمن منهم»[1]. السّبب **الثّالث** هو غلبة العجيب والخارق على عدد مهمّ من أخبار السّيرة النّبويّة، فالمخيال الإسلامي جعل محمّداً مدعوماً بقوى غيبيّة نصرته على أعدائه بشكل مباشر في عدّة وقائع، وردّد كتّاب السّيرة المعجزات والخوارق، وعلّلوا بها الكثير من الوقائع التي شهدت انتصار محمّد على أعدائه. السّبب **الرّابع** هو تأثّر أخبار محمّد مع أعدائه بالأوضاع السّياسيّة التي كانت سائدة في الأزمنة اللاّحقة لعهد النّبوّة وخاصة في زمن التّدوين، يظهر ذلك في إغفال مشاركة عدد من بني هاشم في عداوة محمّد والتماس أعذار لهم لمشاركتهم في عدد من الأنشطة المعادية له. السّبب **الخامس** هو تأثّر أخبار محمّد مع أعدائه بطريقة تصوّر النّاس في المراحل اللاّحقة للنبوّة، يظهر ذلك في تعظيم منزلة العقيدة وتناسي الجّوانب الاقتصاديّة والرّهانات الاجتماعيّة وتصنيف النّاس الحاضرين في حياة محمّد تصنيفاً نمطيّاً يتّجه إلى التّمجيد أو التحقير. قام المؤرّخون وكتّاب السّيرة والأدباء بجمع الأخبار المتداولة، ولم يتّخذوا في أغلب الأحيان موقفاً نقديّاً منها، وبقدر ما ساهمت هذه الخاصيّة في إضفاء شيء من المصداقيّة على عدد من الأخبار، كانت سبباً في غلبة العجيب والخارق والمتناقض على عدد من الأخبار الأخرى.

سعينا إلى أن يكون اعتمادنا على أكثر المصادر قدماً، إنما لم يكن قدم المصدر

---

(١) السهيلي: **الرّوض الأنف**، ج ٦، ص ١٣٢.

هو المعيار الوحيد لترجيح رواية على أخرى. اعتمدنا روايات المتأخّرين في عديد الوقائع لأنّنا رأينا أنّها الأكثر جدارة بالقبول، وحاولنا الأخذ بأكثر الرّوايات تواتراً في المصادر، وأخذنا في بعض الوقائع بالرّوايات الأقلّ تواتراً لأنّنا رأينا أنّها الأقرب إلى منطق الأحداث.

لم يستأثر موضوع أعداء محمّد زمن النّبوّة ببحث مستقل في ما اطّلعنا عليه من مراجع، وورد الحديث عنهم في عدد مهمّ من المراجع التي يمكن تصنيفها في أربعة أقسام: يضمّ القسم **الأوّل** الدّراسات المتعلّقة بالسّيرة النّبويّة بصفة كليّة أو جزئيّة، ويضمّ القسم **الثّاني** الدّراسات المتعلّقة بإحدى الشّخصيات التي كان لها نشاط معاد لمحمّد مثل مسيلمة بن حبيب أو الأسود العنسي. ويضمّ القسم **الثّالث** الدّراسات المتعلّقة بإحدى المناطق التي عرفت دين محمّد زمن النّبوّة (اليمن، الطّائف، مكّة...). ويضمّ القسم **الرّابع** الدّراسات المتعلّقة بإحدى القبائل أو مجموعة القبائل التي عرفت دين محمّد زمن النّبوّة.

عدنا إلى عدد من الكتب والمقالات التي ورد فيها حديث عن أعداء محمّد باللّغة العربيّة واللّغة الفرنسيّة واللّغة الإنجليزيّة، واستفدنا بشكل كبير من كتاب راضي دغفوس عن اليمن القديم *le Yaman islamique des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes* في ما يخصّ ردّة الأسود العنسي، واعتمدنا بشكل كبير على ما ورد في **دائرة المعارف الإسلامية** *Encyclopédie de l'Islam* في طبعتها الثّانية في ما يخصّ نسب القبائل وتقسيماتها الدّاخليّة وأماكن نزولها، واعتمدنا بشكل كبير على ما ورد في كتاب بلاشير *Le Coran. Traduction selon un essai de reclassement des sourates* في ما يخصّ ترتيب نزول سور القرآن. وما ننجزه في عملنا هذا يختلف بصورة كليّة عمّا كنّا أنجزناه في بحثنا لنيل شهادة الدّراسات المعمّقة "منزلة الأعراب في القرآن من خلال كتب التّفسير".

لم نهتم عند تحديد أعداء محمّد بمن كان مسؤولاً عن بداية المواجهة ومن كان في حالة دفاع عن النّفس، وأخذنا بوجهة نظر محمّد التي عبّر عنها النّص القرآني وتجسّدت عبر سيرته، فأعداء محمّد هم من اعتبرهم هو أعداءه. خصّصنا **الباب الأوّل** لأعداء محمّد من أهل مكّة وأهل يثرب. جمعنا بين هاتين القريتين لما لهما من مكانة وازنة في سيرة محمّد إنساناً ونبيّاً، وخصصنا **الباب الثّاني** لأعداء محمّد خارج مكّة ويثرب.

الباب الأوّل

أعداء محمّد
من أهل مكّة وأهل يثرب

مقدّمة الباب الأول

لا تحتفظ المصادر عن حياة محمّد قبل النّبوّة سوى بأخبار قليلة مفادها أنّها كانت تتّصف بالمسالمة والهدوء. كان محمّد على دين قومه ممتثلاً للمواضعات الاجتماعيّة، ولم يُظهر أيّ طموح لتغيير الواقع السّائد في مكّة، وكان يحبّ قومه ويعتزّ بانتمائه إلى قريش، وشارك في حروبهم ضد أعدائهم من أهل البادية وأهل الطائف، وساهم بفاعليّة في مشاغل مكّة العامة مثل إعادة بناء الكعبة. رعى محمّد في صغره الغنم كغيره من أطفال مكّة، ثمّ اشتغل بالتّجارة، وأظهر فيها براعة، تزوّج من خديجة بنت خويلد إحدى نساء قريش، وكانت امرأة ثريّة، وهذا ما جعله يتمتّع بدرجة جيّدة من الثّراء المادي. تختلف المصادر حول عدد أبنائه، وتتّفق على أنّه لم يعش له منهم سوى الإناث.

في مكّة بدأ محمّد دعوته، وفيها قضّى القسم الأعظم من زمن نبوّته، صدّقه عدد من أهلها، ودخلوا في دينه، وشكّلوا أتباعه الأوّلين، وكذّبه فريق آخر، وعملوا على التّصدّي له وإفشال مشروعه، وقاموا بأنشطة معادية له استهدفته واستهدفت أتباعه وأقاربه. ونجح أعداء محمّد في صدّ أغلب سكّان مكّة عن دينه، ولقيت دعوته استجابة من الأوس والخزرج، فهاجر محمّد إلى يثرب، وظلّ فيها إلى أن توفّاه الأجل، وواجه داخلها حركة معادية استهدفته إنساناً ونبيّاً وقائداً سياسيّاً، وكان أعداؤه من اليهود ومن أبناء الأوس والخزرج الذين يُعرفون بالمنافقين. وانطلاقاً من يثرب، واصل محمّد صراعه ضد أعدائه من أهل مكّة، واستطاع بعد عدّة وقائع أن ينتصر عليهم، ومثّل "فتح مكّة" تحوّلاً مهمّاً في تاريخ الإسلام المبكّر.

احتضنت مكّة ويثرب تجربة النّبوّة، وكان أهلهما قريبين من محمّد والمتقبّلين في المقام الأوّل لدعوته، وينحدر من هاتين القريتين فريق مهمّ من أتباعه وأصحابه المقرّبين كما ينحدر منهما فريق مهمّ من أعدائه الذين قاموا بعدّة أنشطة مناهضة له تشمل أنشطة ماديّة وأنشطة نفسيّة ذهنيّة.

استأثرت مكّة ويثرب باهتمام عدد كبير من الأخبار الواردة في مؤلّفات عربيّة متنوّعة الاختصاصات تجمع بين كتب الجغرافيا والتّاريخ العام والسّيرة النبويّة... ويعود اهتمام المؤلّفين العرب بهما إلى مكانتهما البارزة في الدّين الإسلامي، إذ تضمّ مكّة

الكعبة أعظم المقدّسات الإسلاميّة، وتضمّ يثرب ثاني الحرمين وقبر محمّد وقبور كبار صحابته، وأولت المصادر ساكني مكّة من قريش عناية خاصة لأنهم أهل الحرم وولاة البيت وفيهم النّبوّة والخلافة. وبقدر ما كانت قداسة هاتين القريتين دافعاً إلى تعدّد الأخبار حولهما، كانت دافعاً أيضاً إلى تضخيم مكانة ما هو ديني وتهميش مكانة ما هو اقتصادي واجتماعي. فما توفّره المصادر من شذرات متفرّقة لا يمكّننا من التعرّف على العوامل المختلفة التي تضافرت لصياغة الحركة المعادية لمحمّد داخل هاتين القريتين، فنحن لا نعرف إلاّ القليل عن البنية الاقتصاديّة والاجتماعيّة والدّينيّة لمكّة ويثرب زمن النّبوّة. فهذه المجالات لا تحظى باهتمام الرّواة وإنّما ترد معلومات عنها بصورة عرضيّة في كتب الأخبار.

الفصل الأوّل

أعداء محمّد من أهل مكّة في الفترة المكيّة

مقدّمة

ولد محمّد في مكّة، وفيها نشأ وترعرع، وأمضى القسم الأكبر من حياته قبل النّبوّة، وفيها بدأ دعوته، وظلّ يدعو أهلها إلى دينه سنوات عديدة، فلم يستجيبوا في معظمهم له، فاختار بعد ثلاث عشرة سنة من بداية نزول الوحي عليه حسب أكثر الرّوايات انتشاراً الهجرة إلى يثرب.

رغم أنّ الفترة المكيّة هي الأطول، لا تحتفظ المصادر عنها إلا بأشياء قليلة لأسباب عديدة منها قلّة عدد أتباع محمّد في ذلك العهد وعدم تشكّل هويّة واضحة لهم، وعدم شهرة محمّد. ويعتبر النّص القرآني أهمّ مصدر يمكن اعتماده للتعرّف على الفترة المكيّة، فهو قد احتفظ بقسم مهمّ من الجدال الذي دار بين محمّد وأعدائه من أهل مكّة. وأهميّة هذا المصدر لا تعني أنّ ما سواه لا قيمة له، فعدم حديث النّص القرآني عن أحداث الفترة المكيّة التي ذكرتها بقيّة المصادر لا يعني بالضّرورة أنّ هذه الأحداث مختلقة وموضوعة. النّص القرآني تشكّل وفق اعتبارات عديدة ولم يدّع أنّه جاء لتدوين كلّ أحداث عهد النّبوّة .

يواجه اتّخاذ النّص القرآني مصدراً لدراسة الفترة المكيّة من عهد نبوّة محمّد عقبات كثيرة منها صعوبة التّمييز بين ما هو مكّي وما هو مدني في بعض الآيات وصعوبة وضع ترتيب زمني لنزول الآيات المكيّة، وصعوبة إدراك معاني عدد من الآيات ومقاصدها لعدم معرفتنا بالسّياق الذي نزلت فيه وخاصة أنّ مجموعة مهمّة من الآيات المكيّة جاءت لتحقيق غايات آنية. وما يلفت الانتباه في الآيات المكيّة أن اختلاف القراءات فيها أقل منه في الآيات المدنيّة رغم أنّ المنطق الطّبيعي للأشياء يستدعي أن يكون الأمر عكس ذلك.

عوّلنا في هذا الفصل على ما جاء في النّص القرآني، واعتمدنا عدداً من المصادر

الأخرى متى وجدنا أنّ ما جاء فيها ينسجم مع ما ورد فيه، وسعينا في هذا الفصل إلى تحديد خصائص أعداء محمّد الاجتماعيّة والاقتصاديّة وذكر أنشطتهم المعادية له والكشف عن مختلف العوامل التي ساهمت في صياغة تحرّكهم.

١ ـ من هم أعداء محمّد؟

تذكر مصادر كثيرة أسماء أعداء محمّد من أهل مكّة، ووردت هذه الأسماء متفرّقة في ثنايا السّرد أو في شكل قوائم جزئيّة[١]. وانفرد البلاذري عمّا اطّلعنا عليه من مصادر بأنه كان الأسبق إلى جمع قائمة كاملة لأعداء محمّد من أهل مكّة الذين «يبدون صفحتهم في عداوته وأذاه ويشخصون به ويخاصمون ويجادلون ويردّون من أراد الإسلام عنه»[٢]. وأورد في هذه القائمة أسماء أهل مكّة الذين تزعّموا حركة معاداة محمّد. إذا نظرنا في تراجم أعداء محمّد الذين يذكرهم البلاذري نجد أنّهم ماتوا أو قُتلوا وهم كافرون أو أنّ إسلامهم تأخّر إلى ما بعد فتح مكّة، فهو لم يدرج في قائمته إلاّ الذين تمسّكوا بمعاداة محمّد ما أمكنهم ذلك. وإذا قارنّا بين ما جاء في كتاب البلاذري وبين ما جاء في عدّة مصادر أخرى مثل **السّيرة النّبويّة** لابن هشام و**تاريخ الأمم والملوك** للطّبري و**الطّبقات الكبرى** لابن سعد لا نجد تعارضاً، فمعظم الذين عادوا محمّداً عندما كان بمكّة ماتوا على ذلك أو أنّ إسلامهم تأخر إلى زمن فتح مكّة. واقتصر البلاذري في قائمته على الذين كان لهم عداء قديم لمحمّد، فالعناصر التي تزعّمت نشاط مكّة المعادي له بعد هجرته إلى يثرب لم يدرجها البلاذري في قائمته. وإذا قارنا بين ما جاء متفرّقاً في كثير من المصادر وبين ما جاء في كتاب البلاذري نلاحظ أنّه يوجد اتّفاق حول أبرز العشائر التي انخرط أبناؤها بكثافة في حركة معاداة محمّد واختلاف في ما يخصّ العشائر التي اشترك عدد ضئيل من أبنائها في هذه الحركة.

اعتمدنا في تعريفنا لأعداء محمّد على القائمة التي يقدّمها البلاذري، وحاولنا أن نهتم فيها بما لا يختلف فيه عن غيره من أصحاب السّير والطبقات، وتجنّبنا أن نبني استنتاجات على ما جاء عنده ولم تؤكده بقيّة المصادر.

---

(١) ابن حبيب: **المحبر**، ص ص ١٥٨ ـ ١٦٠.
ابن هشام: **السّيرة النبوية**، ج٢، ص ٢٠ ـ ٢١.
الطّبري: **جامع البيان...** م ٨، ج ١٤، ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) البلاذري: **جمل من أنساب الأشراف**، ج ١، ص ١٤٠.

يتوزع أعداء محمّد الذين يذكرهم البلاذري على العشائر التالية:

- **مخزوم**: أبو جهل، الوليد بن المغيرة، عبد اللّه بن أبي أميّة، زهير بن أبي أميّة، السّائب بن أبي السّائب، الأسود بن عبد الأسد بن هلال، هبيرة بن أبي وهب، أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة.
- **عبد شمس**: أبو أحيحة سعيد بن العاص، عقبة بن أبي معيط، أبو سفيان بن حرب، الحكم بن أبي العاص، عتبة بن ربيعة، شيبة بن ربيعة.
- **سهم**: الحارث بن قيس، العاص بن وائل، منبّه بن الحجّاج، نبيه بن الحجّاج.
- **نوفل**: مطعم بن عدي، طعيمة بن عدي ، الحارث بن عامر بن نوفل.
- **جمح**: أميّة بن خلف، أُبي بن خلف.
- **أسد بن عبد العزّى**: أبو البختري العاص بن هشام، الأسود بن المطّلب.
- **عبد الدّار بن قصي**: النّضر بن الحارث.
- **زهرة بن كلاب**: الأسود بن عبد يغوث بن وهب.
- **هاشم**: أبو لهب.
- **المطّلب**: ركانة بن يزيد.
- **خزاعة**: مالك بن الطّلاطلة، عدي بن الحمراء.
- **هذيل**: ابن الأصداء.

أورد البلاذري قائمة تضم اثنين وثلاثين شخصاً يمثلون، في نظره، زعماء حركة معاداة محمّد. ومن المؤكد أن هؤلاء الأشخاص كانوا في حاجة إلى مساعدة عدد كبير من سكّان مكّة، ولا يمثّل أعداء محمّد المذكورون سوى نسبة ضئيلة من سكّان مكّة الذين يبلغ عددهم حوالي خمسة آلاف نسمة[١].

ينتمي أغلب أعداء محمّد من أهل مكّة إلى قبيلة قريش القبيلة التي ينحدر منها محمّد وينتمي إليها جلّ أصحابه في العهد المكّي من زمن النّبوّة، وكانت قبيلة قريش استحوذت منذ زمن قصي على هذه القرية وتولّت تسيير مقاليد الأمور فيها. ولأن أكثر أعداء محمّد ينتمون إلى قبيلة قريش يذكر القرآن هذه القبيلة بالاسم دون غيرها من القبائل: «لِإِيلاَفِ قُرَيْشْ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشّتَاءِ وَ الصَّيْفِ» (قريش ١٠٦/ ١ ـ ٢). أمّا بقيّة العناصر البشريّة الموجودة في مكّة والمتمثلة في الحلفاء والعبيد ومن استهوته أمّ القرى من الخلعاء والشّذّاذ ورغم تصاعد أهمّيتهم في آخر عهد الجاهليّة[٢]، فإنهم لم

(١) وات: **الفكر السّياسي الإسلامي**، ص ٩.

(٢) Lammens (H): *L'Arabie occidentale avant l'hégire*, p. 244.

يصلوا إلى إدراك المساواة التّامة مع قريش، وظلّوا في مجموعهم يحتلّون منزلة ثانويّة، وتبوّأ بعض من لم يكن ينتمي إلى قريش بالأصل مكانة مهمّة في مكّة، وهذا ما جعله يشارك في حركة معاداة محمّد.

نجد في قائمة البلاذري ثلاثة أشخاص لا ينتمون إلى قريش بالأصل، ولا شك في أن السّبب الاقتصادي هو الذي جعل عدداً من الحلفاء يحتلون مكانة بارزة في مكّة، ولأن بعض أعداء محمّد لا ينتمي إلى قبيلة قريش بالأصل يعيّر القرآن أحدهم بأنّه زنيم[١]: «والزّنيم العديد للقوم»[٢]. وتنقسم قبيلة قريش إلى قسمين كبيرين: القسم الأول تمثله قريش البطاح الذين ينزلون في الحرم ويسيطرون على أنشطة مكّة التّجاريّة وفضاءاتها الدّينيّة ويمثّلون الفريق الأعظم من هذه القبيلة، القسم الثاني تمثله قريش الظواهر الذين كانوا ينزلون خارج الحرم ولم تكن لهم مساهمة مهمّة في صنع الأحداث زمن النّبوّة[٣] لضعفهم الناتج عن عدم مشاركتهم في رحلات مكّة التجاريّة الكبرى، وكانوا أقرب إلى البداوة. ويختلط نسب بعض عشائر قريش بين قريش الظواهر وقريش البطاح، فالحدود بين القسمين مرنة ومتغيّرة، ولم يكن لقريش الظواهر أيّ تفاعل جدّي مع حدث النّبوّة، إذ لم يدخل منهم في دين محمّد في العهد المكّي سوى عدد قليل[٤]. ومن المرجّح أنّ محمّداً لم يتوجّه بدعوته في سنواته الأولى إلاّ إلى قريش البطاح باعتبار أنّهم عشيرته المتحدّث عنها في النّص القرآني «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ» (الشعراء ٢٦/ ٢١٣).

لم يدخل معظم أبناء عشائر قريش الظّواهر في دين محمّد، ولم يعادوا محمّداً ولا أصحابه، وكان أغلب أعدائه من قريش البطاح، وكانت عشيرتا مخزوم وعبد شمس أكثر عشائر قريش عداوة له، فمن كل عشيرة من هاتين العشيرتين انحدر عدد مهمّ من أعدائه، وهما عشيرتان قويّتان زمن النّبوّة. فبنو عبد شمس جمعوا بين شرف الأصل والثّراء الاقتصادي ووفرة العدد، فهذه العشيرة تنحدر من عبد مناف الذي استطاع أبناؤه أن يحوزوا عديد الوظائف الدّينيّة والسّياسيّة التي كانت لدى عشيرة عبد الدّار بن قصيّ[٥] كانت لبني عبد شمس مساهمة كبيرة في الأعمال التجاريّة الكبرى،

---

(١) القلم ٦٨/ ١٣.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج١، ص ٣٧٥.

(٣) Watt (W. M): *Mahomet à la Mecque*. Traduction D. F. Dourveil p. 26.

(٤) حياة عمامو: **أصحاب محمّد**، ص ٨٩.

(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٨٠.

وهذا ما جعل عدد مواليهم وحلفائهم وفيراً، ومن المرجّح أنّ ثراءهم الاقتصادي هو الذي جعلهم يخرجون من حلف الفضول[١] الذي أصبح تجمّعاً للعشائر الضعيفة. واستطاع بنو مخزوم رغم عدم انتسابهم إلى قصيّ الأب المؤسّس لمجد قريش أن يحوزوا مكانة رفيعة في مكّة بفضل ازدهار أنشطتهم التّجاريّة ووفرة عددهم[٢]، فكوّنوا مع بني عبد شمس الطّبقة الأولى من أقوى العشائر القرشيّة.

ينتمي قسم مهمّ من أعداء محمّد إلى عشيرتي مخزوم وعبد شمس، ويتوزّع معظم أعدائه من غير هاتين العشيرتين على عشائر سهم ونوفل وجمح وأسد بن عبد العزّى، وهي عشائر قويّة، فبنو سهم وبنو جمح يتمتّعون بوفرة العدد وبمشاركة واسعة في أنشطة مكّة التّجاريّة والماليّة[٣].

وتذكر مصادر عديدة أن حلف الفضول قام لمواجهة تعاظم نفوذ عشيرة سهم «... أعزّ أهل مكّة»[٤]. ولأن بني نوفل عرفوا تعاظماً لأهمّيتهم فقد خرجوا من هذا الحلف[٥] على غرار بني عبد شمس.

ما يمكن استنتاجه من النّظر إلى أعداء محمّد من جهة انتمائهم العشائري هو أنّهم ينتمون في معظمهم إلى أقوى عشائر قريش وأكثرها ثراءً. وإذا نظرنا إلى ما توفّره المصادر من معلومات عنهم يتأكّد لنا أنّهم كانوا من الأسياد وأصحاب الأموال، فالوليد بن المغيرة «العِدْلُ، وهو الوحيد، وإنّما سُمّي العدل لأنّه يقال يعدل قريشاً، ويقال إنّ قريشاً كانت تكسو الكعبة، فيكسوها مثل ما تكسوها كلّها»[٦]. وكان سعيد بن العاص «ذا شرف بمكّة، وكان إذا اعتمّ لم يعتمّ أحد بمكّة بعمامة على لون عمامته إعظاماً له، فكان يُدعى ذا التاج»[٧]. والقافلة التي خرج محمّد ليعترضها والتي وقعت بسببها معركة بدر كان أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص[٨]. وكان أبو سفيان بن حرب رجل تجارة كثير التّردّد على بلاد الشام، وكانت له أملاك بالطّائف[٩]. أمّا عقبة

---

(١) نفسه، ج١، ص ١٨٤.

(٢) Watt (W. M): *Mahomet à la Mecque*, p. 125.

(٣) *Ibid.*, p. 124 & p. 126.

(٤) ابن حبيب: **المنمّق**، ص ١٢١.

(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٨٠.

(٦) البلاذري: **جمل من أنساب الأشراف**، ج ١، ص ١٥٠.

(٧) نفسه، ج ١، ص ١٥٠.

(٨) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢٧.

(٩) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٥٧.

بن أبي معيط فهو «سيّد كثير المال جوّاد»[١]. وكانت لأميّة بن خلف ألف مثقال في القافلة التي وقعت بسببها معركة بدر، وللحارث بن عامر بن نوفل في هذه القافلة ألف مثقال[٢]. أمّا الأسود بن المطّلب فكان عزيزاً منيعاً حتى أنّ محمّداً شبّه عاقر النّاقة بالأسود ليدلّ على عزّة عاقر النّاقة ومنعته[٣]. وكان زهيّر بن أبي أميّة المخزومي صاحب بئر[٤] وكانت لمطعم بن عدي بن نوفل بئر[٥].

كان أعداء محمّد من أهل مكّة من أصحاب الأموال باستثناء عتبة بن ربيعة «ريحانة قريش»[٦] الذي لم يكن من أصحاب الأموال «وقيل ما ساد قريشاً مملق غير عتبة»[٧]. ما تقدّمه المصادر من معلومات متفرّقة عن أعداء محمّد يثبت أنّهم كانوا من الأثرياء، وهذا ما يؤكّده النّص القرآني الذي يذكر في مواضع عديدة أنّ المترفين هم أكثر الناس عداوة للأنبياء: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» (سبأ ٣٤/ ٣٤ ـ ٣٥).

كان أعداء محمّد من أهل مكّة من المترفين، وما تقدّمه المصادر من معلومات متفرّقة عنهم يؤكّد أنّهم كانوا من الأسياد والكبراء. فسعيد بن العاص هو سيّد بني عبد شمس[٨]، والمطعم بن عدي هو سيّد بني نوفل، والعاص بن وائل هو سيّد بني سهم[٩]، وكان الوليد بن المغيرة من حكّام قريش[١٠]، وكان أميّة بن خلف من أجواد الجاهليّة[١١].

كان أعداء محمّد من سادة مكّة الذين يجمعون بين الوجاهة الاجتماعيّة والثّراء المادي. جاء في النّص القرآني: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا» (المدثّر ٧٤/ ١١ ـ ١٦). وجاء في رسالة عروة بن الزّبير إلى عبد الملك بن مروان التي أوردها

---

(١) ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، ص ٨٠.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢٧.
(٣) البلاذري: **جمل من أنساب الأشراف**، ج ١، ص ١٧٠.
(٤) الأزرقي: **أخبار مكّة**، ج ٢، ص ١٨١.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٩٦.
(٦) ابن المجاور: **صفة بلاد اليمن ومكّة وبعض الحجاز**، ص ٢٠.
(٧) البلاذري: **جُمل من أنساب الأشراف**، ج ٩، ص ٣٦٧.
(٨) ابن حبيب: **المنمق**، ص ٤١١ ـ ٤١٢.
(٩) نفسه، ص ٤١٢.
(١٠) ابن حبيب: **المحبر**، ص ١٣٢.
(١١) نفسه، ص ١٤٠.

الطّبري في **تاريخه**: «لمّا دعا قومه لما بعثه اللّه من الهدى والنّور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أوّل ما دعاهم، وكادوا يسمعون له حتّى ذكر طواغيتهم، وقدّم ناس من الطّائف من قريش لهم أموال، أنكروا ذلك عليه، واشتدّوا عليه، وكرهوا ما قال لهم، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة النّاس»(١).

مكّنت التّجارة من ظهور طبقة ثريّة في مكّة، فأصبح التفاوت الطّبقي أمراً ظاهراً، ولم تعد الأملاك مشاعة لكلّ أفراد العشيرة، واتّخذ هؤلاء الأثرياء عدداً كبيراً من العبيد والموالي، وتحالفوا مع عدد من العناصر القادمة من تجمّعات بشريّة أخرى، فتعاظم نفوذهم، وتولّوا تدبير شؤون مكّة العامّة، وعندما أعلن محمّد نبوّته تولّوا تزعّم الأنشطة المعادية له، وما تقدّمه المصادر من معلومات يثبت أن جلّ أعداء محمّد كانوا من ذوي الأسنان، ولم يتزعّم الشّباب أيّ نشاط معاد له. فالوليد بن المغيرة مات بعد الهجرة بأشهر وهو ابن خمس وتسعين سنة(٢)، والعاص بن وائل السّهمي مات بعد الهجرة بأشهر وهو ابن خمس وثمانين سنة(٣)، وسعيد بن العاص بن أميّة مات في ماله بالطّائف سنة اثنتين من الهجرة، ويقال في أوّل سنة من الهجرة، وكانت له تسعون سنة(٤)، والأسود بن المطّلب بن أسد مات بمكّة وهم يتجهزون لأُحد وقد قارب المائة(٥)، وعتبة بن ربيعة قُتل يوم بدر وكانت له سبعون سنة(٦)، وكان شيبة بن ربيعة أسنّ من عتبة بثلاث سنين(٧)، ومطعم بن عدي بن نوفل مات سنة اثنتين من الهجرة قبل بدر وهو ابن بضع وتسعين سنة(٨)، وكان أميّة بن خلف الذي قُتل يوم بدر «شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً»(٩).

لا تقدّم المصادر معلومات كافية عن الانتماء الدّيني لأعداء محمّد من أهل مكّة، ونذهب إلى أنّهم كانوا من الوثنيين عبدة الأصنام لأن الوثنيّة هي الدّين المهيمن على مكّة، ومن البديهي أن يكون أسيادها على هذا الدّين، ولو كان بعضهم على غير الوثنيّة

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، ج٢، ص ٢٤٠.
(٢) البلاذري: **جُمل من أنساب الأشراف**، ج ١، ص ١٥٢.
(٣) نفسه، ج١، ص ١٥٧.
(٤) نفسه، ج١، ص ١٦١.
(٥) نفسه، ج١، ص ١٦٩.
(٦) نفسه، ج١، ص ١٧١.
(٧) نفسه، ج١، ص ١٧٢.
(٨) نفسه، ج١، ص ١٧٣.
(٩) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٠١.

لما أغفلت المصادر ذلك. وتذكر عدّة مصادر أنّ لبعض أعداء محمّد من أهل مكّة مرتبة دينيّة، فالحارث بن قيس «كانت إليه الحكومة والأموال المحجّرة التي سمّوها لآلهتهم»[1]، أمّا النّضر بن الحارث فقد قدم الحيرة واطّلع على كتب الأوّلين[2].

لم يكن لمعظم أعداء محمّد من أهل مكّة نشاط ديني خاص، وسبب ذلك أنّهم لم يكونوا يعتنون كثيراً بالأنشطة والمراتب الدّينيّة، فمكّة التي تضمّ الكعبة، أشهر حرم ديني في جزيرة العرب. لم تعرف نشوء طبقة قويّة وثريّة من رجال الدّين، وظلّت عديد الوظائف الدّينيّة بأيادي عناصر غير قرشيّة. ولم تُعرف قبيلة قريش بنبوغ أبنائها في الشّعر، لذلك لم يكن من بين أعداء محمّد من أهل مكّة سوى شاعر واحد هو هبيرة بن أبي وهب المخزومي.

الميزة الأساسيّة لأعداء محمّد من أهل مكّة أنّهم كانوا من الأسياد أصحاب الأموال وهم في حالات عديدة يرتبطون في ما بينهم بعلاقات قرابة دمويّة قويّة، فعتبة بن ربيعة هو أخو شيبة بن ربيعة، وأميّة بن خلف هو أخو أُبي بن خلف، ومنبّه بن حجّاج هو أخو نبيه بن حجّاج، ومطعم بن عدي هو أخو طعيمة بن عدي. وإذا نظرنا إلى مختلف علاقات القرابة التي تشدّ بني هاشم قوم محمّد إلى العشائر التي ينتمي إليها معظم أعدائه نجد أنّ أقربها إليهم هي العشائر التي تنتمي إلى بني عبد مناف وهي عبد شمس ونوفل، ثم تأتي في مرتبة تالية عشيرة أسد بن عبد العزّى التي تشترك مع بني هاشم في الانتماء إلى ذريّة قصي، وخارج دائرة آل قصي عشيرة مخزوم هي أقرب العشائر إلى بني هاشم، وتأتي في درجة تالية عشيرة جمح وعشيرة سهم. وكان أعداء محمّد من أهل مكّة من المطيّبين والأحلاف، ولم تكن لعشائر حلف الفضول مشاركة مهمّة في معاداته، وعشائر حلف الفضول هيّ هاشم والمطّلب وأسد بن عبد العزّى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرّة[3]. ينتمي أغلب أعداء محمّد إلى عشائر لها قرابة دمويّة قويّة ببني هاشم مثل عشيرة عبد شمس وعشائر قرابتها الدّمويّة ببني هاشم ضعيفة مثل سهم. وجمعت محمّداً ببعض أعدائه أواصر قرابة شديدة، فأبو لهب هو عمّ محمّد، وزهيّر بن أبي أميّة المخزومي هو ابن عمّته[4]، والأسود بن عبد يغوث بن وهب هو ابن خاله[5].

---

(١) ابن عبد ربّه: **العقد الفريد**، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٢٦.

(٣) نفسه، ج ١، ص ١٨٢.

(٤) نفسه، ج ١، ص ٣٨٥.

(٥) البلاذري: **جُمل من أنساب الأشراف**، ج ١، ص ١٤٠.

كانت لمحمّد ببعض أعدائه علاقة قرابة دمويّة قويّة، وأقربهم إليه على الإطلاق عمّه أبو لهب، ويبدو أنّ هذه القرابة هي التي جعلت القرآن يذكر أبا لهب بصريح اللّفظ دون سائر أعداء محمّد ويتوعّده بسوء العقاب في سورة المسد: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ، وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» (المسد ١١١/١ ـ ٥) ويجمع الرّواة على أنّ امرأة أبي لهب المذكورة في النّص القرآني هي أمّ جميل بنت حرب من بني عبد شمس.

يرتبط محمّد ببعض أعدائه بعلاقات قرابة دمويّة قويّة، ويرتبط بعدد من أعدائه بعلاقة جوار، فأبو لهب والحكم بن أبي العاص وعقبة بن أبي معيط وعدي بن حمراء هم جيرانه[١]. وكانت له مع نفر من أعدائه وقائع خاصة، فالسّائب بن أبي السّائب هو شريكه في التّجارة قبل النّبوّة، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي هو زوج أم هانئ بنت عم محمّد التي رفض والدها أبو طالب تزويجها لمحمّد وزوّجها لهبيرة[٢]. أمّا مطعم بن عدي فهو والد جبير الذي كانت عائشة بنت أبي بكر مسمّاة له قبل زواجها من محمّد[٣]. ويتحدّث محمّد عن أبي جهل قائلاً: «... إنّي ازدحمت يوماً أنا وهو على مأدبة لعبد اللّه بن جدعان ونحن غلامان، وكنت أشفّ منه بيسير، فدفعته، فوقع على ركبتيه، فجحش في إحداهما جحشاً لم يزل أثر به»[٤].

وجلّ العشائر التي ينتمي إليها أعداء محمّد ينحدر منها عدد من أتباعه الذين أسلموا في الفترة المكّية، فعشيرة مخزوم أسلم منها في تلك الفترة عشرة رجال وامرأة وثلاثة حلفاء واثنان من مواليها، أمّا عشيرة عبد شمس فأسلم من أبنائها أربعة رجال ومن حلفائها خمسة وعشرون حليفاً ومن مواليها اثنان، وعشيرة سهم أسلم ثلاثة وعشرون من أبنائها وحليفان، وعشيرة أسد بن عبد العزّى أسلم منها ثلاثة من أبنائها ومولى وحليف، وعشيرة جمح أسلم منها أربعة عشر رجلاً وامرأة، أمّا عشيرة نوفل فلم يتابع أحد من أبنائها الصّرحاء محمّداً[٥] وتابعه أحد حلفائها مع مولى له[٦].

أغلب العشائر التي تزعّم أبناؤها النّشاط المعادي لمحمّد دخل عدد آخر من أبنائها في دينه منذ فترة مبكّرة، كما أنّ عدد الأبناء الصّرحاء الذين دخلوا في دين

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٦.
(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٨، ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٣) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٣٥.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٢٦.
(٥) حياة عمامو: **أصحاب محمد ودورهم في نشأة الإسلام**، ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٦) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م٣، ص ٩٨ ـ ١٠٠.

محمّد أكثر من حلفاء هذه العشائر ومواليها الذين دخلوا في دينه في نفس الفترة. وينتمي أغلب الحلفاء الذين دخلوا في دين محمّد في الفترة المكّية إلى عشيرة عبد شمس التي لم يسلم من أبنائها الصّرحاء في تلك الفترة سوى عدد ضئيل. وما يمكن ملاحظته أيضا أنّ العشائر التي انحدر منها جلّ أعداء محمّد شكّل أبناؤها وحلفاؤها ومواليها ما يقارب نصف مجموع أتباع محمّد في الفترة المكيّة. وارتبط عدد من أعداء محمّد بقرابة دمويّة قويّة بعدد من أتباعه الأوائل، فعتبة بن ربيعة هو والد أبي حذيفة الذي دخل في دين محمّد منذ فترة مبكّرة(١)، والعاص بن وائل هو والد هشام الذي تابع محمّداً منذ فترة مبكّرة(٢)، والحارث بن قيس هو والد عبد اللّه وأبي قيس، وهما من أتباع محمّد الأوائل(٣)، والنّضر بن الحارث هو والد فراس الذي دخل في دين محمّد في فترة مبكّرة(٤)، وسعيد بن العاص هو والد خالد وعمرو اللّذين تابعا محمّداً في فترة مبكّرة(٥)، ومنبّه بن الحجّاج هو والد العاص الذي دخل في دين محمّد في فترة مبكّرة من عهد النّبوّة(٦)، وأبو جهل بن هشام هو أخو سلمة أحد مهاجري الحبشة(٧)، وأخو عيّاش بن أبي ربيعة لأمّه، وعيّاش بن أبي ربيعة دخل في دين محمّد قبل أن يدخل محمّد دار الأرقم بن أبي الأرقم(٨).

٢ ـ أنشطة أسياد مكّة المعادية لمحمّد

تذكر المصادر أنّ محمّداً لقي بعض النّجاح في بداية دعوته وأنّ معظم أهل مكّة وإن لم يعتنقوا دينه لم يبعدوا كثيراً وأعجبهم أنّ رجلاً من قريش تخاطبه السّماء، وربما توقّعوا أن يصير كاهناً أو شاعراً. لا تحدّد المصادر المدّة الزّمنيّة التي استغرقها نجاح محمّد، وتعزو بعض الرّوايات نهاية موقف أسياد مكّة المتسامح معه إلى ذكره طواغيتهم، وهذا أمر وقع بعد ثلاث سنوات من بداية تجربة النّبوّة(٩)، وذلك في نهاية

---

(١) نفسه، م ٣، ص ٨٤.
(٢) نفسه، م ٤، ص ١٩١.
(٣) نفسه، م ٤، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٤) نفسه، م ٤، ص ١٢٢.
(٥) نفسه، م ٤، ص ٩٤، ص ١٠٠.
(٦) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٣٣.
(٧) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ١٣٠.
(٨) نفسه، م ٤، ص ١٢٩.
(٩) Tor (A): *Mahomet. Sa vie et sa doctrine*, p. 116.

المرحلة الأولى من العهد المكّي[1]. وإذا قبلنا الرّواية التي تقول إنّ محمّداً ظلّ مدّة ثلاث سنوات يدعو سرّاً تكون بداية جهره بدعوته اقترنت ببروز الأنشطة المعادية له، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن معنى النّجاح النّسبي الذي لقيه محمّد في بداية دعوته.

يبدو لنا أنّ فترة الدّعوة السّريّة امتدّت أقلّ من ثلاث سنوات، فأتباع محمّد الأوائل ينحدرون من عشائر وقبائل وطبقات مختلفة. ولعلّ إطالة زمن الدّعوة السّريّة كانت وراء تأخّر بروز حركة معادية لمحمّد، هذا التأخّر الذي يعود بشكل أساسي إلى أنّ محمّداً في بداية دعوته لم يعلن مبدأ وحدانية اللّه، ومن المرجّح أنّه كان يقرّ لآلهة مكّة بالرّفعة وبالقدرة على الشّفاعة وذلك في بعض الآيات القرآنيّة التي سيتمّ حذفها لاحقاً، وهي التي تعرف بـ"الآيات الشيطانيّة".

بدأ أسياد مكّة في معاداة محمّد بعد تسفيهه لآلهتهم، ولا شكّ في أن هذه العداوة بدأت قبل هجرة أتباع محمّد إلى الحبشة في السّنة الخامسة، فاضطهاد أسياد مكّة لأتباع محمّد كان سبباً قويّاً من أسباب رحيلهم عن مكّة في مغامرة محفوفة بكثير من المخاطر. ولا شكّ في أنّ المدّة الزّمنيّة التي فصلت بين ذكر محمّد لطواغيت مكّة وبداية الأنشطة المعادية له هي فترة ضروريّة ليتعرّف أسياد مكّة إلى ما يدّعيه وليتحقّقوا من مدى جدّيته في ذلك ومدى تأثيره الممكن في النّاس. ولأنّ محمّداً لقي نجاحاً في بداية دعوته لم يتأخّر ردّ فعل أسياد مكّة كثيراً، فقاموا بعدّة أنشطة استهدفته واستهدفت أصحابه وحُماته، ويمكن تقسيم هذه الأنشطة إلى قسمين: الأنشطة القوليّة وتضمّ عدّة أنشطة ذهنيّة ونفسيّة مثل الاستهزاء والتّعجيز والتّحقير...، والأنشطة الفعليّة وتشمل العنف الجسدي والمقاطعة الاجتماعيّة والاقتصاديّة...

٢ـ١ ـ الأنشطة القوليّة:

كذّب أسياد مكّة محمّداً، وسعوا إلى كشف زيف ادّعاءاته بين أهل مكّة، وتمّ ذلك عبر تحقيره ومطالبته الإتيان بالمعجزات والاستهزاء منه ومحاولة إفحامه. إنّ محمّداً في نظر أعدائه أحقر من أن يأتيه الوحي من السّماء، فهو في صفاته الذّاتيّة لا يمتاز عن غيره من النّاس ولا يحمل علامات خاصة تدلّ على إمكانية أن تختاره العناية الالهيّة دون سائر النّاس ليكون رسولاً: «وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ...» (الفرقان ٢٥/٧). لا شيء في سلوك محمّد اليومي يدلّ على أنّه يمكن أن يكون نبياً، فهو في نظر أعدائه لا تتوفر فيه عناصر الشّرف الاجتماعي أكثر من غيره من

(١) Blachère (R): *Le Coran traduction selon un essai de reclassement des sourates*. Tome I, p. 132.

سكّان مكّة والطّائف، إنّ في هاتين القريتين رجالاً لهم من عناصر السّيادة ما يجعلهم أجدر بالنّبوّة منه: «وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» (الزّخرف ٤٣/ ٣٠). إنّ محمّداً في نظر أعدائه أحقر من أن يأتيه الوحي من السّماء، فهو دون أسياد مكّة ثراء، وليست له مكانتهم الاجتماعيّة، فهو لم يكن سيّد عشيرته، فأنّى له أن يدّعي أنّ اللّه فضّله على أسياد مكّة واجتباه ليكون رسوله إلى النّاس.

حقّر أسياد مكّة محمّداً، واستهزؤوا منه: «وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاّ هُزُؤًا أَهَذَا الذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً» (الفرقان ٢٥/ ٤١)، وعيّروه بأنّه أبتر لا ولد له[١]، وأطلقوا عليه جملة من الصّفات فهو شاعر ومجنون وساحر وكاهن: «فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ بِمَجْنُونٍ. أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ» (الطور ٥٢/ ٢٧ ـ ٢٨)، «وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ» (الصّافات ٣٧/ ٣٦). محمّد في نظر أعدائه يقيم علاقات مع قوى غيبيّة منحطّة، فالشاعر والسّاحر والمجنون والكاهن، في التّصوّر العربي القديم، ينطقون عن قوى غيبيّة لا ترتقي إلى مستوى اللّه.

يقول هشام جعيط: «واضح أنّ الجنون في القرآن لا يعني الاختلاط العقلي وذهاب العقل والتميز، بل المقصود بذلك أنّ محمّداً مسكون من الجنّ أو له تابع منهم متملّك له يملي عليه أقواله بصفة من الصّفات»[٢]. ويقول مبروك المنّاعي: «ويلتقي الشّعر بالسّحر، في التّصور العربي القديم، في منابع الموهبة ومصادر الإلهام، فكلّ من السّاحر والشّاعر شخص مُلهم يُوحى إليه، ويستمد سلطانه من قوى غير منظورة، ويعيش على شفا عالمين: عالم الجنّ وعالم الإنسان، عالم الغيب وعالم الشّهادة، ويشركهما هذه المنزلة طرف ثالث هو الكاهن»[٣].

أرجع أسياد مكّة ما كان محمّد يدّعي أنّه وحي يأتيه من اللّه إلى قوى غيبيّة منحطّة كان الاعتقاد في وجودها شائعاً بينهم، وماثلوا بين قرآن محمّد وأقوال الشّعراء والسّحرة والكهّان والمجانين الذين كانوا منتشرين في جزيرة العرب: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ. وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ» (الحاقّة ٦٩/ ٤٠ ـ ٤٢).

أرجع أسياد مكّة "قرآن" محمّد إلى قوى غيبيّة منحطّة لا ترتقي إلى مستوى "اللّه"، وأرجعوه إلى عناصر بشريّة متمثّلة في شعوب بائدة استطاع محمّد بتعاون

---

(١) الطّبري: **جامع البيان...**، م ١٥، ج ٣٠، ص ٣٧٢.

(٢) هشام جعيط: **الوحي والقرآن والنّبوّة**، ص ٨٥.

(٣) مبروك المناعي: «في صلة الشّعر بالسحر»، **حوليات الجامعة التونسية**، عدد ٣١ ـ ١٩٩٠، ص ٥٠.

خفيّ مع عناصر أخرى أن يقع على نصوص تعود إليهم، فأخذ يردّدها على أنها وحي يأتيه من السّماء: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً» (الفرقان ٢٥/٥). وما يدّعي محمّد أنه وحي يأتيه من السّماء هو في نظر أعدائه مجرد حكايات شعوب قديمة أو حكايات مصدرها عناصر بشريّة أعجميّة ذات تقاليد دينيّة توحيديّة مختلفة عن دين العرب القائم على تعدّد الآلهة: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (النّحل ١٦/١٠٣). محمّد، في نظر أعدائه، ينقل ما يخبره به أحد موالي مكّة الذين كانوا في حالات كثيرة من أصول غير عربيّة ولا يدينون بدين العرب القائم على تعدّد الآلهة.

أرجع أسياد مكّة القرآن إلى إلى عناصر بشريّة تنتمي إلى زمن قديم أو وافدة من حضارات أخرى، واعتبروا محمّداً مجرّد حالم يردّد ما يراه في أحلامه: «بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ...» (الأنبياء ٢١/٥)، وأشاعوا بين النّاس أنّه مسحور لا يدري ما يقول: «... وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا» (الفرقان ٢٥/٨).

محمّد في نظر أسياد مكّة كاذب يفتري على اللّه ومعتوه اختلط عليه الواقع بالخيال فظنّ أنّ ما يراه في أحلامه حقيقة. لا شيء في أقواله يدلّ على أنّها وحي من اللّه، فهي لا تختلف عن أقوال الشّعراء وسجع الكهّان، فأسياد مكّة قادرون على الإتيان بمثل الأقوال التي يدّعي أنّها وحي من اللّه: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ...» (الأنعام ٦/٩٤). عمد بعض أسياد مكّة إلى إظهار قدرته على النّسج على منوال محمّد، وأتى بالأقوال المسجوعة والأخبار، «وكان النّضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مجلساً، فذكّر فيه باللّه، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة اللّه، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا، واللّه، يا معشر قريش، أحسن حديثاً منه، فهلمّ إليّ فأنا أحدّثكم أحسن من حديثه، ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمّد أحسن حديثاً منّي»[(١)].

حقّر أسياد مكّة محمّداً، وحقّروا قرآنه، ورأوا في أقواله أضغاث أحلام، وحقّروا أتباعه، ورأوا في دخول العبيد والموالي في دينه دليلاً على كذبه: «قال ابن إسحاق: وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا جلس في المسجد فجلس إليه

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج١، ص ٣٢٦.

المستضعفون من أصحابه (...) هزأت بهم قريش فقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء منّ اللّه عليهم من بيننا بالهدى والحقّ ؟ لو كان ما جاء به محمّد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصّهم اللّه به دوننا...»[1]. جاء في النّص القرآني: «وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ» (الأنعام ٦/ ٥٤).

كذّب أسياد مكّة محمّداً عبر تحقيره وعبر مطالبته الإتيان بالمعجزات: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً» (الإسراء ١٧/ ٩٠ ـ ٩٣). تتمثّل المعجزات التي طالب أسياد مكّة محمّداً الإتيان بها في تغيير واقع مكّة تغييراً كليّاً، ومثال ذلك جعل أرضها خصبة وافرة المياه كثيرة الخيرات شبيهة بأراضي الشّام والعراق ومصر والحبشة التي لا شكّ في أن بعضهم مرّ بها، وتتمثّل بعض المعجزات في اكتسابه طاقات وأملاكاً استثنائية مثل التّمكّن من الارتقاء إلى السّماء أو اتخاذ بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب، وتتمثّل بعض المعجزات في إحضار اللّه نفسه: «وَقَالَ الذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا» (الفرقان ٢٥/ ٢١). وطالبوه بإحضار شواهد من اللّه تؤكّد صدقه مثل كتاب أو ملك، فقد جاء في النّص القرآني على لسان أسياد مكّة: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (الحجر ١٥/ ٧). وطالبوه بأن يُنزل عليهم حجارة وعذاباً: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا. لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ. وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ إِيتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (الأنفال ٨/ ٣١ ـ ٣٢). تصوّر أسياد مكّة إله محمّد على غرار آلهتهم، لذلك لم يروا حرجاً في مطالبته بإحضار إلهه ليكون شاهداً على صدقه.

ترتبط النّبوّة لدى أهل مكّة بالقدرة على الإتيان بالمعجزات، فإذا كان الكاهن والسّاحر والشّاعر، وهم يتّصلون بقوى غيبيّة منحطّة، قادرين على الإتيان بالكثير ممّا لا يستطيعه الإنسان العادي، فمحمّد وقد ادّعى أنّه يُوحى إليه من اللّه جدير أكثر منهم بأن يأتي بمعجزات كبيرة. ويبدو أنّ مطالبة أسياد مكّة محمّداً نزول حجارة من السّماء

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٩٩.

عليهم للشهادة على صدقه ترتبط بحكاية إنزال حجارة من سجّيل على أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبة، فمن المرجّح أنّ هذه الحكاية كانت منتشرة لدى أهل مكّة قبل أن يعيد القرآن روايتها.

طالب أسياد مكّة محمّداً بالإتيان بجملة من المعجزات، واتّخذوا من المعاني التي كان يردّدها موضوع سخريّة واستهزاء، وجعلوها لغواً وباطلاً: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القرآن وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» (فصّلت ٤١/ ٢٥). ومن المعاني التي سخروا منها معنى الثّواب والعقاب وما في الجنّة من أصناف المتع وما في النّار من أصناف العذاب: «وأبو جهل بن هشام لمّا ذكر اللّه شجرة الزقّوم تخويفاً بها لهم قال: يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقّوم التي يخوّفكم بها محمّد؟ قالوا: لا. قال: عجوة يثرب بالزّبد، واللّه، لئن استمكنا منها لنتزقّمنها تزقُّما»[1].

سخر أسياد مكّة من شجرة الزقّوم، وسخروا من الملائكة المكلّفين بتعذيب أهل النّار، «فقال أبو جهل يوماً وهو يهزأ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وما جاء به من الحقّ: يا معشر قريش، يزعم محمّد أنّ جنود اللّه الذين يعذّبونكم في النّار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر النّاس عدداً وكثرة أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم»[2]. استهزأ أسياد مكّة من الجنّة والنّار، واستهزؤوا من ادّعاء محمّد أنّه أسرى إلى بيت المقدس: «وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا» (الإسراء ١٧/ ٦٠).

استهزأ أسياد مكّة من الأفكار التي كان يردّدها محمّد، وجعلوها موضوع إضحاك وتندّر، وعملوا على إفحامه، فسألوه أن يريهم كيف يكون البعث بعد الموت: «ومشى أبي بن خلف إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعظم بال قد ارفت؛ فقال: يا محمّد أنت تزعم أنّ اللّه يبعث هذا بعد ما أرمّ. ثمّ فتّه بيده، ثم نفخه نحو رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم...»[3]. طالب أسياد مكّة محمّداً أن يريهم كيف يكون البعث بعد الموت وأن يأتيهم بالقرآن دفعة واحدة: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً...» (الفرقان ٢٥/ ٣٢)، وطالبوه أن يغيّر قرآنه ويأتيهم بقرآن آخر: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ايتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي...» (يونس ١٠/ ١٥) وطالبوه بأن يأتيهم بقرآن آخر

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٧٧.
(٢) نفسه، ج ١، ص ٣٣٧.
(٣) نفسه، ج ١، ص ٣٧٦.

يشبه كتب اليهود والنّصارى ويصاغ بلغة غير عربيّة: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ...» (فصّلت ٤١/ ٤٤).

كذّب أسياد مكّة محمّداً، وحاولوا أكثر من مرّة أن يجدوا معه نوعاً من الاتفاق، فعرضوا عليه أن يغيّر موقفه من آلهتهم، فيقرّ لها بالرّفعة والقدرة على الشّفاعة مقابل اعترافهم بنبوّته: «... فقالوا يا محمّد، هلمّ، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كلّه، فإن كان الذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا كنّا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً ممّا في يدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت منه بحظك»[1]. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن أسياد مكّة: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً» (الإسراء ١٧/ ٧٣). لا تحدّد المصادر متى عرض أسياد مكّة على محمّد التّشارك في عبادة آلهة مكّة وإله محمّد، ومن المرجّح أنّ ذلك تمّ بعد نسخ "الآيات الشيطانيّة" وقبل نزول سورة "الكافرون"، التي مثّلت موقف محمّد الرّافض لهذا العرض.

رفض محمّد عرض أسياد مكّة التشارك في عبادة الآلهة، وقبل عرضهم المتمثل في أن يكفّ عن سبّ آلهتهم مقابل أن يكفّوا عن سبّ إلهه: «وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...» (الأنعام ٦/ ١٠٨). ومن المرجّح أنّ هذا الاتفاق على الكفّ عن تبادل السّب تمّ في آخر العهد المكّي، فبعد أن يئس أسياد مكّة من نجاح محاولتهم اجتثاث حركة محمّد جنحوا إلى الصّلح، وأرادوا أن يصلوا معه إلى نوع من التّعايش السّلمي، فاتفقوا معه على الكفّ عن تبادل السّب.

قبل محمّد عرض أسياد مكّة أن يكفّ عن سبّ آلهتهم، ورفض عرضهم أن يقرّ لهم بمنزلة خاصة في دينه أرفع من منزلة المستضعفين، جاء في النّص القرآني: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (الكهف ١٨/ ٢٨). ورفض محمّد طلب أسياد مكّة أن يطرد أتباعه من المستضعفين من مجلسه: «وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ» (الأنعام ٦/ ٥٢).

---

(١) الطّبري: **جامع البيان...**، م ١٥، ج ٣٠، ص ٣٧٤.

٢-٢ ـ الأنشطة الفعلية:

تذكر روايات كثيرة أنّ أسياد مكّة حاولوا أكثر من مرّة قتل محمّد وعجزوا عن ذلك لأنّ العناية الالهيّة تكفّلت بحمايته وحالت دون ذلك: «... فلمّا سجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتّى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتّى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: ما بك، يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلمّا دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا واللّه، ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قطّ، فهمّ بي أن يأكلني...»[1]. لا شكّ في أنّ مثل هذه الرّوايات التي تعجّ بها المصادر تهدف إلى إثبات إتيان محمّد بالمعجزات التي جعلها المخيال الجماعي أحد لوازم النّبوّة. ولا يعني الطابع الأسطوري لهذه الرّوايات أنّها لا تحمل شيئاً من الحقيقة، جاء في النّص القرآني: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» (الأنفال ٨/ ٣٠)، وتجمع مصادر كثيرة على أنّ أعداء محمّد من أهل مكّة هم المتحدّث عنهم في هذا النّص القرآني.

هناك واقعتان كان فيهما خيار قتل محمّد حاضراً بقوّة: الواقعة **الأولى** تُعرف بالفتنة الأولى، واشتدّ فيها أذى أسياد مكّة لأتباع محمّد، وتزامنت هذه الفتنة مع بداية الهجرة إلى الحبشة في السّنة الخامسة من بداية تجربة النّبوّة، وتُعرف الواقعة **الثانية** بالفتنة الآخرة، وفيها اشتدّ أيضاً أذى أسياد مكّة لأتباع محمّد، وحدثت بداية الهجرة إلى يثرب. الفتنة الأولى والفتنة الثانية ارتبطتا بهجرة عدد ليس بالقليل من أبناء مكّة، ولا شكّ في أنّ هذه الهجرة آلمت كثيراً أهل مكّة خاصة أنّ المهاجرين في معظمهم من أبناء قريش، واعتبر أسياد مكّة محمّداً مسؤولاً عن هذا التمرّد والعقوق، فتعالت بعض الأصوات مطالبة بإيقاف بوادر الخراب الذي بدأ يجتاح مكّة «... وأجمعوا على قتل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم...»[2]. تذكر المصادر أنّه في زمن الفتنة الأولى حاول أسياد مكّة إقناع أبي طالب بخلع محمّد ورفع حماية العشيرة عنه، فرفض، واستنفر من أطاعه من بني هاشم وبني المطّلب ومن انضوى إليهم من أتباع محمّد للدّفاع عن ابن أخيه، فتجمّع حماة محمّد، وانحازوا إلى شعب أبي طالب، فأصبح خيار قتل محمّد مفتوحاً على احتمال قوي باندلاع حرب أهلية في مكّة، ففتر حماس

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٢٥.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٠٨.

أسيادها، ولم يمضوا طويلاً في محاولتهم، وفي أجواء مشابهة، وفي السنة الأخيرة من الفترة المكيّة أصبح من جديد خيار قتل محمّد مطروحاً بقوّة. كانت هجرة أتباع محمّد إلى يثرب أكثر كثافة من الهجرة الأولى إلى الحبشة، ولأن أسياد مكّة كانوا مدركين للخطر الكبير الذي سيمثّله الكيان الجديد الذي سيتأسّس في يثرب على تجارتهم قرّروا قتل محمّد، ومن الظاهر أنّهم لم يكونوا متأكّدين من أنّه سيلحق بأتباعه في يثرب لذلك تركوا قتله مرتبطاً بشروعه في الهجرة، وربما أرادوا قتله خارج الحرم، فكلّفوا جماعة بمراقبته، واستطاع محمّد أن يخرج من بيته ليلاً متخفياً، واحتمى بجبال مكّة، فبحثوا عنه، ورصدوا جائزة لمن يدلّهم عليه، وبعد أيّام وعندما خفّ عنه الطّلب رحل إلى يثرب.

فشل أسياد مكّة في قتل محمّد، ونجحوا في إلحاق بعض الأذى المادي به، وتمثّل هذا الأذى في تسليط عنف جسديّ عليه، ولعلّ أقسى ما تعرّض له هو ما مارسه ضدّه عقبة بن أبي معيط. يتحدّث محمّد عن عقبة بن أبي معيط قائلاً: «وطئ على عنقي وأنا ساجد فما رفع حتّى ظننت أنّ عيني قد سقطتا، وجاء يوماً وأنا ساجد بسلا شاة فألقاه على رأسي»[1]. وجاء في **تاريخ الطّبري**: «أقبل عقبة بن أبي معيط ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عند الكعبة، فلوى ثوبه في عنقه، وخنقه خنقاً شديداً، فقام أبو بكر من خلفه فوضع يده على منكبه، فدفعه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم»[2].

تعرّض محمّد في مرّات عديدة إلى حوادث اعتداء مادي، وكانت حوادث غير خطيرة، وعمد أعداؤه من أهل مكّة إلى القيام بعدّة أنشطة لإهانته واستفزازه مثل طرح الفرث أمام بيته وإلقاء الشوك في طريقه وأمام بيته[3]. وعمد بعضهم إلى محاكاته في حركاته محاكاة ساخرة: «كان النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذا مشى يتكفأ، وكان الحكم بن أبي العاص يحكيه...»[4]، وغاية الحكم بن أبي العاص من محاكاة محمّد السّخرية منه وجعله موضوع إضحاك.

تختلف الرّوايات في تحديد الزّمن الذي اشتدّت فيه أنشطة أسياد مكّة المعادية لمحمّد. تقول رواية أولى إنّ أعداءه لم يستطيعوا أن يلحقوا به الأذى إلا بعد وفاة عمّه أبي طالب في السّنة العاشرة من بداية الدّعوة، وتذكر رواية ثانية أنّ معظم الأذى لحق

---

(١) البلاذري: **جُمل من أنساب الأشراف**، ج١، ص ١٦.
(٢) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٢، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٦.
(٤) الزبير بن بكار: **الأخبار الموفقيات**، ص ٢١٨.

محمّداً قبل دخول حمزة بن عبد المطّلب في الإسلام في السّنة الخامسة من بداية الدّعوة[1].

من الواضح أن هاتين الرّوايتين جعلتا لتعظيم شأن رجال بني هاشم. لا شك في أنّ لحمزة دوراً بارزاً في الدّفاع عن محمّد، ومن المستبعد أن يكون هذا الدور اقترن ظهوره بدخول حمزة في دين محمّد، ولا شك في أنّ أبا طالب كان زعيم بني هاشم وبني المطّلب في دفاعهم عن محمّد، وربما كان أكثرهم حماساً لذلك، ومن المستبعد أن يكون بنو هاشم وبنو المطّلب تخلّوا عن حماية محمّد بعد وفاة أبي طالب. السّياق العام لتطور الأحداث يُظهر أنّه قبل وفاة أبي طالب بمدّة قصيرة بدأ العداء لمحمّد يتراجع، فالاحتمال الأرجح أنّ معظم العنف الجسدي قد لحقه في السّنوات القليلة الأولى التي تلت ذكره لطواغيت مكّة.

آذى أسياد مكّة محمّداً، وحاولوا عزله اجتماعيّاً، ومن مظاهر ذلك دعوتهم إلى تطليق بناته حتّى يشغلوه بهن. تذكر معظم الرّوايات أنّ زوج زينب بنت محمّد هو ابن خالتها أبو العاص بن الرّبيع أحد بني عبد شمس، وتذكر روايات قليلة أنّها كانت متزوّجة من أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان الثقفي[2]. لم يستجب زوج زينب لدعوة أسياد مكّة، ورفض مفارقة زوجته، أماً بالنّسبة إلى رقيّة وأم كلثوم فما تقدّمه المصادر من معلومات حولهما يلفّه الغموض. تقول الرّواية الأكثر تداولاً إنّ رقيّة كانت متزوّجة بعتبة بن أبي لهب ابن عم محمّد وكانت أم كلثوم متزوّجة بعتيبة أخي عتبة، وبطلب من أبي لهب قام عتبة وعتيبة بتطليق بنتي محمّد من دون أن يدخلا بهما. لا تحدّد المصادر زمن تطليق رقيّة ولا زمن تطليق أم كلثوم، وتتحدّث عن الحدثين على أنّهما وقعا في نفس التاريخ، وهذا أمر يثير أسئلة عديدة. ما هو ثابت في المصادر أنّ رقيّة تزوّجها بعد طلاقها من عتبة بن أبي لهب عثمان بن عفّان أحد بني عبد شمس، ورقيّة بنت محمّد وعثمان بن عفان من أوائل المهاجرين إلى الحبشة، وهذا يعني أنّ طلاق رقيّة من عتبة وقع قبل السّنة الخامسة من بداية تجربة النّبوّة. وإذا كان طلاق أم كلثوم من عتيبة متزامناً مع طلاق رقيّة، فلماذا تأخّر زواج أم كلثوم من جديد ؟ لماذا بقيت أم كلثوم بعد طلاقها من عتيبة أكثر من عشر سنوات لتتزوج من عثمان بن عفان بعد وفاة أختها زمن واقعة بدر ولم يتزوّجها أحد من أصحاب محمّد الذين كانوا يرغبون في مصاهرته ؟[3] لا تقدّم المصادر معلومات يمكن أن تساعدنا على فهم سبب

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج١، ص ٣٢٠.

(٢) اليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، م ٢، ص ٤٢.

(٣) Lammens (H): *Fatima et les filles de Mahomet*, p. 4.

تأخّر زواج أم كلثوم بعد طلاقها من عتيبة. الاحتمال الأرجح أنّها لم تكن متزوّجة من عتيبة لصغر سنّها إنّما كانت مسمّاة له. سعى أسياد مكّة إلى عزل محمّد اجتماعيّاً، فدعوا إلى تطليق بناته، وبعد وفاة خديجة بنت خويلد تزوّج محمّد من سودة بنت زمعة إحدى نساء عشيرة عامر بن لؤي، وحاول أخوها أن يحول دون ذلك، ولم يوفّق[1].

سعى أسياد مكّة إلى عزل محمّد اجتماعيّاً، ولا تذكر المصادر شيئاً ذا قيمة عمّا آلت إليه أنشطته الاقتصاديّة إثر بداية الأنشطة المعادية له بمكّة. وتذكر بعض المصادر أنّ علي بن أبي طالب تأخّرت هجرته لانشغاله بردّ ما كان لدى محمّد من ودائع: «وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ليس بمكّة أحد عنده شيء يخشى عليه إلاّ وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته»[2]. من الصّعب قبول ما تذكره المصادر عن أصل هذه الودائع. من المرجّح أنّه كانت لمحمّد أنشطة تجاريّة مع بعض أهل مكّة، وتأخّر علي بن أبي طالب للإيفاء ببعض الالتزامات التي تتطلّبها هذه الأنشطة، ولا شكّ في أن نشاط محمّد التّجاري تقلّص بعد انطلاق الأنشطة المعادية له، فتراجعت ثروته، وعرف الفاقة، ولم يكن قادراً على عتق أتباعه ولا على إعالتهم.

عمل أسياد مكّة على عزل محمّد داخل قريتهم، فحاول إيجاد أنصار وحلفاء خارج أمّ القرى، فاتّجه إلى التّجمّعات البدويّة التي تنزل قريباً منها. جاء في النّص القرآني: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...» (الشورى ٤٢/ ٥). كان محمّد يلتقي بالوافدين على مكّة من تجّار وحجّاج محاولاً إقناعهم بصدق نبوّته وبجدوى التّحالف معه وتوفير الحماية له، وكان أسياد مكّة له بالمرصاد، كذّبوه، وشهّروا به في الأسواق والأماكن العامة، وقبّحوا للنّاس ما يدّعيه، وحذّروهم عاقبة الاستجابة له، «... فقال: إنّي لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: يا بني فلان، إنّي رسول اللّه إليكم يأمركم أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدّقوا وتمنعوني حتّى أبيّن عن اللّه ما بعثني به، قال: وخلفه رجل أحول وضيء، له غديرتان، له حلّة عدنيّة، فإذا فرغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرّجل: يا بني فلان، إنّ هذا إنّما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللاّت والعزّى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة ومن الضّلالة فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه، قال: فقلت

---

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٣٥.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٨٣.

لأبي: يا أبت من الذي يتبعه، ويردّ عليه ما يقول، قال: هذا عمّه عبد العزّى بن عبد المطّلب أبو لهب»[1].

استطاع أسياد مكّة أن يُفشلوا محاولة محمّد إيجاد أنصار وحلفاء من القبائل البدويّة، وحاولوا دفع الأشخاص الوافدين من يثرب إلى التراجع عمّا أبدوه من استعداد للاستجابة لدعوته، وفشلوا في ذلك. كانت لقريش علاقة جيّدة بالأوس، وكان سيّد الأوس أبو قيس بن الأسلت «يحبّ قريشاً وكان لهم صهراً (...) وكان يقيم عندهم السّنين بامرأته»[2]. وقدم رجال من الأوس إلى مكّة قبل واقعة بعاث يلتمسون الحلف من قريش ضد الخزرج، وقوبل طلبهم بالرّفض. واستغلّ محمّد قدوم الأوس، وعرض عليهم دعوته، وبدأت بذلك أولى علاقاته بأبناء يثرب، وحاول أسياد مكّة إقناعهم بعدم قبول استقبال محمّد في قريتهم، وتذكر المصادر أنّهم عمدوا إلى الاعتداء على سعد بن عبادة سيّد الخزرج لحمله على التّراجع عمّا عاهد عليه محمّداً: «... وأمّا سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسْعِ[*] رحله، ثمّ أقبلوا به حتّى أدخلوه مكّة يضربونه ويجذبونه بجمّته...»[3]. كان لأهل يثرب من الأوس والخزرج استعداد أكبر من القبائل البدويّة للتفاعل الإيجابي مع الدّعوة المحمّديّة، لذلك لم يأبهوا لتحذيرات أسياد مكّة، ثم إنّ للأوس والخزرج من عناصر القوّة ما يجعلهم غير خاضعين لقريش خلافاً للتّجمّعات البدويّة التي كانت في جزء مهمّ منها واقعة في مدار نفوذ مكّة.

رأى أسياد مكّة في تمكّن محمّد من استقطاب أنصار وحلفاء خارج مكّة خطراً على مكانتهم التي عملوا كثيراً لإرسائها بين الناس لحماية أنشطتهم التّجاريّة. وهذا الخوف على النّشاط التجاري هو الذي جعلهم لا يأخذون بالرّأي القائل بإخراج محمّد من قريتهم، إذ كانوا يدركون أنّ له من قوّة التأثير ما يجعله قادراً على إيجاد أنصار وأتباع ممّا سيشكّل خطراً على تجارة مكّة. توقّع أسياد مكّة أنّ محمّداً متى كثر أتباعه سيعترض قوافل مكّة التجاريّة وسيسير بأتباعه إلى مكّة ويطأها، لذلك أرادوا تسوية خلافهم معه ضمن نطاق القبيلة حفاظاً على وحدة أهل مكّة ودرءاً لمطامع الأعداء الذين قد يستغلّون نبوّة محمّد لتصفية حساباتهم مع قريش.

لا تقدّم المصادر معلومات كافية عن ظروف خروج محمّد إلى الطّائف، ونقدّر أنّ أسياد مكّة ما كانوا يرغبون في هذا الخروج، ولم يمنعوه من ذلك لأنّه خرج بشكل سرّي أو لأنهم كانوا متأكّدين أنّه لن يجد أنصاراً في الطّائف، وعندما تبيّن لهم أنه

---

(1) نفسه، ج ٢، ص ٣٣.
(2) نفسه، ج ١، ص ٣١٣.
(*) النّسع: سَيْرٌ يُضفر تُشَدّ به الرّحالُ.
(3) نفسه، ج ٢، ص ٥٣.

سيخرج إلى يثرب عملوا جاهدين على منعه من ذلك، فكلّفوا جماعة برصده، وعندما تأكّد لهم خروجه من مكّة خرجوا باحثين عنه في الجّبال والشّعاب. اختبأ محمّد في غار "ثور" لعدّة أيام، وعندما خفّ عنه الطّلب واصل رحلته إلى يثرب. ينقل النّص القرآني بعض ما لقيه محمّد وصاحبه من عناء للنجاة من مطاردة أسياد مكّة: «إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...» (التّوبة ٩/ ٤٠).

ما كان أسياد مكّة يرغبون في هجرة محمّد رغم ما سبّبه لهم من مشاكل، ورأوا أن يضيّقوا عليه الخناق داخل مكّة ويعزلوه اجتماعيّاً واقتصاديّاً. وكان محمّد يرى في أنشطة أعدائه ضدّه نوعاً من الإكراه على الخروج من قريته، لذلك يذكر القرآن في أكثر من موضع أنّ أعداء محمّد أخرجوه من مكّة: «وَ كَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ هِيَّ أَشَدُّ قُوَةً مِنْ قَرْيَتِكَ الّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ» (محمّد ٤٧/ ١٣). حاول أعداء محمّد منعه من الرّحيل عن مكّة، ولم يأخذوا بالرّأي القائل بشدّ وثاقه لإدراكهم أنّ ذلك لن يكون أقلّ قسوة على بني هاشم من قتله، واكتفوا بمحاولة عزله اجتماعيّاً واقتصاديّاً، وسعوا إلى حرمانه من مشاركة قريش في رمزها الأكبر المتمثل في الكعبة: «قال أبو جهل: لئن رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يُصلّي عند الكعبة لآتينّه حتّى أطأ على عنقه...»[1]. رأى أسياد مكّة في صلاة محمّد عند الكعبة خطوة أولى من أجل الهيمنة على أهم رمز ديني كان يصنع مجد قريش، ولا نعرف إن كان محمّد يؤدّي صلاة خاصة عند الكعبة أم أنّه يؤدّي شعائر تعبّديّة لا تختلف عن شعائر أهل مكّة.

جرّب أسياد مكّة وسائل ترهيب مختلفة ضد محمّد، وحاولوا عرضه على طبيب أملاً في شفائه وتخليصه من "الأرواح الشرّيرة" التي صارت تتحكم فيه، وعملوا على إغرائه بكثير من مباهج الحياة وملذّاتها حتّى يتراجع عن بعض ما يدّعيه، فقالوا له: «... فإن كنت إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به الشّرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا...»[2]. وطلبوا منه أن يعترف بآلهتهم ويقرّ لها بالقدرة على الشّفاعة مقابل ما عرضوه عليه من ملذّات ومباهج. أدرك أسياد مكّة أنّ أمر محمّد آخذ في التّعاظم وأنّه متى خرج من مكّة لن يعدم أنصارا وحلفاء، وأرادوا أن يستغلوا دعوته لصالح قريش، فعرضوا عليه السّيادة على شرط أن يتبنّى موروثهم الدّيني ويدمجه في عقيدته.

---

(١) الطّبري: **جامع البيان...**، م ١٥، ج ٣٠، ص ٢٨٣.
(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٢٣.

لقد أراد أسياد مكّة أن يأكلوا بمحمّد العرب.

جرّب أسياد مكّة وسائل مختلفة تجمع بين التّرهيب والتّرغيب لإقناع محمّد بالتّراجع عن بعض ما يدّعيه، ولم يسلّطوا عليه عذاباً كبيراً لتكفّل معظم بني هاشم وبني المطّلب بالدّفاع عنه ولتكفّل عدد من أسياد مكّة من غير عشيرته بالدّفاع عنه مثل مطعم بن عدي (نوفل) وأبي البختري العاص بن هشام (أسد بن عبد العزّى). وكانت لأسياد مكّة أنشطة معادية ضد قسم من أتباع محمّد، وأقصى ما فعلوه هو قتل سميّة بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة أحد بني مخزوم وأمّ عمّار بن ياسر و«كانت عجوزا كبيرة ضعيفة»[١]. فقد تعرّضت للتّعذيب، وقتلها أبو جهل أشدّ أسياد مكّة على أتباع محمّد. وتعرّض عدد من الحلفاء والعبيد الذين دخلوا في دين محمّد لعمليّة تعذيب منظم مثل عبد اللّه بن مسعود وخباب بن الأرت حليفي بني زهرة بن كلاب[٢]، وصهيب بن سنان حليف تيم بن مرّة[٣]، وبلال بن ربّاح وكان عبداً لبعض جمح[٤]، وعامر بن فهيرة وكان عبداً لأحد حلفاء تيم بن مرّة[٥]، وأبي فكيهة الذي كان مولى لبعض بني عبد الدّار[٦]، والنّهدية وابنتها وكانتا لإمرأة من بني عبد الدّار وجارية وكانت لبعض عدي بن كعب وأم عبيس وزنيرة[٧].

كان معظم أتباع محمّد الذين عذّبهم أسياد مكّة من العبيد الذين هم ملك لأسيادهم، أمّا الحلفاء الذين لحقهم العذاب فكانوا في أغلبهم من الفقراء. فعبد اللّه بن مسعود راعي غنم عند عقبة بن أبي معيط[٨]، وكان خباب بن الأرت قيناً يصنع السّيوف[٩]، وكان صهيب بن سنان استثناء بين الحلفاء الذين عذّبوا في مكّة، إذ استطاع أن يكوّن ثروة، قال له أسياد مكّة عندما رأوه يهمّ بالهجرة: «أتيتنا ها هنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت...»[١٠]. ما يجمع بين الذين عُذّبوا في مكّة أنّهم في أغلبهم من المستضعفين، «والمستضعفون قوم لا عشائر لهم بمكّة، وليست لهم منعة ولا قوّة، فكانت قريش تعذّبهم في الرّمضاء بأنصاف النّهار ليرجعوا عن دينهم»[١١].

لا يمثّل المستضعفون الذين عذّبهم أسياد مكّة سوى نسبة ضئيلة من العبيد

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٨، ص ٢٦٤.
(٢) نفسه، م ٣، ص ١٦٤.
(٣) نفسه، م ٣، ص ٢٢٦.
(٤) نفسه، م ٣، ص ٢٣٢.
(٥) نفسه، م ٣، ص ٢٣٠.
(٦) نفسه، م ٤، ص ١٢٣.
(٧) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٤٢.
(٨) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٣، ص ١٥٠.
(٩) نفسه، م ٣، ص ١٦٤.
(١٠) نفسه، م ٣، ص ٢٢٨.
(١١) نفسه، م ٣، ص ٢٤٨.

والحلفاء والموالي الذين دخلوا في دين محمّد[١]، ولا يمكن أن نُرجع ذلك إلى هجرتهم إلى الحبشة لأنّ معظمهم لم يهاجروا إليها ولم يفارقوا مكّة[٢]. تولّت معظم عشائر قريش حماية أتباعها من الحلفاء والموالي والعبيد الذين تابعوا محمّداً، ولم يكترث أغلب أسياد مكّة بإسلام من لا ينتمي إلى قريش بالأصل، ولم يغفلوا عمّا يمكن أن ينجرّ عن تعذيب عبيدهم من خسارة اقتصاديّة، فلم يمانعوا في بيعهم ومقايضتهم. تمثّل التّعذيب الذي مارسه أسياد مكّة في جلد المستضعفين وتعريضهم لحرّ الشّمس ووضع الصّخور فوقهم ومنع الماء عنهم والتمثيل بهم في طرق مكّة: «... فجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم أن يشدّوا به بين أخشبي مكّة...»[٣]. واستعمل أسياد مكّة النّار لتعذيب بعض المستضعفين. يقول خباب بن الأرت: «فلقد رأيتني يوما أخذوني، وأوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني فيها»[٤].

تعرّض عدد من العبيد والحلفاء الدّاخلين في دين محمّد لتعذيب منظّم سلّطه عليهم من كانوا يعيشون تحت حمايته بالحلف أو بالتّملّك، وتعرّض قسم من أبناء قريش الدّاخلين في دين محمّد لعنف جسدي مارسه أقاربهم في أغلب الأحيان. فعندما دخل خالد بن سعيد في دين محمّد «ضربه أبو أحيحة بقراعة في يده حتّى كسرها على رأسه، ثم أمر به إلى الحبس، وضيّق عليه، وأجاعه...»[٥]، أمّا عثمان بن عفان فقد «أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أميّة، فأوثقه ربطاً»[٦]، وقام بعض أسياد مكّة بقرن أبي بكر الصدّيق وطلحة بن عبيد اللّه في حبل عقاباً لهما على دخولهما في دين محمّد[٧].

لم يمارس أسياد مكّة ضد أبناء قريش الدّاخلين في دين محمّد تعذيباً منظّماً، وأغلب حوادث العنف الجسدي التي طالت أتباعه من قريش مارسها أقاربهم، وهذا ما جعلها حوادث غير خطيرة، ولم تشكّل خطراً جديّاً على حياتهم. كما عمل أسياد مكّة على حصار أتباع محمّد اقتصادياً بإكساد تجارتهم وقطع موارد الرزق عنهم. يقول سعيد بن العاص لابنه خالد الذي تابع محمّداً: «اذهب يا لكع حيث شئت، فواللّه لأمنعنّك

(١) حياة عمامو: **أصحاب محمد ودورهم في نشأة الإسلام**، ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ص ٣٤٥ ـ ٣٥٢.
(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٣، ص ٢٣٣.
(٤) نفسه، م ٣، ص ١٦٥.
(٥) نفسه، م ٤، ص ٩٥.
(٦) نفسه، م ٣، ص ٥٥.
(٧) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٢٩٣.

القوت»[1]. وساءت حال مصعب بن عمير بعد إسلامه لقطع أقاربه الرّزق عنه، وكانت ثروة أبي بكر عندما بُعث محمّد تقدّر بأربعين ألف درهم، فأصبحت عند الهجرة إلى يثرب تقدّر بخمسة آلاف درهم[2]. ولا شكّ في أن ثروته تضاءلت لا بسبب عتقه لعدد من العبيد الذين دخلوا في دين محمّد فقط بل بسبب حرمانه من المشاركة في رحلات مكّة التّجاريّة أيضاً.

عانى معظم أبناء قريش الذين دخلوا في دين محمّد من التّضييق عليهم في موارد الرّزق، وساءت حالهم لأنّ معظمهم كانوا من التجّار وأصحاب الحرف، إذ كان عثمان بن عفان بزّازاً مثله مثل طلحة بن عبيد اللّه، وكان الزّبير بن العوّام جزّاراً[3]. إنّ طبيعة الاقتصاد المكّي القائم على التّجارة هي التي جعلت الحصار الاقتصادي بالغ التأثير في أتباع محمّد. يقول سعد بن أبي وقّاص: «لقد رأيتني مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بمكّة، فخرجت من اللّيل أبول، فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها، فرضضتها بين حجرين، ثم استففتها، فشربت عليها من الماء، فقويت عليها ثلاثاً»[4].

اختلفت طريقة أسياد مكّة في معاقبة أتباع محمّد باختلاف انتمائهم الطّبقي والقبلي: «وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش إذا سمع بالرّجل قد أسلم له شرف ومنعة أنّبه وخزّاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفّهنّ حلمك، ولنفيلنّ رأيك، ولنضعفنّ شرفك. وإن كان تاجراً قال: واللّه لنكسدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه، وأغرى به»[5].

سلّط أسياد مكّة أنواعاً من التّعذيب على عدد من العبيد والحلفاء الدّاخلين في دين محمّد، وضيّقوا على أبناء قريش الذين تابعوه، فقطعوا موارد الرّزق عنهم، وأنّبوهم، وحبسوا عدداً منهم، وتذكر عدّة مصادر أنّ أتباع محمّد تستّروا عندما اشتدّ أذى أسياد قريش لهم بدار الأرقم بن أبي الأرقم. من المرجّح أنّ محمّداً اتّخذ هذه الدّار مقرّاً للدّعوة وللالتقاء بأتباعه، ومن المستبعد أن تكون هذه الدّار فضاء للتّستّر والاختفاء.

كانت عداوة أسياد مكّة لأتباع محمّد سبباً قويّاً لهجرتهم إلى الحبشة في السّنة

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٩٥.
(٢) نفسه، م ٣، ص ١٧٢.
(٣) ابن قتيبة: **المعارف**، ص ٥٧٥.
(٤) ابن إسحاق: **كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي**، ج ٤، ص ١٧٤.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٤٣.

الخامسة من بداية تجربة النّبوّة، وسعى أسياد مكّة إلى منع عدد من أتباع محمّد من الرّحيل عن مكّة، وحاولوا منعهم من الهجرة إلى الحبشة في مرحلة أولى وإلى يثرب في مرحلة ثانية. بدأت الهجرة إلى الحبشة في السّنة الخامسة من بداية تجربة النّبوّة، وتقدم المصادر أكثر من رواية حول هذه الهجرة. تقول رواية أولى إنّ أتباع محمّد هاجروا هجرة واحدة نحو الحبشة[1]، وتقول رواية ثانية إنّهم هاجروا هجرتين إلى الحبشة، إذ هاجر فريق منهم إليها، ثم عادوا بعد فترة قصيرة إلى مكّة، ليعاودوا الهجرة إلى الحبشة ضمن مجموعة أكبر[2]. ما يثير الاستغراب في الرّواية الثانية أنّها تحدّد المدّة الزّمنيّة التي استغرقتها الهجرة الأولى بأربعة أشهر، وهذا أمر يصعب قبوله، فالاحتمال الأرجح أنّ أتباع محمّد هاجروا مرة واحدة إلى الحبشة وأنّ هذه الهجرة تمّت على مراحل، إذ بدأت هجرتهم إليها في السّنة الخامسة، وتواصلت إلى السّنة التاسعة[3]. وقد يكون بعض أتباع محمّد الذين عدّتهم المصادر من المهاجرين إلى الحبشة يتردّد بينها وبين مكّة للتّجارة، ولهذا وصل إلى الحبشة في زمن متأخّر من الفترة المكّية.

تذكر المصادر أنّ أتباع محمّد خرجوا إلى الحبشة متسلّلين سرّاً لأنّهم مُنعوا من الرّحيل عن مكّة وحُبس عدد منهم. رأى أسياد مكّة في هجرة أبنائهم ضرباً من التّمرّد والعقوق، فسعوا إلى منعهم من ذلك، ومن المستبعد أن يكون أولئك الأسياد قد حاولوا منع جميع أتباع محمّد من الرّحيل عن مكّة. خبر هجرة أبي بكر إلى الحبشة التي لم تتمّ لا يذكر أنّ أسياد مكّة منعوه من مغادرة مكّة. «قال ابن إسحاق: وقد كان أبو بكر الصّدّيق رضي اللّه عنه (...) حين ضاقت عليه مكّة، وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه ما رأى، استأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في الهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً معه، حتّى إذا سار من مكّة يوماً أو يومين لقيه ابن الدّغنة (...) فقال ابن الدّغنة: أين يا أبا بكر ؟ قال أخرجني قومي، وآذوني، وضيّقوا عليّ...»[4].

حاول أسياد مكّة منع أقاربهم من الرّحيل عن مكّة، وتذكر المصادر أنّهم أرسلوا إلى النّجاشي ملك الحبشة يطلبون منه أن يردّ إليهم من جاءه من أتباع محمّد، فرفض طلبهم. كانت لأسياد مكّة علاقات تجاريّة مع الحبشة، ومن الممكن أنّهم خافوا على

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٤٦ ـ ٣٥٢.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٨.

(٣) نفسه، م ٤، ص ١٠١.

(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

تجارتهم من أتباع محمّد، فأرسلوا إلى ملكها لشدّ العقود والمواثيق، ومن الممكن أنهم كلّفوا بعض التّجار الذين يتردّدون على الحبشة للتّجارة بمحاولة إقناع أبناء قريش بالعودة إلى مكّة، وعاد فريق من مهاجري الحبشة إلى مكّة، فأحسن أسيادها استقبالهم.

حاول أسياد مكّة منع من كانت تربطهم بهم صلة رحم قويّة من الهجرة إلى الحبشة، ولم يختلف الأمر كثيراً عندما بدأ أتباع محمّد بالهجرة نحو يثرب، «فلمّا خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كلبت قريش عليهم، وحربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم»[١] . كان أغلب أتباع محمّد من شباب قريش، فحاول أسياد مكّة منعهم من الهجرة، فخرجوا متسلّلين سرّاً، وقام أسياد مكّة بشدّ وثاق عدد من أتباع محمّد ممن سبق لهم الهجرة إلى الحبشة مثل عبد اللّه بن سهيل بن عمرو[٢]، وعيّاش بن أبي ربيعة[٣]، وسلمة بن هشام[٤]، وهشام بن العاص[٥]، واستطاعوا إقناع عدد من أتباع محمّد بالمكوث في مكّة، فلم يهاجروا إلى يثرب مثل معمر بن عبد اللّه[٦]، وسهل بن بيضاء[٧]، ومقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان[٨].

رأى أسياد مكّة في هجرة أبناء قريش إلى يثرب ضرباً لوحدة القبيلة القائمة على قداسة رابطة الدّم، فحاولوا منع أقاربهم من الرّحيل عن مكّة، وفرّقوا بين المرأة وزوجها والأم وابنها. ينقل الرّواة عن أمّ سلمة إحدى نساء بني مخزوم ما أصابها عندما أرادت الرحيل مع زوجها عن مكّة، «... قالت: لمّا أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلمّا رأته رجال بني المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، قالوا: لا، واللّه، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتّى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم...»[٩].

حاول أهل مكّة منع أقاربهم من الرّحيل عنها، واستغل بعضهم حدث الهجرة ليستحوذ على ممتلكات بعض المهاجرين، فأُخذ مال صهيب بن سنان، واستحوذ أبو

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٢٦.
(٢) نفسه، م ٣، ص ٤٠٦.
(٣) نفسه، م ٤، ص ١٢٩.
(٤) نفسه، م ٤، ص ١٣٠.
(٥) نفسه، م ٤، ص ١٩١.
(٦) نفسه، م ٤، ص ١٣٩.
(٧) نفسه، م ٤، ص ٢١٣.
(٨) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٨٣.
(٩) نفسه، ج ٢، ص ٦٧.

سفيان بن حرب على ديار بعض حلفائه من بني أسد بن خزيمة[1]، واستحوذ عقيل بن أبي طالب على دار محمّد، وعمل بعض سكّان مكّة على إثارة عاطفة حبّ أتباع محمّد لذويهم، فعاقبت نفر من الأمّهات أنفسهن احتجاجاً على عقوق أبنائهن ولإجبارهم على ترك دين محمّد: «... عن عامر بن سعد عن أبيه قال: جئت من الرّمي، فإذا النّاس مجتمعون على أمّي حمنة بنت سفيان بن أميّة بن عبد شمس وعلى أخي عامر حين أسلم، فقلت: ما شأن النّاس ؟ قالوا: هذه أمّك قد أخذت أخاك عامر، تعطي اللّه عهداً ألاّ يظلّها ظل ؛ ولا تأكل طعاماً، ولا تشرب شراباً حتّى يدع الصّباوة...»[2]. وتذكر المصادر أنّ عيّاش بن أبي ربيعة عاد إلى مكّة بعد هجرته إلى يثرب عندما بلغه أنّ أمّه نذرت ألاّ يمسّ شعرها مشط حتّى تراه[3]. مارس أسياد مكّة تعذيباً منظّماً ضد عدد من العبيد والموالي، وتكفّلت العشائر بحماية أبنائها من أتباع محمّد، وتكفّل عدد من أسياد مكّة بحماية أتباع محمّد ضمن ما يعرف بالجوار، فدخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة[4]، ودخل أبو بكر بن قحافة في جوار ابن الدّغنة سيّد الأحابيش[5].

حاول أهل مكّة إثارة عاطفة حبّ الأهل في نفوس أتباع محمّد لحملهم على ترك دينه، وكان لهذه الطّريقة تأثير في عدد من أبناء قريش، ويرجع ذلك إلى قوّة الرّوابط الدّمويّة في مكّة زمن النّبوّة، فالشّعور بواجب نصرة ذوي القربى هو الذي جعل معظم بني هاشم وبني المطّلب يتكفّلون بحماية محمّد رغم ما جرّه ذلك عليهم من صعوبات كثيرة مثل محاولة إخراجهم من مكّة.

طلب أسياد مكّة من بني هاشم وبني المطّلب خلع محمّد، «فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا فإمّا أن تكفّه عنّا وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه، فإنّك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه»[6]. وعندما رفض بنو هاشم وبنو المطّلب أن يخلّوا بين محمّد وبين أعدائه تعالت أصوات عدد من أسياد مكّة مطالبة بطردهم من مكّة، ولمواجهة هذا الأمر تجمّع حماة محمّد في شعب أبي طالب. يقول أبو طالب مخاطباً أسياد قريش الذين نادوا بطرد بني هاشم وبني المطّلب من مكّة:

كَذَبْتُمْ، وَ بَيْتِ اللَّهِ، نَتْرُكُ مَكَّةَ ... وَنَظْعَنُ إلاّ أمْرُكُمْ فِي بَلاَبِلِ[7]

---

(1) نفسه، م ٤، ص ١٠٢.
(2) نفسه. م ٤، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(3) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٧٢.
(4) نفسه، ج ١، ص ٣٨١.
(5) نفسه، ج ١، ص ٣٨٣.
(6) نفسه، ج ١، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.
(7) نفسه، ج ١، ص ٣٠٦.

رفض بنو هاشم وبنو المطّلب الرّحيل عن مكّة والالتحاق بقريش الظواهر، وساءت علاقتهم بأبناء العشائر الأخرى، وقام أسياد مكّة بحصار حماة محمّد اقتصادياً واجتماعياً: «... اجتمعوا، وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطّلب على ألاّ ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، فلمّا اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة، ثم تعاهدوا، وتواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم»[١]. بدأ الحصار في السّنة السّادسة من بداية عهد النّبوّة، واستمرّ بين سنتين وثلاث سنوات، وكان له تأثير قويّ في بني هاشم وبني المطّلب، «وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشّعب»[٢]. ولا شكّ في أنّ طبيعة اقتصاد مكّة القائم على التّجارة هي التي جعلت المقاطعة الاقتصاديّة شديدة التّأثير فيهم، واختار أبو لهب ثري بني هاشم مظاهرة قومه والخروج عنهم خوفاً على تجارته من الكساد.

تجمع المصادر على أنّ حماة محمّد أنهكهم الحصار وأضرّ بهم، ومن المرجّح أنّ عدداً من أسياد مكّة تمكّنوا بسبب هذا الحصار من توسيع نصيبهم من أنشطة مكّة التجاريّة، وكان أبو جهل أكثر أسياد مكّة إصراراً على إطالة أمد الحصار وإحكامه، وقام بعض قريش بدافع القرابة الدّمويّة بنقض الحصار خلسة، وبعد مضيّ بين سنتين وثلاث سنوات انهار إجماع أسياد مكّة على حصار حماة محمّد، وتعالت الأصوات مطالبة بإنهائه، فتمّ نقض الصّحيفة من عناصر تنتمي إلى عشائر قرشيّة عديدة هي عامر بن لؤي ونوفل وأسد بن عبد العزّى ومخزوم[٣]، وكان الشعور بضرورة رحمة ذوي القربى هو الدّافع الأساسي لرفع الحصار عن حماة محمّد.

جرّب أسياد مكّة طرقاً مختلفة لحمل بني هاشم وبني المطّلب على خلع محمّد والتوقّف عن حمايته، فقاطعوهم، وهدّدوهم بالطرد من قريتهم، وحاولوا الوصول إلى صيغة تفاهم معهم، «فقالوا لقومه: خذوا منّا ديّة مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش...»[٤]. وتذكر المصادر أنّهم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة «أنهد فتى في قريش، وأجمله»[٥] مقابل أن يخلّي بينهم وبين محمّد. قد يكون هذا الخبر مختلقاً، ولكنّه معبّر عن المجهود الذي بذله أسياد مكّة لإقناع أبي

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٦٧.
(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٠٩.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧.
(٤) ابن سيّد النّاس: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير**، ج ١، ص ١٢٦.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٠٠.

طالب بخلع محمّد، فهم يدركون أنّه متى تخلّى بنو هاشم عنه أصبح أمره سهلاً، فمحمّد يستمد منعته من حماية عشيرته له، ويستمد بنو هاشم قوّتهم من انتمائهم إلى مجموعة بني عبد مناف التي تضم، علاوة على بني هاشم، بني المطّلب وبني نوفل وبني عبد شمس.

لم يقبل أسياد مكّة أهمّ مبدأين دعا إليهما محمّد، وهما مبدأ وحدانيّة اللّه ومبدأ البعث والحساب: «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» (ص ٣٨/ ٥)، «وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» (الإسراء ١٧/ ٤٩). يقوم دين مكّة "الرّسمي" على تعدّد الآلهة، وعظّم أهل مكّة عدّة آلهة أشهرها هبل واللاّت والعزّى ومناة، وكانت معظم هذه الآلهة توجد خارج مكّة، واشتركوا في تعظيمها مع عدد من التجمّعات البشريّة الأخرى. وكان أهل مكّة يؤمنون وعلى نحو غامض بوجود إله أعلى، ومن المرجّح أنهم يطلقون عليه اسم "اللّه": «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» (العنكبوت ٢٩/ ٦١)، «قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ. سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ. قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ» (المؤمنون ٢٣/ ٨٥ ـ ٩٠). واعتقدوا أنّ "اللّه" هو الأعلى والأقدر وبقيّة الآلهة شفعاء عنده «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّهِ» (يونس ١٠/ ١٨). وكانوا يهدون إلى اللّه كما يهدون إلى آلهتهم: «وَجَعَلُوا لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا، فَقَالُوا هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (الأنعام ٦/ ١٣٦). وكان أهل مكّة يؤمنون بوجود الملائكة، ويعتقدون أنّها بنات اللّه: «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلاَئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا» (الإسراء ١٧/ ٤٠). وكانوا يؤمنون بوجود الجنّ: «وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ» (الأنعام ٦/ ١٠٠). واعتقدوا أنّ للجنّ صلة قرابة باللّه: «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» (الصّافات ٣٧/ ١٥٨). واعتقد أهل مكّة «أنّ وجهاء الجن يقدّمون بناتهم للاقتران باللّه وأنّ الملائكة هم ثمرة تلك الاقترانات»[1]. جاء في النّص القرآني على لسان الجن: «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا. وَأَنَّهُ كَانَ

---

(١) يوسف شلحد: **بنى المقدّس عند العرب...**، ص ٥٢.

يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا» (الجن ٧٢/ ٣ ـ ٤). يبدو أنّ عدم الاعتقاد في وحدانيّة اللّه كان مرتبطاً على نحو ما عند أهل مكّة بعدم الاعتقاد في البعث والحساب: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» (الزّمر ٣٩/ ٤٥).

لم تكن المبادئ الدّينيّة التي دعا إليها محمّد غريبة عن أهل مكّة، فهم يعرفون القول بالبعث بعد الموت: «وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنّا تُرَابًا وَ آبَاؤُنَا أَإِنّا لَمُخْرَجُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ» (النمل ٢٧/ ٦٧ ـ ٦٨). وقد تكون مثل هذه الدّعوات القائلة بالبعث بعد الموت قد حملها بعض رجال الدّين من النّصارى واليهود، فمكّة لم تعرف ظاهرة الأنبياء: «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ» (سبأ ٣٤/ ٤٤). ومن الظّاهر أنّ أهل مكّة لم تكن لهم معرفة بأخبار "الأنبياء العرب" الذين يتحدّث عنهم النّص القرآني مثل شعيب وصالح وهود، وتدلّ شواهد عديدة على أنّ أهل مكّة كانوا يبدون تعظيماً لإبراهيم ويعتبرونه باني الكعبة، وتضمّ الكعبة في جوفها صورا لإبراهيم و«في يده الأزلام يستقسم بها»[1]. وكان الحنفاء من أهل مكّة يعلنون أنّهم على دينه الصّحيح ويتّهمون أهل مكّة بتحريفه، ويذكر النّص القرآني إنّ إبراهيم نبيّ منذ فترة مبكّرة من زمن النّبوّة: «إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى» (الأعلى ٨٧/ ١٨ ـ ١٩). ويتحدّث القرآن عنه باعتباره مؤسّس الكعبة من دون أن يواجه برفض أهل مكّة ممّا يدلّ على أنّهم كانوا على مثل ذلك الرّأي. ومارس أهل مكّة الختان، وقد يكون ذلك اقتداء بإبراهيم، وكانوا يعتقدون في نسبتهم إلى إسماعيل، ويذكر النّص القرآني في الفترة المكّية من زمن النّبوّة صلة الأبوّة التي تجمع بين إبراهيم وإسماعيل: «الحَمْدُ للهِ الّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ» (إبراهيم ١٤/ ٤١). ومن المرجّح أنّ أهل مكّة كانوا على مثل هذا الرأي.

كانت لأهل مكّة علاقات متنوّعة بيهود الحجاز وبالنّصارى، وأبدوا تسامحاً تامّاً تجاه الدّيانات التّوحيديّة من يهوديّة ونصرانيّة، وأبدوا تسامحاً مع دخول بعض العناصر المكّية في النّصرانيّة. قد يكون هذا التّسامح تجاه الدّيانات التوحيديّة أمراً اقتضته طبيعة أنشطتهم التّجاريّة، وعرفت مكّة في آخر عهد الجاهليّة ظاهرة دينيّة تسمّى "الحنيفيّة"، وتتمثل في رفض تعدّد الآلهة وما يرتبط بها من طقوس دينيّة ورفض عدّة ممارسات اجتماعيّة مثل شرب الخمر ووأد البنات. ما تقدّمه المصادر من معلومات قليلة عن سير

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٢٧.

الحنفاء يثبت أنّ أسياد مكّة وقفوا منهم موقف عداء: «وكان الخطّاب قد آذى زيداً حتّى أخرجه إلى أعلى مكّة، فنزل حراء مقابل مكّة، ووكّل به الخطّاب شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكّة. فكان لا يدخلها إلا سرّاً منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطّاب، فأخرجوه، وآذوه كراهيّة أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراقه»[1]؛ وكان زيد بن عمرو «فارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميّتة والدّم والذّبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة»[2]؛ ولم يمض زمن طويل على وفاته حتّى أعلن محمّد نبوّته، فزيد بن عمرو «توفّي وقريش تبني الكعبة قبل نزول الوحي على النّبي صلّى الله عليه وسلّم بخمس سنين، وقد نزل به الموت وهو يقول أنا على دين إبراهيم»[3].

تعامل أسياد مكّة مع النّصرانيّة واليهوديّة على أنّهما دينان أجنبيان، فلم تكن اليهوديّة ولا النّصرانيّة منافستين لدين مكّة الرّسمي القائم على تعدّد الآلهة وقداسة الكعبة، إذ لم يكن للنّصرانيّة نشاط تبشيري قويّ في منطقة الحجاز، «في حين كانت اليهوديّة خاصة ببني إسرائيل ولا تسعى إلى إدخال غير اليهود فيها»[4]. أمّا الحنيفيّة فكانت منغرسة في ثقافة مكّة وتأخذ كثيراً من عناصرها من دين مكّة الرّسمي، ولهذا رأى أسياد مكّة في الحنفاء خطراً على دينهم، ولم يختلف محمّد عن الحنفاء كثيراً في علاقته بدين مكّة الرّسمي، فدينه حمل عناصر كثيرة تشدّه إلى ثقافة مكّة، وهي عناصر أعطته إمكانيّة نجاح أكبر، وكان أسياد مكّة على وعي أنّ دين محمّد إن لم يقاوم سينتهي إلى التّغلب على مكّة: «ومرض أبو أحيحة، وهو سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس بن مناف، مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه أبو لهب يعوده، فوجده يبكي فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بدّ منه ؟ فقال: لا، ولكني أخاف أن لا تُعبد العزّى بعدي...»[5].

عادى أسياد مكّة محمّداً دفاعاً عن دينهم وعن آلهتهم: «وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ» (ص ٣٨/ ٥؛) وعادوه دفاعاً عن مكانة الآباء: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ...» (سبأ ٣٤/ ٤٣)؛ وكان الآباء يحوزون مكانة متميّزة في نفوس أهل

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٢٧٣.
(٢) نفسه، ج ١، ص ٢٦٨.
(٣) البلاذري: **جُمل من أنساب الأشراف**، ج ١٠، ص ٤٦٨.
(٤) عبد المجيد الشرفي: **الإسلام بين الرسالة والتاريخ**، ص ٢٩.
(٥) ابن الكلبي: **كتاب الأصنام**، ص ٢٣.

مكّة، جاء في النّص القرآني «فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا...» (البقرة ٢/ ١٩٩). رأى أسياد مكّة في دين محمّد خطراً على البنية الاجتماعيّة السّائدة في مكّة لأنّ احترام الآباء هو شرط بقاء المواضعات الاجتماعيّة، ورأوا في دخول عدد من شباب مكّة في دين محمّد ضرباً من العقوق والتّمرّد، وفي إسلام الفقراء والعبيد تطاولاً على منزلة الكبراء والأسياد. يقول أحد أسياد مكّة مخاطباً محمّد: «... إنّا، واللّه، ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرّقت جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتّى لقد طار فيهم أنّ في قريش ساحراً وأنّ في قريش كاهناً، واللّه، ما ننتظر إلاّ مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسّيوف حتّى نتفانى»[1]. وتقول جويريّة بنت أبي جهل: «ولقد كان جاء أبي الذي جاء محمّداً من النّبوّة، فردّها، ولم يرد خلاف قومه»[2].

رأى أسياد مكّة في دين محمّد تهديداً لوحدة قبيلة قريش، وخافوا منه على أمن مكّة وحرمتها: «وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا...» (القصص ٢٨/ ٥٧). كان أهل مكّة يتمتّعون بمكانة خاصة بين العرب، ولم تكن قريتهم تتعرّض للإغارة لتقديس العرب الكعبة: «أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ...» (العنكبوت ٢٩/ ٦٧). خاف أسياد مكّة من أن يؤدّي انتشار دين محمّد في مكّة إلى ضياع مكانة قريش بين النّاس، وممّا زاد من مخاوفهم أنّ محمّداً لم يلتزم بنظام الحمس عند أداء شعائر الحج: «قال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: أضللت بعيراً في يوم عرفة، فخرجت أقصّه، وأتبعه بعرفة، إذا أبصرت محمّداً بعرفة، فقلت: هذا من الحمس ما يوقفه هاهنا. فعجبت له»[3].

مثّل دين محمّد في نظر أعدائه خطراً على مكانة قبيلة قريش بين العرب وتهديداً لأنشطتها الاقتصاديّة، فازدهار تجارة مكّة مرتبط بتوفّر الحماية للقوافل التّجاريّة، وكان الحجّ مناسبة دينيّة ومناسبة اقتصاديّة، وكان أهل مكّة يستفيدون اقتصادياً من قدوم وفود العرب إلى مكّة تعظيماً لبيت اللّه الحرام، وخاف أسياد مكّة من أن يؤدّي انتشار دين محمّد إلى ضياع ما كانوا يستفيدونه من ترابط بين الأنشطة الاقتصاديّة والطقوس الدّينيّة المتمحورة حول الكعبة. جاء في النّص القرآني: «يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (التوبة ٩/ ٢٨).

---

(١) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج ٣، ص ٦٢.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٨٤٦.

(٣) الأزرقي: **أخبار مكة**، ج ١، ص ١٢٢.

عادى أسياد مكّة محمّداً دفاعاً عن معتقداتهم وعن علاقات الحبّ التي تشدّهم لآبائهم وأبنائهم وحفاظاً على مصالحهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة، واستطاعوا أن يحقّقوا نتائج مهمّة. فرغم مكوث محمّد ثلاث عشرة سنة في مكّة يدعو إلى دينه لم يقنع سوى عدد ضئيل من أسيادها بصدق دعوته، ولم يدخل في دينه سوى عدد محدود من سكّانها، وكان أتباعه في معظمهم من الشّباب والحلفاء والعبيد، وكان إسلام معظمهم في السّنوات الخمس الأولى، وعندما اشتدّت حركة عداوة أسياد مكّة لمحمّد تراجعت كثافة دخول النّاس في دينه بشكل واضح، ووصل في آخر سنواته بمكّة إلى أفق يكاد يكون مسدوداً، فاشتدّ حزنه لذلك، «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا» (الكهف ١٨/٦). وبحثاً عن فرص نجاح أفضل رحل محمّد عن مكّة.

كانت عداوة أسياد قريش لمحمّد محكومة بخصائص مكّة الدّاخليّة وبطبيعة علاقتها بالتّجمّعات البشريّة الموجودة حولها، فمن النّاحية الاجتماعيّة كان لروابط الدّم دور كبير في تشكيل التنظيمات الاجتماعيّة وتحديد نظام الولاءات. وكانت للقرابة الدّمويّة وظيفة مزدوجة، إذ كانت دافعاً قويّاً لعداوة محمّد وأتباعه وسبباً للدّفاع عنهم، تولّى رجال قريش التّضييق على أبنائهم الدّاخلين في دين محمّد، ولم يسمحوا لغيرهم بالتّعرض لهم: «قال ابن إسحاق وحدّثني الزبير بن عكاشة بن عبد اللّه بن أبي أحمد أنّه حدّث أنّ رجالاً من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد بن المغيرة، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا ومنهم سلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة. قال: فقالوا له وخشوا شرّه: إنّا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدّين الذي أحدثوا، فإنّا نأمن بذلك في غيرهم قال: هذا، فعليكم به، فعاتبوه، وإيّاكم ونفسه (...) احذروا على نفسه، فأقسم باللّه، لئن قتلتموه لأقتلنّ أشرفكم رجلاً. قال: فقالوا: اللّهم، العنه من يغرر بهذا الحديث، فواللّه، لو أصيب في أيدينا لقتل أشرفنا رجلاً. فتركوه، ونزعوا عنه...»[1].

لم يسمح أسياد مكّة لغيرهم بعقاب أبنائهم الداخلين في دين محمّد، وقام فريق من رجال قريش بخرق حصار حماته، «. . . قال ابن إسحاق: ثم إنّه مشى إلى زهير بن أبي أميّة بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم، وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطّلب، فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النّساء وأخوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم، أما إنّي أحلف باللّه أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٤٤.

إليه منهم ما أجابك إليه أبداً...»[١]. وقام بنو هاشم بحماية محمّد، وساندهم في ذلك قسم من بني عبد مناف: «.... فدخل النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم مكّة، وأقام بها، فدخل يوماً المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة، فلمّا رآه أبو جهل قال: هذا نبيّكم، يا بني عبد مناف، قال عتبة بن ربيعة: وما تنكر أن يكون منّا نبي أو ملك!»[٢].

كانت للروابط الدّمويّة فاعليّة في تشكيل الأطر الاجتماعيّة وصنع الأحداث زمن ظهور دين محمّد، ولكنّها ليست فاعليّة مطلقة، إذ عرفت مكّة في آخر عهد الجاهليّة تنامي التّفاوت الطّبقي، وظهرت طبقة من الأثرياء، وقام أثرياء مكّة بتزعّم حركة أهل مكّة المعادية لمحمّد، وسخّروا إمكانياتهم المادية لذلك، ويبدو أنّهم كانوا المستفيدين من حصار بني هاشم وبني المطّلب. بالإضافة إلى التّفاوت الطّبقي عرفت مكّة في آخر عهد الجاهليّة قيام عدّة أحلاف، فبسبب الخلافات حول الوظائف السّياسيّة والرّمزيّة التي كانت لدى قصي انقسم أبناؤه إلى فريقين: الأحلاف والمطيّبين، واستنجد كل فريق بعدد من العشائر الأخرى.

ضمّ حلف المطيّبين بني عبد مناف وبني أسد بن عبد العزّى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة وبني الحرث بن فهر، ويتمثل الأحلاف في بني عبد الدّار وبني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي بن كعب[٣]. رفض المطيّبون ترك ما كان لقصي من وظائف عند بني عبد الدّار، وتجهّزوا لقتالهم على ذلك قبل أن يتداعى الفريقان إلى الصّلح، وظلّ لهذه الحادثة تأثير قويّ في حياة مكّة الاجتماعيّة، وأصبحت للمطيّبين مقبرتهم وللأحلاف مقبرتهم[٤]. وتولّى عدد من المطيّبين الدّفاع عن محمّد، وقبل مطعم بن عدي سيّد عشيرة نوفل إجارته: «... ودعا بنيه وقومه، فقال: تلبّسوا السّلاح، وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمّداً. فدخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمّداً فلا يهجه أحد منكم...»[٥]. أجار سيّد عشيرة نوفل محمّداً، أمّا أبو البختري أحد أسياد عشيرة

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٨٥.

(٢) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٢، ص ٢٥٤.

(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٧٩.

(٤) Kister (M.J): «Some reports concerning Mecca from Jahiliyya to Islam», *J E S H O.*, Vol 15 N° 1-2, June 1972, p. 83.

(٥) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢١٢.

أسد بن عبد العزّى، فقد «... لبس السّلاح يوما بمكّة في بعض ما كان بلغ من النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الأذى، فقال: لا يعترض اليوم أحد لمحمّد بأذى إلا وضعت فيه السّلاح»[١].

كان للقرابة الدّمويّة دور محوري في صنع الأحداث زمن نبوّة محمّد، ولكنّه ليس دوراً مطلقاً، إذ تراجع حضور العشيرة في آخر عهد الجاهليّة، ولهذا تحدّى عدد من أبناء مكّة الآباء، ودخلوا في دين محمّد. ولم يترافق تراجع حضور العشيرة مع ظهور مؤسّسات قويّة تحظى بالقبول عند سكّان مكّة، فالسّيادة يتقاسمها رؤساء العشائر، أمّا الوظائف التي أورثها قصي لأبنائه فلم يكن لها دور كبير في إلزام أهل مكّة بموقف موحّد تجاه محمّد. إن غياب المؤسّسات هو الذي جعل أسياد مكّة لا يصوغون عداءهم لمحمّد بشكل منظّم، فكانت أنشطتهم في الغالب متقطّعة ومحكومة بانفعالات آنيّة، لم يتحرّكوا بصورة جماعيّة ضدّه، وظهرت بينهم خلافات كثيرة حول تحديد سبل مواجهته.

أدّى الازدهار التّجاري الذي عرفته مكّة إلى تنامي حضور قيم جديدة تتمحور حول الثّقة في الثّراء المادي. جاء في النّص القرآني: «كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَ لاَ تَحُضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا» (الفجر ٨٩/ ١٩ ـ ٢٢). وتضخّمت النّزعة الذّاتيّة واتّسعت استقلاليّة الفرد تجاه العشيرة، وتراجعت قيم البداوة كالأخذ بالثّأر وتمجيد العنف المادي، ولم تعد بعض الظواهر الموروثة تحظى بقبول تام عند سكّان مكّة وإن واصل بعضهم الامتثال لها مثل ظاهرة وأد البنات: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ به أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ...» (النّحل ١٦/ ٥٨ ـ ٥٩).

لم تعد القيم المرتبطة بحياة الإغارة تحظى باحترام سكّان مكّة، وتعاظمت عندهم قيمة النّفس البشريّة، فرفعوا في مقدار فدية القتيل، فصارت مائة من الإبل بعد أن كانت عشرة، وسنّوا قطع يد السّارق. وارتفعت الأصوات تدعو أهل مكّة إلى الالتزام بقيم نبيلة تتلاءم مع منزلتهم الدّينيّة، فهم أهل الحرم وولاة البيت، وكان حلف الفضول الذي ظهر في آخر عهد الجاهليّة محاولة للإصلاح الاجتماعي: «... فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكّة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر النّاس إلاّ قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتّى تردّ عليه مظلمته»[٢]. والتزم أسياد مكّة في

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٨٠. (٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٨٢.

عدائهم لمحمّد بالأعراف والقيم الأخلاقيّة، فلم ينتهكوا الأعراض والمحارم، ولم يكونوا سفهاء. وكان الحلم أبرز خصال قريش، ويتمثّل الحلم في الميل إلى العفو والرّحمة وإقالة العثرات ومراعاة المصلحة الجماعيّة وعدم الاحتكام إلى الانفعالات الذّاتيّة وعدم الجهل. أمّا على المستوى الذّهني فترافق تعاظم النّزعة الذّاتية بين سكّان مكّة إلى ظهور معنى جديد للحقيقة، فأصبحت قائمة إلى حدّ كبير على التّدبّر الذاتي والتّأمّل، ولم يعد الآباء هم مصدر الحقيقة الوحيد، وهذه الذّهنيّة الجديدة في تدبّر الوجود هي التي جعلت دين محمّد ممكن النّجاح. وكان أسياد مكّة على درجة جيّدة من النّضج العقلي، أداروا تجارة مربحة، وأقنعوا عدداً غفيراً من النّاس بجدوى الكفّ عن تبادل العنف، ولم يعرضوا عن دعوة محمّد، واستمعوا إليه، وكانوا محاورين جيّدين له، فالقرآن في جزء مهمّ من آياته المكّية مجادلة لأسياد مكّة الذين امتازوا بشيء من العقلانية، «عقلانية من الدّرجة الأولى لم تتساءل عن شيء، ولم تكن فتحاً وتجاوزاً، ولم تكن كذلك مجرّد حيوانيّة ولا غياباً للفكر»[1]. وكان أهل مكّة يعتقدون في قدرة الكلمة على الفعل والتّأثير المباشر، وخاف أسياد مكّة من محمّد لاعتقادهم أنّه قادر على إلحاق الأذى بهم لاتّصاله بقوى غيبيّة " منحطّة " مثله في ذلك مثل السّاحر والكاهن والشّاعر والمجنون. «إنّ العرب كانت تحترز عن إيذاء الشّعراء وتتّقي ألسنتهم (...) وقالوا: لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوّة شعره، إنّما سبيلنا الصّبر وتربّص موته»[2].

عمل أسياد مكّة في آخر عهد الجاهليّة على تطوير عقائد أهلها، فابتدعوا طقوساً وشعائر دينيّة خاصة بقريش ومن له صلة قرابة بهم. «قال ابن إسحاق: وقد كانت قريش، لا أدري أقبل الفيل أم بعده، ابتدعت رأي الحمس رأيا رأوه وأداروه، فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطّان مكّة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقّنا ولا مثل منزلتنا (...) فلا تعظّموا شيئاً من الحلّ كما تعظّمون الحرم، فإنّكم إن فعلتم ذلك استخفّت العرب بحرمتكم (...) فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويُقرّون أنّها من الشّعائر والحجّ ودين إبراهيم صلّى اللّه عليه وسلّم ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها، (...) قال ابن إسحاق: ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم، حتّى قالوا: لا ينبغي للحمس أن يأتقطوا الأقط، ويسلؤوا السّمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلّوا إن

---

(١) هشام جعيط: **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي**، ص ١٣٩.

(٢) الرّازي: **التفسير الكبير**، ج ٢٨، ص ٢٥٥.

استظلّوا إلاّ في بيوت الأدم، ما كانوا حرماً، ثم رفعوا في ذلك، فقالوا: لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحلّ إلى الحرم إذا جاؤوا حجّاجاً أو عمّاراً، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أوّل طوافهم إلاّ في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة»[1]. وكان من ضمن عادات الحمس إتيان البيوت من ظهورها زمن الحج. جاء في النص القرآني: «... وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (البقرة ١٨٩/٢). عمل أسياد مكّة على تطوير عقائد أهلها لتتناسب مع مكانتهم الخطيرة بين النّاس، وعملوا على توحيد الوثنيّة العربيّة حول تعظيم الكعبة، وأفشلوا كلّ محاولة لبناء حرم يمكن أن يكون منافساً لها.

تثبت شواهد عديدة أنّ أهل مكّة كانوا في آخر الجاهليّة ينتظرون ظهور "مصلحين" ويتمنّون أن يكون لهم كتابهم على غرار بقيّة الطوائف: «أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى...» (الأنعام ١٥٦/٦ ـ ١٥٧). وكانوا يتمنّون أن يكون لهم رسولهم على غرار اليهود والنّصارى: «وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (القصص ٢٨/ ٤٧). وتدلّ شواهد عديدة على أنّ أسياد مكّة كانوا مطّلعين على كتب اليهود المقدّسة: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيرًا وَ عُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» (الأنعام: ٩١/٦). ورغم تنامي مكانة الكعبة بين سكّان جزيرة العرب لم تظهر في مكّة طبقة قويّة من رجال الدّين، ولم تكن الوثنيّة العربيّة تتمتع بتماسك داخلي بين عناصرها، ولم يكن لها حضور بارز في توجيه حياة النّاس، ولم تكن لها قدرة كبيرة على تعبئة معتنقيها، ولهذا فارقها عدد من أهل مكّة، ودخلوا في دين محمّد، ولم يجتمع الذين بقوا على دين الآباء على عداوة محمّد الذي سفّه معتقداتهم.

من النّاحية الاقتصاديّة اعتمد أهل مكّة على التّجارة بصفة أساسيّة لتحصيل معاشهم، وتمتاز التّجارة بالرّبح الوفير وبارتباطها بالجانب الدّيني لمكّة. فبفضل التّجارة تكوّنت في مكّة طبقة من الأثرياء تزعّم أفرادها الحركة المعاديّة لمحمّد، وبسبب حرمانهم من المشاركة في أنشطة مكّة التّجاريّة تراجعت ثروة أتباع محمّد، وكان

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨.

لحصار بني هاشم وبني المطّلب تأثير شديد فيهم. ولأنّ تجارة مكّة كانت مرتبطة بمكانة مكّة الدّينيّة بين النّاس خاف أسياد مكّة من أن يؤدّي انتشار دين محمّد إلى ضياع تجارتهم بتوقّف النّاس عن القدوم لتعظيم الكعبة وكفّ الأعراب عن خفارة قوافل مكّة التّجاريّة.

كانت عداوة أسياد مكّة لمحمّد محكومة بخصائص مكّة الدّاخليّة وبطبيعة علاقتها بما حولها من تجمّعات بشريّة. كان لأهل مكّة أعداء يتربّصون بهم ولهذا حرص أسيادها على صيانة وحدة القبيلة درءاً للخطر الخارجي، فأعرضوا عن كلّ نشاط يمكن أن يؤدّي إلى نشوب قتال بين عشائر قريش. يتمثّل أعداء أهل مكّة في عدد من القبائل البدويّة مثل عجز هوازن وعشائر من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة وبني مالك من ثقيف، ففي السّنوات الأولى لإعلان محمّد نبوّته عدا بنو جذيمة على الفاكه بن المغيرة وعوف بن عبد عوف، وقتلوهما[(١)]. وكان بنو بكر بن عبد مناة يعدّون لقتل رجلين من قريش ثأرا لأحد أسيادهم المقتول على يدي بعض رجال قريش[(٢)] وكان بنو مالك من ثقيف يتحيّنون الفرصة للاستحواذ على أموال قريش بأكناف الطّائف ولتوسيع نصيبهم من الرّحلات التّجاريّة الكبرى، وكانت قبائل عديدة تتربّص بقريش الدّوائر للسيطرة على الحرم المكّي.

خاتمة

لم يأبه سادة مكّة بدعوة محمّد في بدايتها، وأعجبهم أن فتى من قريش تخاطبه السّماء، وبدؤوا في القيام بأنشطة معادية له بعد تعرّضه لآلهتهم، واستطاعوا أن يقفوا بأغلب أبناء مكّة عن دينه، فلم يتابعه إلا جمع صغير، وكان معظم أتباعه من الشباب والحلفاء والعبيد، ووصلت حركته إلى أفق يكاد يكون مسدوداً، فهاجر معظم أتباعه إلى الحبشة فراراً بدينهم واتقاء للفتنة. وعرض محمّد نفسه على أهل البوادي وأهل الطائف، ودعاهم إلى إجارته، فلم يقبلوا دعوته، وقبلها أسياد الأوس والخزرج، فهاجر إلى يثرب مع أغلب أتباعه.

تزعّم الحركة المعادية لمحمّد عندما كان في مكّة عددٌ من أسيادها، وكانوا من الأشراف ذوي الأسنان والتجّار أصحاب الأموال، وكانوا في معظمهم ينحدرون من عشائر قويّة تجمع بين وفرة العدد والمشاركة الواسعة في الأنشطة الاقتصاديّة وتتوزّع على مجموعتي الأحلاف والمطيّبين، وكانت لأغلب أعداء محمّد من أهل مكّة قرابة

---

(١) نفسه، ج ٤، ص ٤٦.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٩.

دمويّة قويّة بعدد من أتباعه الأوائل، وكان أبو لهب أشدّهم قرابة به. لم تكن أنشطة أسياد مكّة في أغلبها عنيفة، وتمثّلت في السّخرية من محمّد وتكذيبه والاستهزاء من مبادئه الدّينيّة وتعذيب عدد من أتباعه من المستضعفين وقطع الرزق عن أتباعه من أبناء قريش ومحاصرة عشيرته اقتصادياً واجتماعيّاً، والدعوة إلى تطليق بناته، وتولّى معظم أبناء هاشم والمطّلب وعدد من أشراف مكّة حمايته، فلم يلحقه أذى كبير.

رفض سادة مكّة قول محمّد بإله واحد وبالبعث والحساب، وعادوه دفاعاً عن معتقداتهم الدّينيّة ومكانتهم الاجتماعيّة ومصالحهم الاقتصاديّة، وكانت حركتهم محكومة بعدّة معطيات تشمل خصائص مكّة الدّاخليّة وخصائص علاقتها بما حولها من تجمّعات بشريّة مثل افتقارها إلى مؤسّسات قويّة وتراجع أهميّة العشيرة وضعف الوازع الدّيني وضعف مكانة رجال الدّين وهشاشة النّشاط التجاري وحاجته الملحّة إلى السّلم والأمان وإلى طريق آمنة تمتدّ على مسافة طويلة وارتباطه بالشّعائر الدّينيّة من حج وعمرة.

الفصل الثاني

أعداء محمّد من أهل مكّة في الفترة المدنيّة

مقدّمة

نجح أسياد مكّة في صدّ أغلب أهلها عن دين محمّد، وضيّقوا الخناق على أتباعه، فعذّبوا المستضعفين منهم، وقطعوا الرّزق عن أبناء قريش، فهاجر أغلبهم إلى الحبشة ثم إلى يثرب التي تكفّل عدد غير قليل من أبنائها بحمايتهم، والتحق محمّد بأتباعه في يثرب لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام المبكّر.

بعد أن أقام محمّد في يثرب التي دخل قسم لا يُستهان به من أبنائها في دينه بدأت صفحة جديدة في صراعه ضد أعدائه من أهل مكّة. تراجعت الأنشطة القوليّة، وبدأت المواجهات الحربيّة، كانت في البداية مناوشات صغيرة، ثم تحوّلت إلى مواجهات كبرى. قاتل محمّد قومه في ثلاث وقائع كبرى (بدر، أُحد، الخندق) ثم عقد معهم صلحاً سيُعرف في المصادر بـ"صلح الحديبيّة"، وبعد ثماني سنوات من خروج محمّد من مكّة هارباً عاد إليها في جيش كبير، وسيطر عليها.

تبدو أحداث صراع محمّد مع أهل مكّة في الفترة المدنيّة واضحة مقارنة بأحداث صراعه معهم في الفترة المكيّة لأسباب عديدة منها تزايد مكانة محمّد وشهرته بين النّاس، وارتفاع عدد أتباعه وتبلور هويّة واضحة لهم، وحديث النّص القرآني عن العديد من أحداث الفترة المدنيّة، وسهولة احتفاظ الذّاكرة الجماعيّة بأخبار الوقائع الحربيّة. ولا تخلو أخبار صراع محمّد مع أعدائه من أهل مكّة في الفترة المدنيّة من توظيف للعجيب بدافع الاعتقاد الدّيني ومن تحوير لدواع سياسيّة تهمّ مرحلة تدوين السّيرة النّبويّة.

١ ـ أسياد مكّة يحاولون حماية تجارتهم

هاجر محمّد مع أغلب أتباعه إلى يثرب، وفضّل عدد من أبناء قريش ممّن سبق

لهم الدّخول في دين محمّد البقاء في مكّة مثل الحارث بن زمعة بن الأسود (أسد بن عبد العزّى)، وأبي قيس بن الوليد بن المغيرة (مخزوم)، وعلي بن أميّة بن خلف (جمح) والعاص بن منبّه بن الحجّاج (سهم)[1]. كان دين محمّد أثناء الفترة المكّية مقتصراً على الجانب العقائدي تقريباً، ومثّلت الهجرة إلى يثرب بروزاً للجانب السّياسي، فهي في أحد معانيها تحالف لمحمّد وأتباعه مع الأوس والخزرج ضد قريش، وهذا ما لم يقبل به عدد من شباب مكّة واختاروا البقاء مع أهلهم، ومن المرجّح أنّهم قد عادوا إلى دين الآباء.

ترك أغلب المهاجرين إلى يثرب أبناءهم وأقساماً من أسرهم بمكّة، ولم يسع أسياد قريش إلى إيذاء أبناء المهاجرين وأقاربهم. وبعد مدّة قصيرة من هجرة محمّد لحقت به بنتاه أم كلثوم وفاطمة، ولم يحاول أسياد مكّة منعهما من ذلك، وما فعله ضدّهما الحويرث بن نقيذ كان حركة فرديّة تمّت عن غير رضى معظم أهلها. قال ابن هشام: «وكان العبّاس بن عبد المطّلب حمل فاطمة وأمّ كلثوم ابنتي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من مكّة يريد بهما المدينة، فنخس بهما الحويرث بن نقيذ، فرمى بهما الأرض»[2]. ينتمي المعتدي على بنتي محمّد إلى عشيرة عبد بن قصي، وهي عشيرة ضعيفة ليست لها مساهمة في صنع الأحداث زمن النّبوّة، وقد أساء إليهما بشكل لا يتلاءم مع قيم المجتمع المكّي، ولم يقابل فعله بردّ فعل قويّ من بني هاشم الذين لم يهاجر معظمهم إلى يثرب.

لحقت بمحمّد ابنتاه، ولحقت به زوجته سودة بنت زمعة، وكان حزن أسياد مكّة لرؤية بيوت عدد من المهاجرين خالية من أهلها كبيراً: «... فغلّقت دار بني جحش هجرة، فمرّ بها عتبة بن ربيعة والعبّاس بن عبد المطّلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة (...) وهم مصعدون إلى أعلى مكّة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن، فلمّا رآها كذلك تنفّس الصّعداء (...) ثمّ قال: هذا عمل ابن أخي هذا، فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وقطع بيننا»[3]. ولم يتعرّض أسياد مكّة لأتباع محمّد من أهل يثرب الذين قدموا إلى مكّة معظّمين لبيت اللّه الحرام، وذلك بسبب خوفهم على تجارتهم مع الشام، إذ كانت قوافلهم تمرّ غير بعيد عن يثرب، «وقالوا: وخرج سعد بن معاذ معتمراً قبل بدر فنزل على أميّة بن خلف، فأتاه أبو جهل فقال: أتنزل هذا وقد آوى محمّداً وآذنا بالحرب ؟ فقال سعد بن معاذ: قل ما شئت، أما إنّ طريق عيركم

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٣٣.
(٢) نفسه، ج ٤، ص ٢٤.
(٣) نفسه، ج ٢، ص ٦٩.

علينا...»[1]. قبل أسياد مكّة بما آلت إليه الأمور، ولم يحاولوا القيام بأيّ نشاط معاد ضد أتباع محمّد، وربما رغب بعضهم في إقامة علاقات جيّدة مع محمّد الذي ما فتئ شأنه يتعاظم بيثرب، وهذا أمر كان يثير إعجاب أسياد مكّة وخوفهم، فطريق قوافلهم التجاريّة نحو الشام غير بعيدة عن يثرب.

بعد رحيل محمّد عن مكّة بشهور قليلة توفّي سيّد بني مخزوم الوليد بن المغيرة بعد أن أوصى أبناءه بثلاث، «... فقال لهم: أي بنيّ، أوصيكم بثلاث فلا تضيعوا فيهنّ، دمي في خزاعة فلا تطلّنه (...) ورباي في ثقيف فلا تدعوه حتّى تأخذوه، وعُقري عند أبي أزيهر الدّوسي فلا يفوتنّكم به...»[2]. وأدّت مطالبة بني مخزوم بديّة سيّدهم إلى تصاعد التّوتّر بينهم وبين خزاعة «وغلظ بينهم الأمر»[3].

كان أهل مكّة منشغلين بنزاعاتهم مع عدّة أطراف من أهل البوادي ومن أهل الطّائف، واهتمّ محمّد في بداية وجوده في يثرب بعقد علاقات جيّدة مع عدد من التّجمّعات البدويّة، وعمل على إيجاد أسس تعايش بين أتباعه من المهاجرين وعشائر الأوس والخزرج التي تضمّ عناصر على دينه وعناصر على الوثنيّة وعناصر على اليهوديّة، ودعا إلى تأسيس كيان سياسيّ يجمع بين المهاجرين وعشائر الأوس والخزرج لحماية يثرب، ومن أبرز بنود صحيفة تأسيس هذا الكيان عدم تقديم المساعدة لقريش: «... وإنّه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن...»[4]. تخلّى أبناء الأوس عن صداقتهم لقريش، وورث محمّد علاقات أهل يثرب الجيّدة مع بعض القبائل البدويّة التي تقع ديارها على طريق قوافل مكّة نحو الشّام مثل مزينة وقسم من جهينة.

لم ينتظر محمّد كثيراً بعد وصوله إلى يثرب، وبدأ يتعرض لقوافل قريش التّجاريّة، وتمكّن من موادعة عدّة تجمّعات بدويّة تنزل بين مكّة ويثرب وتنتمي إلى كنانة وخزاعة وجهينة، وكانت هذه التّجمّعات البدويّة تنهض بمهمّة خفارة قوافل مكّة المتّجهة إلى الشام. وبذلك بدأت قبيلة قريش منذ مرحلة مبكّرة تخسر حلفاءها التّقليديين الذين كانوا يشكّلون معها جبهة واحدة في الصّراع ضد التّجمّعات القبليّة الأخرى، واضطرّ أسياد مكّة إلى تكليف عدد كبير من المقاتلين بمرافقة القوافل التجاريّة. ومع أوّل مناوشة بين عدد من أتباع محمّد وعدد من رجال مكّة الذين كانوا يرافقون إحدى القوافل التّجاريّة، اختار عتبة بن غزوان حليف بني نوفل والمقداد بن

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٥.
(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٢.
(٣) نفسه، ج ٢، ص ٢٢.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ١٠٣.

عمرو حليف بني زهرة بن كلاب أن يتركا حلفاءهما، والتحقا بمعسكر أتباع محمّد[١].

لم يُشكّل أهل مكّة وهم يواجهون محمّداً جبهة متماسكة، وفقدت قبيلة قريش تدريجياً أبناءها وحلفاءها لصالحه، وبدأت تجارة مكّة مع تتالي تعرّض أتباع محمّد لها تفقد ما كانت تتمتّع به من حرمة عند العرب: «وكان كلّ تاجر يخرج من اليمن والحجاز يتخفّر بقريش ماداموا في بلاد مضر لأنّ مضر لم تكن تعرض لتجّار مضر ولا يهيجهم حليف لمضري (...) وكانت مضر تقول: قضت عنّا قريش مذمّة ما أورثنا إسماعيل من الدّين»[٢]. بدأ أهل مكّة يخسرون بتوالي تعرّض أتباع محمّد لقوافلهم التّجاريّة أرباح " تأمين " القوافل التجارية التي تمرّ بأرض مضر وتربط بين اليمن وبلاد الشام محمّلة ببضائع متنوّعة قادمة من شرق آسيا ومن الدول الواقعة على شواطئ بحر الرّوم. ولم يقم أسياد مكّة بتحرّك كبير لحماية قوافلهم التجاريّة.

لا تقدّم المصادر سوى معلومات قليلة عن غارة كرز بن جابر الفهري على سرح يثرب[٣]، ومن الظاهر أنّها حركة معزولة غير مدعومة من أبرز رجال مكّة. ولم تغيّر هذه الغارة سياسة محمّد تجاه أهل مكّة، وواصل التّعرّض لقوافلهم التّجاريّة، واستطاع أتباعه أن يظفروا بإحدى هذه القوافل في طريق مكّة إلى الطّائف، فاستولوا على ما فيها من بضائع، وقتلوا عمرو بن الحضرمي حليف بني عبد شمس، وأسروا عثمان بن عبد اللّه أحد بني مخزوم والحكم بن كيسان أحد مواليهم، وتُعرف هذه الواقعة في المصادر بـ" واقعة نخلة ".

ما هو خطير في واقعة نخلة أنّها تمّت في الأشهر الحرم[٤] التي كانت العرب تمتنع فيها عن القتال، لقد انتهك أتباع محمّد حرمة هذه الأشهر. جاء في النّص القرآني: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللّهِ...» (البقرة ٢/ ٢١٥)، وتعتبر الأشهر الحرم (رجب، ذو القعدة، ذو الحجّة، محرّم) «من المؤسّسات العقائديّة المهمّة التي ارتبطت على هذا النحو أو ذاك بالتّجارة المكّية»[٥]. فللأشهر الحرم جانب ديني وجانب اقتصادي، ففيها تقام عدّة شعائر دينيّة كبرى، وتقام أشهر الأسواق، وتكفّ أغلب قبائل جزيرة العرب عن النّهب والإغارة. وكانت الأشهر الحرم إحدى

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.
(٢) ابن حبيب: **المحبّر**، ص ٢٦٤.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٩٢.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ص ١٩٢ ـ ١٩٥.
(٥) فكتور سحاب: **ايلاف قريش**، ص ٣٠٧.

المؤسّسات التي قامت عليها تجارة مكّة، ولا شك في أنّ انتهاك حرمة هذه الأشهر مثّل تهديداً خطيراً لتجارة مكّة.

فزع أسياد مكّة فزعاً شديداً لانتهاك محمّد حرمة الأشهر الحرم، ولكنّهم لم يطالبوا بدم حليفهم، ورضوا بدفع فدية لتحرير عثمان بن عبد اللّه والحكم بن كيسان، وتذكر بعض المصادر أنّ الحكم بن كيسان اختار بعد تحريره من الأسر البقاء في يثرب والدّخول في دين محمّد. لم يثأر أسياد مكّة لقتيل يوم نخلة لأنّه لم يكن ينتمي إلى قريش بالأصل ولعدم رغبتهم في الدّخول في مواجهة حربيّة مع أتباع محمّد.

انتهك أتباع محمّد الأشهر الحرم، ونزل القرآن بتحريم الزّواج من المشركات والمشركين: «وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا المُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا...» (البقرة ٢/ ٢٢١). لا شكّ في أن محمّداً بانتهاكه الأشهر الحرم كان يسعى إلى إلحاق الضرر بتجارة مكّة ولم يكن يسعى إلى الحطّ من منزلة مكّة الدّينيّة. فبعد واقعة نخلة بمدّة زمنيّة قصيرة ستحوّل قبلة أتباع محمّد إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس، ورأى أسياد مكّة في اتخاذ محمّد الكعبة قبلة له شاهداً على صحّة معتقداتهم، وقالوا: «... تحيّر على محمّد دينه، فتوجّه بقبلته إليكم، وعلم أنّكم كنتم أهدى منه، ويوشك أن يدخل في دينكم...»[1].

لم يحدث ما توقّعه أسياد مكّة، فلم يعد محمّد إلى دين الآباء، وازداد إصراراً على قطع تجارة أهل مكّة. وبعد تحويل القبلة إلى الكعبة بمدّة زمنيّة قصيرة تناءى إلى أهل مكّة أنّ محمّداً وأتباعه في طريقهم إلى الاستيلاء على إحدى القوافل المهمّة التي كانت قادمة من الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب. كان أهل مكّة منهمكين في مشاغلهم اليوميّة، وإذا بضمضم بن عمرو الغفاري «... يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدع بعيره وحوّل رحله وشقّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللّطيمة، اللّطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّد في أصحابه، لا أدري أن تدركوها، الغوث، الغوث»[2]. واستطاع عدد من رجال قريش المعروفين بشدّة عدائهم لمحمّد أن يدفعوا أغلب أسياد مكّة إلى الخروج لنجدة القافلة، «قالوا: وكرهت قريش، أهل الرأي منهم، المسير، ومشى بعضهم إلى بعض (...) حتّى بكّتهم أبو جهل بالجبن، وأعانه عقبة بن أبي معيط والنّضر بن الحارث بن كلدة، في الخروج فقالوا: هذا فعل النّساء. فأجمعوا المسير...»[3]، واشترى عدد من أسياد مكّة السّلاح[4].

---

(١) الطّبري: **جامع البيان...**، م٢، ج٢، ص ١٧.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٧.

(٤) نفسه، ج ١، ص ٣٢.

تجمع الرّوايات على أنّ أهل مكّة لم يخرجوا لنجدة أموالهم إلا بعد أن ضمن لهم بعض أشراف كنانة أن لا تأتيهم كنانة من خلفهم بشيء يكرهونه، فلبني بكر بن عبد مناة بن كنانة دم يطلبونه في قريش، وكان أهل مكّة يخافون أن يغير أعداؤهم من الأعراب على مكّة متى غاب عنها المقاتلون. وتختلف الرّوايات في شأن عدي بن كعب، تقول رواية أولى إنّهم خرجوا مع النّاس ورجعوا إلى مكّة بعد أن سمعوا بنجاة القافلة[١]، وتقول رواية ثانية إنّ بني عدي بن كعب لم يخرجوا من مكّة لنجدة القافلة[٢].

خرجت عشائر قريش البطاح لنجدة قافلة مكّة، واختار بنو عدي بن كعب البقاء في مكّة أو العودة إليها، ويرجع ذلك إلى دخول سيّدهم نعيم النّحّام بن عبد اللّه بن أسيّد المبكّر في دين محمّد وإقامته في مكّة عندما هاجر أغلب أتباع محمّد إلى يثرب[٣]، وإلى سوء علاقتهم ببني عبد شمس[٤] الذين سبق لهم أن حاولوا إخراجهم من مكّة، ولم يتحمّس بنو عدي بن كعب للخروج مع سائر أهل مكّة لنجدة القافلة لأنّ رئاستها كانت لأبي سفيان بن حرب وكان أكثر ما فيها من مال يعود إلى بني عبد شمس.

يبدو أنّ ما تذكره المصادر من أنّ معظم بني هاشم الذين خرجوا إلى واقعة بدر خرجوا مكرهين هو من زيادات أصحاب السّير تقرّباً لرجال بني العبّاس. فالعبّاس بن عبد المطّلب عم محمّد وأحد أسياد بني هاشم تولّى الإنفاق على جيش مكّة، وشاركه في ذلك عتبة بن ربيعة (عبد شمس) والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي (نوفل) وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام (أسد بن عبد العزّى) والنّضر بن الحارث (عبد الدّار) وأبو جهل بن هشام (مخزوم) وأميّة بن خلف (جمح) ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج (سهم) وسهيل بن عمرو (عامر بن لؤي)[٥]. تقاسم المطيّبون والأحلاف إطعام مقاتلي جيش مكّة، وشاركهم في ذلك سيّد عامر بن لؤي سهيل بن عمرو، وخرج لنجدة القافلة معظم أسياد قريش البطاح وعدد من أسياد قريش الظّواهر وعدد من أبناء القبائل البدويّة النّازلين في مكّة أو بالقرب منها. ولم يكن أبو لهب سيّد بني هاشم بعد وفاة أبي طالب مع الخارجين، وقد يعود ذلك إلى تدهور حالته الصّحيّة لأنه توفّي بعد واقعة بدر بمدّة زمنيّة قصيرة، وتذكر مصادر عديدة أنّه أرسل من ينوبه مقابل مبلغ من المال.

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٤٥.
(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٠٩.
(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ١٣٨.
(٤) الأزرقي: **أخبار مكة**، ج ٢، ص ٢١٠.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٥٧.

بعد أن قطع جيش مكّة مسافة أرسل إليهم أبو سفيان يعلمهم بنجاة القافلة ويطلب منهم العودة إلى مكّة، فانقسم أسيادهم إلى فريقين: فريق أوّل نادى بالاستجابة لطلب أبي سفيان والرّجوع إلى مكّة، وفريق ثان تزعّمه أبو جهل أصرّ على ضرورة مواصلة الطّريق نحو بدر. وكان من نتيجة هذا الانقسام أن رجعت عشيرة زهرة بن كلاب، فلم يشهد منها بدراً أحد، ورجع طالب بن أبي طالب أحد بني هاشم[1].

كانت عشيرة زهرة بن كلاب إحدى عشائر حلف الفضول، وامتازت هذه العشيرة بوفرة حلفائها، وكان الحلفاء يحتلّون مكانة متميّزة فيها، فسيادة هذه العشيرة كانت للأخنس بن شريق الثقفي، وتذكر بعض المصادر أنّه «قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فزعم أنّه يريد الإسلام، وحلف أنّه ما قدم إلاّ لذلك، ثم خرج، فأفسد أموالاً من أموال المسلمين»[2]. من الممكن أنّ سيّد عشيرة زهرة بن كلاب أراد من خلال قدومه إلى يثرب أن يجد نوعاً من الصّلح مع محمّد لضمان سلامة القوافل التجاريّة.

كان الأخنس بن شريق حريصاً على الحيلولة دون قيام مواجهة حربيّة بين أتباع محمّد وأهل مكّة، ولهذا السّبب رجع ببني زهرة بن كلاب بعد سماعه بنجاة القافلة، ويختلف الرّواة في عدد أفراد هذه العشيرة الذين عادوا إلى مكّة، تذكر رواية أولى أنّهم ثلاثمائة، وتذكر رواية ثانية أنّهم «مائة أو أقل من المائة، وهو أثبت»[3]. وتقدّر المصادر عدد عناصر جيش قريش بين التّسعمائة والألف، ولا ندري إن كان هذا عدد المقاتلين الذين خرجوا من مكّة أو عددهم بعد أن انخذل بنو زهرة بن كلاب عنهم، وكانت إبل أهل مكّة سبعمائة بعير، وكان أهل الخيل منهم مائة، وكان لبني مخزوم نصيب مهمّ من جيش مكّة، إذ يبلغ عددهم مائة وثمانين، وكان أهل الخيل منهم ثلاثين[4].

لم يستجب لطلب أبي سفيان بن حرب سوى بني زهرة بن كلاب وطالب بن أبي طالب، أمّا بقيّة مقاتلي جيش مكّة فواصلوا الطريق نحو بدر التي كانت سوقاً من أسواق العرب وقد عقدوا العزم على أن يقيموا عليها ثلاثاً، فيسمع بهم النّاس، فلا يزالون يهابونهم أبداً، واعتقدوا أنّ أتباع محمّد لن يجرؤوا على مواجهتهم. وأراد أسياد

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٢٠٩.
(٢) الطّبري: **جامع البيان...**، م ٢، ج ٢، ص ٣٨٥.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٤٥.
(٤) نفسه، ج ١، ص ٤٢.

مكّة من سيرهم إلى بدر أن يرجعوا بأبنائهم الذين غرّر بهم محمّد. يقول أحدهم: «... لا نرجع اليوم حتّى نقرن محمّداً وأصحابه في الحبال. فلا ألفين أحداً منكم قتل منهم أحداً، ولكن خذوهم أخذاً نعرّفهم بالذي صنعوا لمفارقتهم دينكم ورغبتهم عمّا كان يعبد آباؤهم»(١). وما يظل غير مفهوم ذكر بعض المصادر أنّ أهل مكّة الذين خرجوا إلى بدر كانوا يحملون أدماً كثيراً للتّجارة(٢).

كان أسياد مكّة معتدّين بقوّتهم واثقين من قدرتهم على إنزال هزيمة فادحة بأتباع محمّد إن تجرّؤوا على مواجهتهم، وظنّ أسياد مكّة أنّهم لن يُغلبوا عن قلّة، فرفضوا عرض بعض بني غفار أن يمدّهم بالسّلاح والرّجال «وقد كان خفاف بن أيماء بن رخصة الغفاري، أو أبوه أيماء بن رخصة الغفاري بعث إلى قريش، حين مرّوا به ابناً له بجزائر(*) أهداها لهم وقال: إن أحببتم أن نمدّكم بسلاح ورجال فعلنا، قال: فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم، قد قضيت الذي عليك، فلعمري لئن كنّا إنّما نقاتل النّاس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنّا نقاتل اللّه، كما يزعم محمّد، فما لأحد باللّه من طاقة»(٣).

بثّ محمّد عيونه، ورصد تحرّكات جيش مكّة، واختار موقعاً يمكّنه من حيازة ما في ذلك المكان من مصادر مياه، ومكّن أتباعه من أخذ قدر كاف من الرّاحة، وأمطرت السّماء ليلة واقعة بدر، جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن هذه الواقعة: «إِذْ يُغَشِّيكُم النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ» (الأنفال ٨/ ١١). وتذكر بعض المصادر أنّ محمّداً أرسل عمر بن الخطاب إلى أهل مكّة يخبرهم أنّه لا يحبّ قتالهم ويطلب منهم أن يرجعوا(٤). ومن الممكن أنّه كان لطلبه دور في انقسام أسياد مكّة إلى فريقين: فريق أوّل نادى بالعودة إلى مكّة وتجنّب المواجهة الحربيّة، وكان عتبة بن ربيعة أكثر المتحمّسين لهذا الرأي، وفريق ثان بزعامة أبي جهل نادى بقتال أتباع محمّد.

عُرف عتبة بن ربيعة بحسن علاقته بحلف الفضول الذي خرج منه بنو عبد شمس، «وكان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يقول: لو أنّ رجلاً وحده خرج من قومه

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٧١.
(٢) نفسه، ج ١، ص ١٠٢.
(*) الجزائر: الذّبائح.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢١١ ـ ٢١٢.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٦١.

لخرجت من عبد شمس حتّى أدخل في حلف الفضول»[1]. لم يكن عتبة بن ربيعة من أصحاب الأموال، ولم يكن راضياً عن تعاظم نفوذ الأثرياء في مكّة وتراجع قيم التّضامن القبلي، وكان من المعارضين لحرب أهل مكّة ضد محمّد: «ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً، فقال: يا معشر قريش، إنّكم واللّه ما تصنعون بأن تلقوا محمّداً وأصحابه شيئاً، واللّه لئن أصبتموه، لا يزال الرّجل ينظر في وجه رجل يكره النّظر إليه قتل ابن عمّه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمّد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون»[2]. وأعلن تكفّله بفدية حليفه عمرو بن الحضرمي المقتول يوم نخلة، وكره أبو جهل أن يأخذ النّاس برأي عتبة بن ربيعة فتتعاظم مكانته في مكّة، يقول سيّد بني مخزوم: «أن يرجع النّاس عن خطبة عتبة يكن سيّد الجماعة»[3]. انتهى الخلاف بين الفريقين بغلبة رأي أبي جهل لوفرة عناصر بني مخزوم في جيش مكّة ولمناصرة عقبة بن أبي معيط أحد أسياد عبد شمس له. كان بنو مخزوم متوحّدين حول رأي أبي جهل، ولم يجتمع بنو عبد شمس على رأي واحد، ويرجع ذلك إلى وفاة سيّدهم سعيد بن العاص قبل واقعة بدر بزمن قصير وعدم إجماعهم على خليفة له.

انتهى الخلاف بين عتبة بن ربيعة وأبي جهل إلى تبادل الشّتائم الفاحشة، وتذكر بعض المصادر أنّ عتبة بن ربيعة ضرب بالسّيف عرقوبي فرس أبي جهل «فاكتسعت الفرس»[4]. تختلف المصادر في ظروف بداية معركة بدر، تقول رواية أولى إنّ أبا جهل خاف أن يُؤثّر عتبة بن ربيعة في النّاس، فأوعز لعامر بن الحضرمي أخي عمرو المقتول يوم نخلة بشنّ الحرب، فهجم عامر على جيش أتباع محمّد، فتبعه النّاس، وكانت الحرب. وتقول رواية ثانية إنّ واقعة بدر بدأت بمبارزة فرديّة دعا إليها عتبة بن ربيعة، وخرج لها مع أخيه شيبة وابنه الوليد، وكان في الصّف المقابل حمزة بن عبد المطّلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث، وانتهت هذه المبارزة بقتل عتبة بن ربيعة وأخيه وابنه. تذكر مصادر عديدة أنّ رجال قريش رفضوا مبارزة بعض أهل يثرب وأصرّوا أن يكون خصومهم من أبناء عمومتهم، فحمزة بن عبد المطّلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث ينتمون إلى بني هاشم الذين يشتركون مع بني عبد شمس في الانتماء إلى بني عبد مناف. كان القتل من طرف الأقارب أشرف في نظر أبناء قريش .

---

(١) الأصفهاني: **الأغاني**، ج ١٧، ص ٢٩١.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢١٣.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(٤) نفسه، ج ١، ص ٦٦.

بدأت واقعة بدر في الصّباح الباكر بعد ليلة ممطرة، وأبرز ما يلاحظ في تفاصيل هذه الواقعة حسن تنظيم أتباع محمّد وتمتّعهم بروح قتاليّة عالية وإصرار المهاجرين منهم على قتل أسياد مكّة الذين تزعّموا حركة معاداة محمّد. ورغم تفوّق أهل مكّة العددي انتهت واقعة بدر بهزيمتهم هزيمة فادحة، قُتل منهم فريق، وأسر فريق آخر، ولاذ البقيّة بالفرار، وتختلف الرّوايات في عدد الأسرى من جيش مكّة: «... عن محمّد بن يحيى بن حبّان قال: كان الأسرى الذين يُحصون تسعة وأربعين (...) عن ابن المسيب قال: كان الأسرى سبعين (....) عن الزّهري قال: كان الأسرى زيادة على سبعين (...) عن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن أبي صعصعة قال: أُسر يوم بدر أربعة وسبعون»[1]. اختلف الرّواة في عدد الأسرى يوم بدر، واختلفوا في عدد القتلى من جيش أهل مكّة في هذا اليوم، «قال ابن إسحاق: فجميع من أحصي لنا من قتلى قريش يوم بدر خمسون رجلاً، قال ابن هشام: حدّثني أبو عبيدة عن أبي عمرو أنّ قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين رجلاً...»[2].

اختار بعض الرّواة عدد سبعين ليكون عدد قتلى أهل مكّة يوم بدر موافقاً لعدد قتلى أتباع محمّد يوم أُحد احتكاماً إلى فهم معيّن للنّص القرآني: «أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (آل عمران ٣/ ١٦٥). تختلف الرّوايات حول عدد الأسرى والقتلى من أهل مكّة يوم بدر، وما هو ثابت أنّ أهل مكّة انهزموا يوم بدر هزيمة نكراء، فعدد القتلى والأسرى مرتفع مقارنة بما كانت تسفر عنه الوقائع الحربيّة التي كانت تجري في جزيرة العرب زمن النّبوّة، وتحدّد المصادر قتلى عناصر جيش مكّة بشكل لا يمكن قبوله أو التّعويل عليه.

إذا اعتمدنا قائمة أسماء القتلى والأسرى من مقاتلي جيش مكّة التي يقدّمها ابن هشام نجد أنّ معظمهم ينتمون إلى عشيرة مخزوم، فالعناصر التي تنتمي إلى هذه العشيرة بالأصل أو بالحلف تمثل أكثر من ربع القتلى والأسرى، وينتمي بقيّتهم إلى عشائر عبد شمس وجمح وسهم وأسد بن عبد العزّى وعامر بن لؤي وتيم بن مرّة وعبد الدّار ونوفل، أمّا عشائر هاشم والمطّلب والحرث بن فهر فأُسر عدد من أبنائها ولم يكن بينها قتلى، ومن المستبعد أن يكون محمّد نهى عن قتل رجال بني هاشم كما تذكر عدّة مصادر.

تذكر أكثر الرّوايات انتشاراً أنّ محمّداً قتل أسيرين، وهما النّضر بن الحارث أحد

---

(١) نفسه، ج ١، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٩٦.

بني عبد الدّار بن قصيّ وعقبة بن أبي معيط أحد بني عبد شمس، وهما من أشدّ النّاس عداءً له ولأصحابه. وقُتل في واقعة بدر عدد كبير من أسياد مكّة مثل أبي جهل والأسود بن عبد الأسد بن هلال (مخزوم) والعاص بن سعيد بن العاص وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة (عبد شمس) ومنبّه ونبيه ابني الحجّاج والحارث بن قيس (سهم) وأميّة وأبي ابني خلف (جمح) وطعيمة بن عدي والحارث بن عامر (نوفل) وأبي البختري العاص بن هشام (أسد بن عبد العزّى).

مُني أبناء مكّة يوم بدر بهزيمة فادحة، وسقط عدد كبير منهم بين قتلى وأسرى، وما يثير الانتباه أنّ ثلث القتلى والأسرى كانوا من الحلفاء والموالي، ولا ندري إلى أيّ مدى تعكس هذه النّسبة طبيعة تركيبة جيش قريش يوم بدر. الاحتمال الأرجح أنّ أكثر من ثلث جيش مكّة كان من الحلفاء والموالي، ولهذا كان معظم القتلى الذين ينتمون إلى قريش بالأصل من الأسياد والأشراف، ومن المستبعد أن يكون رجال قريش استأجروا الحلفاء والموالي للقتال نيابة عنهم، فأبرز أسياد قريش المؤهلين أكثر من غيرهم لاستئجار مقاتلين كانوا حاضرين في واقعة بدر. ومن المستبعد أيضاً أن يشكّل الحلفاء والموالي ثلث سكّان مكّة، ولا يمكن أن تكون هجرة أتباع محمّد إلى يثرب قد غيّرت تركيبة مكّة السكّانيّة بشكل كبير لترتفع نسبة الحلفاء والموالي من مجموع السكّان. تعود كثرة الحلفاء والموالي في جيش مكّة في أحد أسبابها إلى أنّ أقوى العشائر القرشيّة هي التي خرجت بوفرة لواقعة بدر، وهذه العشائر القويّة هي الأكثر استقطاباً للعناصر الوافدة على مكّة.

لا يمكن أن يكون حضور الحلفاء بوفرة في جيش مكّة سبباً رئيسيّاً في هزيمته يوم بدر. تعود الهزيمة إلى عوامل عديدة أهمّها ثقة أهل مكّة المفرطة في أنفسهم وعدم استعدادهم لهذه الواقعة واستهانتهم بأتباع محمّد وافتقارهم إلى قيادة موحّدة تحظى بالقبول عند الجميع، كما تعود إلى تهرّم أسياد قريش الذين شكّلوا نخبة هذا الجيش: «... فقال لهم سلمة بن سلامة (. . .) ما الذي تهنّئوننا به ؟ فواللّه، إن لقينا إلاّ عجائز صلعاً كالبدن المعقّلة فنحرناها، فتبسّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، ثم قال: أي، ابن أخي، أولئك الملأ»[1]. كان أسياد قريش الذين تولّوا قيادة جيش مكّة من الطّاعنين في السّن، ولم تكن لهم تقاليد حربيّة تُذكر، ولم يكونوا أصحاب إغارة، وكانت معظم اهتماماتهم منصرفة إلى التّجارة، ولا شكّ في أنّ ارتفاع معنويات أصحاب محمّد واستعدادهم الكبير للشّهادة وانضباطهم وطاعتهم له عوامل ساهمت في نصرهم يوم بدر.

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٢٣٦.

أرجع أهل مكّة هزيمتهم يوم بدر إلى تدخّل " قوى غيبيّة " سيسمّيها القرآن بعد ذلك "ملائكة"، يقول أحدهم: «واللّه، ما هو إلاّ أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيم اللّه، مع ذلك ما لمت النّاس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السّماء والأرض، واللّه، ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء»[(١)]. أرجع أهل مكّة هزيمتهم يوم بدر إلى تدخّل قوى غيبيّة، ولم يقبلوا أنّ أتباع محمّد لوحدهم استطاعوا أن يهزموهم بتلك الطريقة، فهزيمة أهل مكّة يوم بدر كانت هزيمة قاسية حيث قُتل أبرز أسياد قريش «وأصبح هذا الوادي مقشعرا لفقدهم»[(٢)]. واتقاء لشماتة محمّد وأصحابه كان رأي أهل مكّة أن يظهروا التّجلد والعزاء وأن لا يبكوا قتلاهم.

دام امتناع أهل مكّة عن البكاء وإقامة مظاهر الحداد مدّة زمنيّة قصيرة، ثم «ناحت قريش على قتلاها شهراً، ولم تبق دار بمكّة إلاّ فيها نوح، وجزّ النّساء شعر الرّؤوس، وكان يؤتى براحلة الرّجل منهم أو بفرسه، فتوقف بين أظهرهم فينوحون حولها...»[(٣)]. لم يستمر أهل مكّة كثيراً في إخفاء أحزانهم، واتّفقوا على عدم التعجيل في فداء الأسرى حتّى لا يطلب محمّد ثمناً باهظاً، ولم يلتزم بعض قريش بما وقع الاتفاق عليه، وسارع بالذّهاب إلى يثرب لفداء من يريد فداءه من الأسرى: «فلمّا قالت قريش: لا تعجلوا في فداء أسرائكم لا يتأرّب عليكم محمّد وأصحابه. قال المطّلب بن أبي وداعة (...) صدقتم، لا تعجلوا بفداء أسرائكم. ثمّ انسلّ من اللّيل، فقدم المدينة، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم»[(٤)].

لم يلتزم بعض قريش بما وقع الاتفاق عليه في شأن فداء الأسرى، ولم يلتزم أهل مكّة بتحرير كل الأسرى بصورة جماعيّة، ولم يجد عدد من أبناء قريش من يتكفّل بتحريرهم من الأسر لفقرهم وحاجتهم، فمنّ عليهم محمّد وأطلق سراحهم بدون فداء، ووعده بعضهم أن لا يعين عليه جمعاً أبداً. «قال ابن إسحاق: فكان ممن سمّي لنا من الأساري ممن منّ عليه بغير فداء (...) من بني مخزوم بن يقظة: المطّلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم وكان لبعض بني الحارث بن الخزرج، فتُرك في أيديهم حتّى خلّوا سبيله فلحق بقومه (...) وصيفي بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم تُرك في أيدي أصحابه، فلمّا لم يأت أحد في فدائه أخذوا عليه

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٢٥.

(٣) نفسه، ج ١، ص ١٢٢.

(٤) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٢، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

ليبعثنّ إليهم بفدائه، فخلوا سبيله، فلم يف لهم بشيء (...) قال ابن إسحاق: وأبو عزّة عمرو بن عبد اللّه بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح، وكان محتاجاً ذا بنات، فكلّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال: يا رسول اللّه، لقد عرفت ما لي من مال، وإنّي لذو حاجة وذو عيال، فامنن عليّ. فمنّ عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً»[1].

ينتمي الأسرى الذين منّ عليهم محمّد وأطلق سراحهم بدون فداء إلى قريش بالأصل، أمّا الحلفاء فوجدوا من يتكفل بتحريرهم من الأسر، قد يكون أتباع محمّد طلبوا ثمناً قليلاً لإطلاق سراح الحلفاء وثمناً مرتفعاً لفداء أبناء قريش بالأصل. ينتمي الأسرى الذين منّ عليهم محمّد إلى عشيرتين قويّتين: مخزوم وجمح، أمّا أبو العاص بن الرّبيع فأُطلق سراحه بدون فداء لكونه زوج زينب بنت محمّد، وكانت أرسلت بفدائه، وأرسلت مع النّقود قلادة لها كانت أمّها خديجة قد أهدتها لها يوم زواجها «... فلمّا رآها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رقّ لها رقّة شديدة»[2]. وتذكر بعض المصادر أنّ أبا العاص بن الرّبيع تعهّد لمحمّد أن يخلّي سبيل زينب إليه مقابل إطلاق سراحه[3]، وتمّ فداء جلّ الأسرى بعد واقعة بدر بمدة زمنيّة قصيرة[4]، واغتنم أبو سفيان بن حرب فرصة قدوم أحد سكّان يثرب إلى مكّة معتمراً، وعدا عليه، وحبسه، وقايض به ابنه عمر الذي كان أسيراً لدى محمّد[5].

لم يعذّب محمّد الأسرى كما أشار عليه بعض أتباعه، وأحسن معاملتهم: «دخل خالد بن هشام بن المغيرة وأميّة بن أبي حذيفة بن المغيرة في منزل أمّ سلمة، وأمّ سلمة في مناحة آل عفراء، فقيل لها: أتي بالأسرى. فخرجت فدخلت عليهم، فلم تكلّمهم حتّى رجعت، فتجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في بيت عائشة، فقالت: يا رسول اللّه، إنّ بني عمّي طلبوا أن يُدخل بهم عليّ، فأُضيفهم، وأدهن رؤوسهم، وألمّ من شعثهم، ولم أحبّ أن أفعل ذلك حتّى أستأمرك. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: لست أكره شيئاً من ذلك ! فافعلي من ذلك ما بدا لك»[6]. كان الأسرى موزّعين بين عدد من أتباع محمّد، وكان معظمهم عند الأنصار.

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) نفسه، ج ٢، ص ٢٤٦.
(٣) الذّهبي: **سيرة أعلام النبلاء**، ج ٢، ص ١٧٥.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٥) نفسه، ج ٢، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٦) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١١٨ ـ ١١٩.

٢ ـ أهل مكّة يثأرون لقتلاهم

ما قام به أبو سفيان بن حرب من حبس من جاء إلى مكّة معظّماً لبيت اللّه الحرام شاهد على التّحوّل الكبير في الصّراع بين محمّد وأهل مكّة الذين كانوا قبل واقعة بدر «لا يعرضون لأحد حاجّاً أو معتمراً إلاّ بخير...»[١]. أصبح الصّراع بعد هذه الواقعة مواجهة مفتوحة بين معظم أهل مكّة وأتباع محمّد النّازلين بيثرب، وانخرط معظم أسياد مكّة في هذا الصّراع، وتوحّدت كلمتهم أكثر من أيّ وقت مضى، وأصبح هدفهم الثّأر لقتلاهم يوم بدر ومحو العار الذي لحق بهم، ورصدوا مكافأة لمن يمكّنهم من الثأر من محمّد أو أحد أتباعه. أمّا رجال بني هاشم فتعزّزت آمالهم في محمّد بعد واقعة بدر، وأصبحوا أكثر ثقة في أنّ له شأناً كبيراً، «... وقال عقيل بن أبي طالب للنبّي صلّى اللّه عليه وسلّم: من قتلت من أشرافهم ؟ قال: قُتل أبو جهل. قال: الآن صفا لك الوادي...»[٢]. وسيضطلع العبّاس بن عبد المطّلب سيّد بني هاشم بعد وفاة أبي لهب بدور مهمّ في نصرة محمّد عبر مدّه بأخبار قريش.

سعى محمّد بعد واقعة بدر إلى الفصل بين تعظيم العرب للكعبة وتعظيمهم لقريش ولاة البيت، فقبّح البدع التي أحدثوها عند الحجّ، وأعلن عدم أهليتهم بأن يكونوا ولاة البيت. جاء في النّص القرآني: «وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ المُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً...» (الأنفال ٨/ ٣٤ ـ ٣٥). وتولّت عناصر جديدة إدارة صراع أهل مكّة ضد محمّد لأنّ أبرز أسيادها قُتلوا يوم بدر، ويرتبط الأسياد الجّدد في أغلبهم بعلاقات قرابة دمويّة قويّة بالأسياد المقتولين يوم بدر، ومكّنت هذه الواقعة عدداً ممن لم يكونوا من ذوي الأسنان من المشاركة في تدبير شؤون مكّة، وأشهر أسياد مكّة الجدد عكرمة بن أبي جهل (مخزوم) وعمرو بن العاص (سهم) وسهيل بن عمرو (عامر بن لؤي) وصفوان بن أميّة (جمح) «وكانت له الأيسار، وهي الأزلام، فكان لا يُسبق بأمر عام حتّى يكون هو الذي تسييره على يديه»[٣].

أدّى يوم بدر إلى تعزيز التّضامن بين أغلب عشائر قريش، ورغم ذلك وقعت بعد هذا اليوم بمدّة زمنيّة قصيرة حادثة كادت تفضي إلى قتال بين الأحلاف والمطيّبين، فقد عدا بعض بني مخزوم على أبي أزيهر الدّوسي حليف بني عبد شمس، وقتله تنفيذاً

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٤٤.
(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٤٣.
(٣) ابن عبد ربّه: **العقد الفريد**، ج٣، ص ٣٠٩.

لوصيّة الوليد بن المغيرة، فجمع يزيد بن أبي سفيان أحد بني عبد شمس بني عبد مناف ومن تابعهم من المطيّبين، وتلبّسوا السّلاح، واستعدّوا لقتال بني مخزوم ومن معهم من الأحلاف. ولمّا كان الفريقان يتأهّبان للقتال قدم أبو سفيان بن حرب، «... فأتى ابنه وهو في الحديد في قومه من بني عبد مناف والمطيّبين، فأخذ الرّمح من يده، ثمّ ضرب به على رأسه ضربة هدّه منها، ثم قال له: قبّحك اللّه ! أتريد أن تضرب قريشاً بعضها ببعض في رجل من دوس سنؤتيهم العقل إن قبلوه. وأطفأ ذلك الأمر»[1]. استطاع أبو سفيان بن حرب أن يحول دون تقاتل قريش، وستكون حادثة قتل أبي أزيهر الدّوسي دافعاً لأهله للثأر من قريش، فأخذوا يقتلون كل قرشي يظفرون به: «... وكان سعد بن صفيح خال أبي هريرة من أشدّاء بني دوس، فكان لا يأخذ أحداً من قريش إلا قتله بأبي أزيهر الدّوسي...»[2]. أضاف مقتل حليف بني عبد شمس متاعب جديدة إلى قريش، وساهم تمكّن أبي سفيان بن حرب من الحيلولة دون تقاتل الأحلاف والمطيّبين في تعاظم مكانته في مكّة، فأصبح أكثر أسيادها نفوذاً بعد هذه الحادثة.

لم يقم أهل مكّة بأيّ نشاط ضد أتباع محمّد الموجودين بمكّة أو ضد أفراد عائلات المهاجرين من أبناء مكّة، وما تعرّضت له زينب بنت محمّد عندما كانت بصدد اللّحاق بأبيها من ترويع كانت حركة معزولة قام بها عدد محدود من أهل مكّة بقيادة هبّار بن الأسود. خرجت زينب بنت محمّد برفقة حميها كنانة بن الرّبيع تريد اللّحاق بيثرب، «... وتحدّث بذلك رجال قريش، فخرجوا في طلبها حتّى أدركوها بذي طوى. فكان أوّل من سبق إليها هبّار بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العزّى ونافع بن عبد القيس والفهري، فروّعها هبّار بالرّمح وهي في هودجها، وكانت المرأة حاملاً في ما يزعمون، فلما رجعت طرحت ذا بطنها، وبرك حموها، ونثر كنانته، ثم قال: واللّه، لا يدنو مني رجل إلاّ وضعت فيه سهماً. فتكركر النّاس عنه، وأتاه أبو سفيان في جلّة قريش، فقال: أيّها الرّجل، كفّ عنّا نبلك. فكفّ، فأقبل أبو سفيان حتّى وقف عليه، فقال: إنّك لم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الرّجال علانيّة وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمّد، فيظن النّاس إذا خرج بابنته علانيّة من بين أظهرنا أنّ ذلك عن ذلّ أصابنا عن مصيبتنا ونكبتنا التي كانت وأنّ ذلك منّا ضعف ووهن، لعمري ما لنا حاجة في حبسها عن أبيها، وما لنا في ذلك من ثُؤْرَةٍ،[*] ولكن

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢٤.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٣٢٥.

(*) الثؤرة: طلب الثأر

أرجع المرأة، فإذا هدأ الصوت وتحدّث النّاس أنّا قد رددناها فسلّها سرّاً، فألحقها بأبيها، ففعل، حتّى إذا هدأ الصوت خرج بها ليلاً...»[1]. وتناءى خبر ما فعله هبّار بن الأسود بزينب إلى أبيها، فأمر أتباعه بإحراقه متى ظفروا به.

استطاع أبو سفيان أن يمنع بنت محمّد ممّن أرادها بسوء، ولم يسمح بالاعتداء على إحدى نساء بني عبد مناف، وتجنّب إثارة حفيظة أقارب قتلى يوم بدر، ولم يسع أسياد مكّة للانتقام من أتباع محمّد الموجودين في مكّة أو من أقارب المهاجرين. وحاول عدد من أتباع محمّد بعد واقعة بدر اللّحاق بيثرب، «... فطلبهم أبو سفيان في رجال من المشركين، فردّوهم، وسجنوهم...»[2]. ورصد بعض أهل مكّة جائزة لمن يمكّنهم من الثّأر من محمّد ومن أتباعه الموجودين بيثرب، ودبّر بعض أقارب قتلى يوم بدر محاولة لاغتياله، وتكفّل بهذه المهمّة عمير بن وهب أحد أسياد جمح، وكان «شيطاناً من شياطين قريش»[3]. ولا تقدّم المصادر أشياء ذات قيمة عمّا قام به عمير بن وهب لتحقيق ما خرج إليه، ومن المرجّح أنّه عدل عند وصوله إلى يثرب لتحرير ابنه من الأسر عن فكرة اغتيال محمّد ودخل في دينه، ثم عاد إلى مكّة، وأقام فيها يدعو أهلها إلى التّصديق بنبوّة محمّد، ولم تجد دعوته استجابة بينهم. ويمثّل ما قام به عمير بن وهب حدثاً استثنائيّاً في علاقة قريش بدين محمّد في المدّة الزمنيّة التي تمتدّ من واقعة بدر إلى زمن صلح الحديبيّة، ففي تلك الفترة توقّفت تقريباً حركة دخول أبناء هذه القبيلة في دين محمّد، ومن المرجّح أن أخبار واقعة بدر قد تناءت إلى مهاجري الحبشة، لذلك قدم فريق منهم إلى يثرب.

اشتدّ حقد أبناء قريش على محمّد "قاتل الأحبّة"، وتوافد الشّعراء على مكّة يبكون قتلى يوم بدر، وانتشرت بين أهلها أغانٍ فاحشة في هجاء محمّد ردّدتها الإماء والجواري، وكان كعب بن الأشرف أحد أسياد بني النضير من أبرز الشّعراء الوافدين على مكّة بعد واقعة بدر. بكى سيّد بني النّضير قتلى أهل مكّة، ودعا قريشاً إلى الثأر لقتلاهم من أتباع محمّد، ووعدهم مساعدة اليهود، ومن الظّاهر أنّ أسياد مكّة لم يعلّقوا آمالاً كبيرة على وعوده، وقالوا له: «... إنّكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم...»[4].

---

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٢، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٧٣.

(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢،، ص ٢٥٤.

(٤) الطّبري: **جامع البيان...**، م ٤، ج ٥، ص ١٦٩.

لم يمض زمن طويل على واقعة بدر حتّى جاءت الأخبار إلى أهل مكّة بطرد محمّد لبني قينقاع من يثرب، ولهذا توقّع أسياد مكّة أن ينصرهم اليهود ضدّه. توجّه عدد من فرسان مكّة بقيادة أبي سفيان بن حرب إلى يثرب، والتقوا مع عدد من أسياد بني النّضير، وعرضوا عليهم التّحالف ضد أتباع محمّد، فرفضوا، وخلّوا بين محمّد وقومه، فقام فرسان مكّة بقتل رجل من الأنصار مع أجير له وتحريق بيوت وممتلكات[1] لإرهاب أتباع محمّد وتهدئة روع أهل مكّة. والغريب في هذه الواقعة التي تعرف في المصادر باسم "واقعة السّويق" أنّها حدثت في شهر ذي الحجّة[2]، الذي هو أحد الأشهر الحرم، ومن الممكن أنّ أبا سفيان بن حرب اختار الإغارة على يثرب في هذا الزّمان بالذّات حتّى يأتي أصحاب محمّد وهم غافلون لاعتقادهم أنّ قريشاً لا يغيرون في الأشهر الحرم. ولم يجد أهل مكّة حرجاً في ما فعل أبو سفيان بن حرب لأن محمّداً قد سبق له أن استباح حرمة هذه الأشهر في "واقعة نخلة".

قد يكون لغارة أبي سفيان بن حرب الخاطفة على يثرب أثر إيجابي في نفوس أهل مكّة، ولكنّها لم تثن محمّداً عن مواصلة التّعرّض لقوافل مكّة التجاريّة، «... فقال صفوان بن أميّة: إنّ محمّداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه لا يبرحون السّاحل، وأهل السّاحل قد وادعهم، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا، ونحن في دارنا هذه ما لنا بها نفاق، إنّما نزلناها على التّجارة...»[3].

تحالف محمّد مع عدد من أسياد العشائر البدويّة، وكلّفهم بمهاجمة قوافل قريش[4] وبثّ عيوناً يتسقّطون أخبارها، فعمد أهل مكّة إلى تغيير طريق قوافلهم نحو الشّام، فنكّبوا عن السّاحل، وأخذوا طريق العراق، ولم ينفعهم ذلك في شيء، إذ كان أتباع محمّد لهم بالمرصاد، اعترضوا قافلتهم، وأسروا رجلاً أو رجلين، وقدموا بالعير على محمّد، وكان أكثر ما في هذه القافلة من مال لصفوان بن أميّة سيّد جمح[5].

أظهر محمّد إصراراً كبيراً على قطع تجارة مكّة، وساعده في ذلك عدد من الخلعاء والصّعاليك والشّذّاذ[6]. ولا شكّ في أنّ استحواذه على ممتلكات بني قينقاع

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٣٠.

(٢) Jones (J M B): «The Chronology of the Maghazi», *B. S. O. A. S.* (University of London) vol 19, 1975, p. 247.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٩٧.

(٤) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٩٦.

(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٦) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٢٢٢.

بعد طردهم من يثرب أغرى عدداً من أهل البادية بالانضمام إليه، فتعاظمت قوّته، ولهذا حرص أسياد مكّة على الاستعداد جيّداً لقتاله. «... مشى عبد اللّه بن أبي ربيعة وصفوان بن أميّة في رجال من قريش ممن أُصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إنّ محمّداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلّنا نُدرك منه ثأرنا بمن أصاب منّا، ففعلوا»[(١)]. سخّر أسياد مكّة أموالهم لحرب محمّد، وبعثوا رسلهم يستنفرون النّاس، وفي شهر شوّال من السّنة الثّالثة للهجرة حسب أكثر الرّوايات تداولاً[(٢)]، خرج من مكّة جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ينحدرون من مكّة ومن البوادي القريبة منها خاصة، ويضمّ هذا الجيش عشائر قريش البطاح وعشائر قريش الظّواهر والأحابيش وهم تجمّع لعشائر بدويّة صغيرة هي في أشهر الرّوايات عضل وديش والقارة (الهون بن خزيمة) والحيا والمصطلق (خزاعة) والحارث بن عبد مناة (كنانة)[(٣)]. وكان سيّد الأحابيش يومئذ الحليس بن زبّان أحد بني الحارث بن عبد مناة، وضمّ جيش مكّة عناصر من ثقيف قدّرتها بعض الرّوايات بمائة رجل[(٤)] وعناصر من قبيلة سليم بقيادة أبي الأعور سفيان بن عبد شمس[(٥)] وعناصر كثيرة من عشائر كنانة بقيادة سفيان بن عوف[(٦)]. وانضمّ إلى جيش مكّة أبو عامر المنبوز بالفاسق أحد أسياد الأوس، خالف قومه، ولم يرض بولائهم لمحمّد، وغادر يثرب قبل واقعة بدر، وكان معه خمسون غلاماً من الأوس حسب رواية أولى وخمسة عشر غلاماً من الأوس حسب رواية ثانية[(٧)].

كان جيش مكّة وافر العدد يضمّ عناصر تربطها بقريش صلات قرابة دمويّة أو حلف أو مصلحة مشتركة عناصر حضرت متطوّعة راغبة في نصرة قريش وعناصر أخرى استأجرها أسياد مكّة[(٨)]. وخرج قادة الجيش بالظعن «التماس الحفيظة وألاّ يفرّوا»[(٩)]، فخرجت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب وأمّ حكيم بنت الحرث

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٥٥.

(٢) Jones (J M B): «The Chronology of the Maghazi», *op. cit.*, p. 248.

(٣) الزبيري: **نسب قريش**، ص ٩.

(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢٠٣.

(٥) نفسه، ج ١، ص ٢٦٦.

(٦) نفسه، ج ١، ص ٢٠٣.

(٧) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٢، ص ٣٧٥.

(٨) الطّبري: **جامع البيان...**، م ٦، ج ٩، ص ٢٩٠.

(٩) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٧.

بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة زوجة الحرث بن هشام وبرزة بنت مسعود زوجة صفوان بن أميّة وريطة بنت منبّه بن الحجّاج زوجة عمرو بن العاص وسلافة بنت سعد زوجة طلحة بن أبي طلحة وخناس بنت مالك[١] . . . خرج أسياد مكّة بنسائهم من الحرائر لقتال محمّد رغم ما في ذلك من مجازفة، ومن المرجّح أنّهم فعلوا ذلك لاعتقادهم أنّ الملائكة التي قاتلت مع محمّد يوم بدر تغيب عند حضور المرأة سافرة[٢].

كان جيش مكّة وافر العدد، ويضمّ عناصر من القرى والبوادي، وكان عناج أمر هذا الجيش لأبي سفيان بن حرب. وتذكر بعض المصادر أنّه لـمّا كان النّاس في طريقهم إلى يثرب مرّوا بقبر أمّ محمّد آمنة بنت وهب، فنادى بعضهم بنبشه وأخذ رمّتها، فسفّه أسياد قريش هذا الرأي، ونهوا عنه، وخافوا إن هم نبشوا قبرها تنبش الأعراب قبور موتاهم.

كان محمّد على علم بخروج جيش مكّة نحو يثرب، أعلمه بذلك عمّه العبّاس وبعض الأعراب[٣]. وتذكر عدّة روايات أنّ جيش مكّة وصل قريباً من يثرب قبل يومين من واقعة أحد، واستبعد قادة هذا الجيش خيار اقتحام يثرب لإدراكهم أنّ ذلك سيكلّفهم كثيراً، ولإخراج أتباع محمّد من حصونهم خلّوا الإبل والخيل ترعى في زرع يثرب، وكان الزرع قصيلاً، ونادى بعض النّاس بقطع النّخيل، ولم يتأخر أتباع محمّد كثيراً في الخروج من قريتهم، واختاروا النّزول بجانب جبل أحد.

استعدّ أهل مكّة لواقعة أحد استعداداً جيّداً، وكان جيشهم على درجة كبيرة من التّنظيم: «وأقبل المشركون قد صفّوا صفوفهم، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ولهم مجنّبتان مائتا فرس، وجعلوا على الخيل صفوان بن أميّة ويُقال عمرو بن العاص وعلى الرّماة عبد اللّه بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رام»[٤]. تولّى أبناء قريش قيادة جيش مكّة، وكان هؤلاء القادة من غير ذوي الأسنان، إذ كان عمرو بن العاص دون الخامسة والأربعين[٥]، وكان خالد بن الوليد في سنّ الثانية والأربعين[٦].

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ٧.

(٢) نفسه، ج ١، ص ٢٨٠.

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٣١٠.

(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢٢٠.

(٥) البلاذري: **جُمل من أنساب الأشراف**، ج ١٠، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٦) الذّهبي: **سيرة أعلام النبلاء**، ج ١، ص ٢٦٥.

بدأ القتال في ساعة مبكّرة من النّهار، وما تذكره المصادر عمّا أصاب حملة اللّواء يؤكد أنّ قريشاً قاتلوا ببسالة: «... ثمّ حمل لواءهم بعد طلحة عثمان بن أبي طلحة أبو شيبة (...) فتقدّم باللّواء والنّساء يحرضن ويضربن بالدّفوف، وحمل عليه حمزة بن عبد المطّلب رضي اللّه عنه، فضربه بالسّيف على كاهله، فقطع يده وكتفه حتّى انتهى إلى مؤتزره حتى بدا سحره (...) ثم حمله أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص، فأصاب حنجرته وكان دارعاً وعليه مغفر لا رفرف له، فكانت حنجرته بادية، فأدلع لسانه إدلاع الكلب (...) ثم حمله مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح (...) فقتله (...) ثم حمله كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله الزّبير بن عوّام، ثم حمله الجلاّس بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله طلحة بن عبيد اللّه، ثم حمله أرطاة بن شرحبيل، فقتله عليّ عليه السّلام، ثم حمله شريح بن قارظ، فلسنا ندري من قتله، ثم حمله صؤاب غلامهم، فاختلف في قتله (...) وكان أثبتهم عندنا قزمان. قال: انتهى إليه قزمان، فحمل عليه، فقطع يده اليمنى، فاحتمل اللّواء باليسرى، ثم قطع اليسرى، فاحتضن اللّواء بذراعيه وعضديه، ثم حنى عليه ظهره، وقال: يا بني عبد الدار هل أعذرت»[1]. من المستبعد أن يكون هذا الخبر مطابقاً للواقع بكلّ تفاصيله، ولكنّه يعكس الرّوح العالية التي قاتل بها أهل مكّة يوم أحد، ويجمع الرّواة على أنّ الانتصار في أوّل الواقعة كان لأتباع محمّد، حيث انكفأ جيش مكّة، وولّى النّاس هاربين، وانشغل أتباع محمّد بالسّلب. قد يكون ما اعتبره الرّواة انكفاء وهروباً حيلة دبّرها قادة جيش مكّة لجعل أتباع محمّد يتركون أماكنهم.

أغرى انكفاء جيش مكّة معظم الذين كلّفهم محمّد بحماية ظهر أتباعه بترك أماكنهم ومشاركة بقيّة أتباعه في السّلب وتحصيل الغنائم، فلم يشعروا بخيل مكّة وهي تأتيهم من الخلف لتبدأ جولة جديدة من واقعة أُحد جولة كانت الغلبة فيها لأهل مكّة. تقوّضت صفوف أتباع محمّد، وشاع بينهم أنّه قُتل، فترك بعضهم القتال، وهرب فريق منهم. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن واقعة أُحد: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ...» (آل عمران ٣/ ١٥٣). فرّ فريق من أتباع محمّد، وضرب بعضهم بعضاً، وكاد محمّد يقتل: «فدثّ بالحجارة حتّى وقع لشقّه، فأصيبت رباعيته، وشجّ في وجهه، وكلمت شفته...»[2]. وحاول بعض أهل

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٣٠.

مكّة أسره، وحاول البعض الآخر قتله، واستمات في ذلك، ونجا محمّد بفضل ثبات عدد من أصحابه معه ولاحتمائه بجبل أُحد.

احتمى محمّد وأصحابه بجبل أُحد، واتخذوا أماكن جيّدة للدّفاع، وكلّفت محاولة اللّحاق بهم جيش مكّة خسارة عدد من المقاتلين، فكفّ أسياد مكّة عن مطاردة فلول أتباع محمّد، ورضوا بما حقّقوه من مكاسب. انهزم أتباع محمّد يوم أُحد، وسقط منهم سبعون قتيلاً ينتمي معظمهم إلى أهل يثرب، أمّا المهاجرون فلم يُقتل منهم سوى أربعة أنفار. لا يمكن أن نرجع قلّة قتلى المهاجرين إلى قلّتهم، فنسبة قتلى المهاجرين من مجموع قتلى أتباع محمّد أقلّ بكثير من نسبة المهاجرين من مجموع أتباع محمّد الحاضرين في واقعة أحد. تجنّب عدد كبير من أهل مكّة قتل المهاجرين لما تربطهم بهم من قرابة دمويّة، وأمعنوا القتل في الأنصار، وما فعله ضرار بن الخطّاب الفهري مع عمر بن الخطّاب شاهد على ذلك: «وكان ضرار لحق عمر بن الخطاب يوم أُحد، فجعل يضربه بعرض الرّمح ويقول: انج، يا ابن الخطّاب، لا أقتلك»[1]. يقول ضرار بن الخطّاب: «إنّي قد كنت حلفت لا تمكّنني يداي من رجل من قريش أبداً»[2]. ويقول خالد بن الوليد: «لقد رأيتني ورأيت عمر بن الخطاب رحمه اللّه حين جالوا وانهزموا يوم أُحد وما معه أحد وإنّي لفي كتيبة خشناء، فما عرفه منهم أحد غيري، فنكبت عنه، وخشيت إن أغريت به من معي أن يصمدوا له، فنظرت إليه موجّها إلى الشّعب»[3].

تجنّب بعض رجال قريش قتل أتباع محمّد من المهاجرين، ولم يستغلّوا تفوّقهم العسكري استغلالاً كاملاً، «كأنّهم كانوا يريدون أن يتركوا لهذا النّبي المنحدر من قريش فرصة لتنفيذ مشروعه»[4]. سؤال أبي سفيان بن حرب عمر بن الخطّاب عن حقيقة ما شاع عن خبر موت محمّد يكشف عن رغبة دفينة في أن لا يكون محمّد قد قُتل: «... فقال له أبو سفيان: أنشدك اللّه، يا عمر، أقتلنا محمّداً ؟ قال عمر: اللّهم لا، وإنّه ليسمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرّ. لقول ابن قمئة لهم: إنّي قد قتلت محمّداً»[5]. تجنّب رجال قريش قتل أقاربهم، وعمدت بعض نساء مكّة إلى التّمثيل بجثث القتلى من أتباع محمّد، فأخذن «يجدعن الآذان والأنف»[6]، ولم يكن فعلهنّ محلّ رضى كل أسياد جيش مكّة، واستقبح بعضهم هذا "التّعدّي" على جثث القتلى.

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٢٥.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٧١.
(٣) نفسه، ج ١، ص ٢٣٧.
(٤) هشام جعيط: **الفتنة...**، ص ٢٩.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٥٠.
(٦) نفسه، ج ٣، ص ٤٧.

هرب قسم من أتباع محمّد، واحتمى البقيّة بأعالي جبل أُحد، فصعُب على مقاتلي جيش مكّة اللّحاق بهم، فتعالت بعض الأصوات مطالبة بالتّوجّه نحو يثرب لتحصيل الغنائم والسّبايا، «... يقولون: لا محمّداً أصبتم، ولا الكواعب أردفتم»[1]. ولم يتحمّس معظم أسياد مكّة لهذا الرّأي، وآثروا العودة إلى مكّة خوفاً من أن يؤدّي ذهابهم إلى يثرب إلى ضياع انتصارهم الذي حقّقوه في أُحد. يقول عمرو بن العاص: «... لمّا كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم، وتفرّقوا في كلّ وجه، وفاءت لهم فئة بعد، فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغلبة فلو انصرفنا، فإنّه بلغنا أنّ ابن أبيّ انصرف بثلث النّاس، وقد تخلّف ناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكرّوا علينا وفينا جراح وخيلنا عامّتها قد عُقرت من النّبل. فمضوا...»[2].

لم يكن انتصار أهل مكّة يوم أُحد سهلاً، لقد كلّفهم الكثير من الأنفس والأموال، إذ سقط منهم واحد وعشرون قتيلاً ينتمي معظمهم إلى قريش بالأصل[3] رغم أنّ أبناء قريش لم يكونوا الأكثريّة في جيش مكّة، واللاّفت للنّظر أنّ معظم قتلى قريش ينتمون إلى عشيرة عبد الدّار بن قصي أصحاب اللّواء[4]. نجح أبو سفيان بن حرب في إثارة حماس بني عبد الدّار للدّفاع عن لوائهم، «قال ابن إسحاق: وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللّواء من بني عبد الدّار يحرّضهم بذلك على القتال: يا بني عبد الدّار، إنّكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنّما يؤتى النّاس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإمّا أن تكفونا لواءنا، وإمّا أن تُخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهمّوا به، وتوعّدوه، وقالوا: نحن نسلّم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟ وذلك أراد أبو سفيان...»[5]. في اليوم التالي لأُحد خرج محمّد وأتباعه إلى حمراء الأسد، «وهي من المدينة على ثمانية أميال»[6]. وهناك ظفروا برجلين من قريش وهما معاوية بن المغيرة بن أبي العاص أحد بني عبد شمس وأبو عزّة الجمحي، ولا توضّح المصادر سبب تخلّفهما عن جيش مكّة. قتل محمّد أبا عزّة الجمحي، وتختلف الرّوايات حول مصير رفيقه، وظفر أهل مكّة في طريق عودتهم من أُحد برجلين بعثهما محمّد طليعة في آثارهم، فقاموا بقتلهما[7].

لم يأسر مقاتلو مكّة يوم أُحد أحداً، ولا ندري إن كان ذلك عن اختيار أو عن عجز لفرار أتباع محمّد واحتمائهم بجبل أُحد وتفضيلهم الموت على الأسر، ولم يسبِ

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٣٨.
(٢) نفسه، ج ١، ص ٢٩٩.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٤) نفسه، ج ٣، ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٥) نفسه، ج ٣، ص ١٦.
(٦) نفسه، ج ٣، ص ٦٣.
(٧) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٣٧.

مقاتلو مكّة النّساء، وتقدّر المصادر عدد النّساء اللّواتي خرجن مع جيش محمّد بأربع عشرة امرأة إحداهنّ ابنته فاطمة. اكتفى أسياد مكّة بما حقّقوه يوم أُحد، وعادوا إلى قريتهم معتقدين أنّ محمّداً بات عاجزاً بعد هزيمته عن التّعرّض لقوافلهم التّجاريّة.

استطاع أهل مكّة أن يثأروا لقتلاهم يوم بدر، وشفوا أنفسهم، واستعادوا ثقتهم في آلهتهم، وعرفوا أنّها نصرتهم على محمّد ولم تخذلهم: «ثمّ أنّ أبا سفيان بن حرب حين أراد الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته فقال: أنعمت فعال. إنّ الحرب سجال، يوم بيوم بدر. أعل هبل»[1]. وعندما وصل الجيش إلى مكّة عائداً من واقعة أُحد ذهب سيّد قريش إلى هبل، وحلق رأسه عنده، وحمده على نصرته لأتباعه. يقول أبو سفيان مخاطباً هبل: «قد أنعمت، ونصرتني، وشفيت نفسي من محمّد وأصحابه»[2].

استطاع أهل مكّة أن يثأروا لقتلاهم من أتباع محمّد في واقعة أُحد، وتجنّبوا قتل أقاربهم، وأمعنوا القتل في الأنصار، وأدّى ذلك إلى توتّر علاقة الأنصار بالمهاجرين، ووقعت عدّة مناوشات بينهم، وارتفعت أصوات عدد من الأنصار منادية بطرد المهاجرين من يثرب، وقال حسان بن ثابت شعراً يتشوّه فيه على أتباع محمّد من مضر، وعدا عبد اللّه بن خطل أخو بني تيم بن غالب (قريش الظواهر) على أحد الأنصار، فقتله «ثمّ ارتدّ مشركاً، وكانت له قينتان فرتنى وصاحبتها، وكانتا تغنّيان بهجاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بقتلهما معه»[3]. أمّا مقيس بن صبابة اللّيثي فقدم على محمّد «مسلماً فيما يظهر»[4]، وأخذ ديّة أخيه الذي قتله أحد الأنصار خطأً، ثم عدا على قاتل أخيه، وقتله، وهرب إلى مكّة، وهرب إليها عبد اللّه بن أبي سرح أحد بني عامر بن لؤي، «وكان يكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الوحي، وكان صلّى اللّه عليه وسلّم إذا أملى عليه سميعاً بصيراً كتب عليماً حكيماً، وإذا أملى عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً، وكان يفعل مثل هذه الخيانات حتّى صدر عنه أنّه قال: إنّ محمّداً لا يعلم ما يقول. فلمّا ظهرت خيانته لم يستطع أن يقيم بالمدينة، فارتدّ، وهرب إلى مكّة، وقيل إنّه لمّا كتب "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" إلى قوله "ثمّ أنشأناه خلقاً آخر"، تعجّب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله "فتبارك اللّه أحسن الخالقين" قبل إملائه، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: اكتب ذلك، هكذا أُنزلت، فقال عبد اللّه: إن كان محمّد نبيّاً

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٥٠.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢٩٩.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٢٤.
(٤) نفسه، ج ٣، ص ٢٤٨.

يوحى إليه فأنا نبيّ يوحى إليّ، فارتدّ، ولحق بمكّة...»[1]. كان عبد اللّه بن أبي سرح من المقرّبين من محمّد، وكان مكلّفاً بكتابة الوحي، وتذكر بعض المصادر أنّه من أهل بدر[2] ومثّل ارتداده طعناً في الجانب "العقائدي" من نبوّة محمّد، إذ أعلن بارتداده زيف أهمّ مبدأ قامت عليه النّبوّة وهو تلقّي محمّد الوحي من السّماء، وشكّل ارتداده نصراً مهمّاً لأهل مكّة.

استطاع أهل مكّة أن يحقّقوا يوم أُحد نصراً عسكريّاً، فثأروا لقتلاهم ولآلهتهم، وبعد مدّة قصيرة كانوا على موعد مع انتصار آخر على محمّد، إذ استطاعت بعض العشائر البدويّة من سليم وعامر بن صعصعة أن تقتل عدداً من أتباعه في واقعة بئر معونة، وترتبط تلك العشائر بعلاقات جيّدة مع قريش، واستطاعت عناصر من قبيلة هذيل أن تظفر بنفر من أتباع محمّد قدموا، حسب إحدى الرّوايات، يتسقّطون أخبار قريش، قتل الأعراب معظمهم، وأسروا اثنين هما خبيب بن عدي وزيد بن الدّثنة، وكلاهما من الأنصار، وقدموا بهما إلى مكّة، فاشترى بنو نوفل خبيب بن عدي، واشترى صفوان بن أميّة سيّد جمح زيد بن الدّثنة. تذكر رواية أولى أنّ قريشاً انتظروا انقضاء الأشهر الحرم، ثم قتلوا صاحبي محمّد[3]. وتذكر رواية ثانية أنّهم أخّروا قتلهما إلى ما بعد واقعة الخندق[4]. من المرجّح أنّ أسياد مكّة قتلوا الأسيرين بعد أن رفض محمّد أن يستجيب لما عرضوه عليه عندما قدموا عليه في يثرب: «... قدموا المدينة بعد قتال أُحد (...) فقالوا للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وعنده عمر بن الخطّاب: ارفض ذكر آلهتنا اللاّت والعزّى ومنات، وقل إنّ لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها، وندعك وربّك (...) فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يخرجهم من المدينة»[5]. ضمّ وفد قريش أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السّلمي.

أراد أسياد مكّة أن يستثمروا انتصارهم في أُحد، ومن المستبعد أن تكون مطالبهم مطالب دينيّة كما تذكر المصادر، من المرجّح أنّهم عرضوا على محمّد أن يكفّ عن التّعرّض لقوافلهم التّجاريّة مقابل أن يكفّوا عن حربه، فلم يقبل عرضهم، وطردهم من يثرب، ومن المرجّح أنّه بعد الرّجوع إلى مكّة قام أسياد قريش بقتل صاحبي محمّد بعد أن أخذوهما خارج الحرم، واشترك عدد كبير من النّاس في قتلهما.

---

(١) علي الحلبي: **السّيرة الحلبيّة**، م ٣، ص ١٣٠.
(٢) ابن عبد ربّه: **العقد الفريد**، ج ٣، ص ٣١٣.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٢٧.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٣٧.
(٥) الواحدي: **أسباب النزول**، ص ٢٤٩.

جاء في مصادر عديدة أنّ أهل مكّة أحسنوا معاملة صاحبي محمّد: «وكان زيد بن الدّثنة عند آل صفوان بن أميّة محبوساً في حديد، وكان يتهجّد باللّيل ويصوم بالنّهار ولا يأكل شيئاً ممّا أتي به من الذّبائح، فشقّ ذلك على صفوان، وكانوا قد أحسنوا إساره...»[١]. وتذكر بعض الرّوايات أنّ أربعين غلاماً من أبناء قتلى يوم بدر اشتركوا في قتل خبيب بن عدي[٢]. وما يلفت الانتباه في خبر قتله هو خوف أهل مكّة من دعائه، «فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب. وكانوا يقولون: إنّ الرجل إن دُعي عليه فاضطجع لجنبه زلّت عنه»[٣].

كان أهل مكّة يعتقدون في قدرة الكلمة على الفعل والتأثير المباشر، لذلك خافوا من دعاء خبيب، وكانت للأشعار التي تسبق المعارك وتلحقها أهمّية خاصة عندهم، وحرص "شعراء" مكّة على إجابة شعراء يثرب، وبرز في هذا الأمر عبد اللّه بن الزّبعرى، وينسب الرّواة مقطوعات شعريّة عديدة إلى نفر من أسياد مكّة الذين لم يُعرف عنهم قول الشعر. تغنّى أسياد مكّة بانتصارهم يوم أُحد، ذلك الانتصار الذي أفرحهم وشفى أنفسهم ولكنّه لم يمنع محمّداً من مواصلة حربه ضدهم، فكلّف عمرو بن أميّة الضّمري وسلمة بن أسلم بن حريش الأنصاري بقتل أبي سفيان بن حرب، فقدما إلى مكّة، ولم يوفّقا في ما خرجا إليه، ولا تقدّم المصادر معلومات كافية عن هذه الحادثة[٤].

واصل محمّد بعد واقعة أُحد التّعرض لقوافل مكّة التّجاريّة، وعمل على حرمان أهل مكّة من حضور بعض مواسم العرب وأسواقهم، هذا ما حصل في الواقعة التي تسمّى بدر الموعد، «وكان بدر الصفراء مجمعاً يجتمع فيه العرب وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان خلون منه»[٥]. كلّف أسياد مكّة نعيم بن مسعود الأشجعي بتخذيل أتباع محمّد عن الخروج إلى بدر[٦]، فذهب إلى يثرب، وقام بما كلّفه به أسياد مكّة، ولم يوفّق، وخرج محمّد في جمع كبير من أصحابه إلى بدر، وحملوا معهم بضائع ونفقات، وأمّا أهل مكّة فلم يبتعدوا كثيراً عن مكّة، وقفلوا راجعين إليها. تذكر عدّة مصادر أنّ أبا سفيان بن حرب نادى بالرّجوع إلى مكّة لأنّ العام كان مجدباً. قد يكون جدب العام أحد الأسباب التي دفعت أهل مكّة إلى عدم الخروج إلى بدر، وما هو

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٦١.
(٢) نفسه، ج ١، ص ٣٦١.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٢٧.
(٤) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٢٤٩.
(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٨٤.
(٦) نفسه، ج ١، ص ٣٨٦.

مؤكد أنّ خروج محمّد في جيش وافر العدد كان سبباً قويّاً في تراجع أسياد مكّة عن الذّهاب إلى بدر. لم تكن لأسياد مكّة رغبة في معاودة قتال أتباع محمّد، فواقعة أُحد كلّفتهم خسارة كبيرة في الرجال والأموال، ولم يجنوا من انتصارهم أشياء مهمّة، فتجارتهم لم تصبح آمنة، وقوّة محمّد ما فتئت تتعاظم، ولا شكّ في أنّ خبر طرده لبني النضير من يثرب وأخذه أموالهم قد تناءى إلى أهل مكّة، وكان له تأثير فيهم.

لم يستطع أسياد مكّة حماية تجارتهم، ولم يحموا حلفاءهم الذين أخذ محمّد يعاقبهم، حصل هذا في ما يُعرف بواقعة المريسيع حيث أغار محمّد مع جمع غير قليل من أتباعه على عشيرة المصطلق إحدى عشائر تحالف الأحابيش، وكانت تنزل غير بعيد عن مكّة، وانتهت هذه الواقعة بتزوّج محمّد من جويريّة بنت الحارث بن أبي ضرار سيّد هذه العشيرة ودخول أبنائها في عقد محمّد وعهده، وبهذا خسر أهل مكّة عدداً من حلفائهم لصالح محمّد، وانحسر نفوذهم على أهل البوادي.

لم ينس بنو النّضير المقيمون بخيبر طردهم من يثرب وأخذ نخيلهم، فعملوا على جمع النّاس لحرب محمّد، فاستنفروا أسياد مكّة، فاستجابوا لهم، كانت لأسياد مكّة أسباب عديدة للمشاركة في واقعة الخندق، فمحمّد ما زال يتعرّض لقوافل مكّة التّجاريّة ويحرمهم من حضور المواسم والأسواق، وكان تحصيل غنائم يثرب الكثيرة سبباً قويّاً لمشاركتهم في واقعة الخندق. تذكر عدّة مصادر أنّ أبا سفيان بن حرب أرسل إلى محمّد كتاباً يطلب منه أن يعطيه نصف ثمار نخيل يثرب مقابل أن يخلّي بينه وبين أعدائه ويخذّل عنه النّاس، وعندما قوبل طلبه بالرّفض حرّض أهل مكّة على حرب محمّد، واستنفر حلفاءهم من الأحابيش وأهل البوادي، وعبّأ أربعة آلاف مقاتل. وكان لخروج قريش إلى واقعة الخندق دور في دفع عدّة قبائل بدويّة للمشاركة في هذه الواقعة: «... ثم خرجت اليهود حتّى جاؤوا بني سليم، فوعدوهم يخرجون معهم إذا سارت قريش»[١]. وتقدّر الرّوايات جيش الأحزاب بعشرة آلاف مقاتل، وتذكر روايات عديدة أنّ عناج أمر هذا الجيش كان لأبي سفيان بن حرب.

التقى جيش مكّة ببدو غطفان وسليم وأسد بن خزيمة في الطريق إلى يثرب، وكان وصول جيش الأحزاب إلى يثرب لثمان مضت من ذي القعدة سنة خمس للهجرة، ويقابل هذا التاريخ يوم واحد وثلاثين آذار/ مارس من السّنة الشّمسيّة[٢]. فوجئ الأحزاب بأنّ محمّداً اتّخذ خندقاً يمتدّ من جبل بني عبيد إلى جبل راتج[٣].

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٢) Watt (W. M): *Mahomet à Médine*, p. 51.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٥١.

وهذا هو المكان الوحيد الذي يستطيع منه الجيش أن يمرّ بسهولة، أمّا بقيّة أطراف يثرب فتمتدّ فيها الجبال التي يصعب على المقاتلين تجاوزها وتعطي للمدافعين وضعية أفضل من وضعية المهاجمين، وبثّ محمّد أصحابه على طول الخندق وقد تسلّحوا بالحجارة والنّبال. كانت قوّة الأحزاب في وفرة الخيل، إذ قدر عددها بألف، وكانت معهم إبل كثيرة، ومنعهم الخندق من استثمار وفرة خيلهم.

أقام الأحزاب على أطراف يثرب، وكان عليهم أن يتدبّروا مراعي لإبلهم وخيلهم، فأهل يثرب حصدوا زرعهم، وأدخلوا حصادهم وأتبانهم، ومن الممكن أنّ حصادهم تمّ قبل أوان الحصاد المعتاد[1] ظهر منذ البداية أنّ حصار الأحزاب ليثرب لا يُمكن أن يطول كثيراً، فبالإضافة إلى عدم توفّر المراعي كان هذا الوقت من السّنة هو موسم هبوب الرّياح القويّة. حاول فرسان مكّة أكثر من مرّة تجاوز الخندق، وجُوبهوا بمقاومة شديدة، فكثرت فيهم الجراحات، وسقط نوفل بن عبد اللّه المخزومي في الخندق، ودُقّ عنقه[2]. واستطاعت كوكبة من خيل مكّة أن تطفر الخندق، وكانت محدودة العدد، وهذا ما جعلها غير قادرة على مواجهة أصحاب محمّد، فتراجعت سريعاً، وقُتل عمرو بن عبد ودّ أخو بني عامر بن لؤي وأحد فرسان العرب في الجاهليّة[3].

لم يكن جيش الأحزاب يستطيع بسبب الخندق أن يهجم بصورة جماعيّة، فعجز عن استثمار تفوّقه العددي، ولم يفعل بنو قريظة شيئاً كبيراً لتقويض صفوف المدافعين عن يثرب وإلهائهم عن حراسة الخندق، وكان على الأحزاب أن يقاتلوا أتباع محمّد من مسافة، فاقتصر الأمر في أغلب الأحيان على التّراضخ بالحجارة والنّبال، فأصيب من المدافعين عن يثرب سعد بن معاذ، وقتل الطّفيل بن النّعمان[4]. كان سلاح الأحزاب السّيوف والنّبال والرّماح، ولم يكونوا يملكون المنجنيق والدبّابات والضّبور، فالبدو لم يعرفوا هذه الأسلحة لتعوّدهم على الغارات الخاطفة، وأهل مكّة لم تكن لهم عناية خاصة بالجانب العسكري، فلم تتطور لديهم صناعة الأسلحة التي اشتهرت بها بعض القرى العربيّة الأخرى.

يبدو من تفاصيل واقعة الخندق التي احتفظت بها المصادر أنّ أبناء مكّة هم الذين خاضوا معظم المحاولات لاقتحامه، أما سادة غطفان الذين تعوّدوا على الغارات الخاطفة فلم يتردّدوا في قبول عرض محمّد أن يعطيهم ثلث تمر يثرب مقابل أن

---

(١) Watt (W. M): *Mahomet à Médine*, p. 54.

(٢) الواقدي، **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٧١.

(٣) ابن عبد ربّه: **العقد الفريد**، ج ١، ص ١٨٦.

(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٧٣.

يرجعوا بمن معهم[1]. ولمّا تناءى خبر قبول الأعراب عرض محمّد إلى أسياد مكّة شعروا بالخذلان والخديعة، ويبدو أنّ علم بني قريظة بما جرى بين محمّد وغطفان هو الذي جعلهم يطلبون من أهل مكّة رهناً من أشرافهم، وهو ما رفضه أسياد مكّة رفضاً تامّاً لخوفهم من أن يكون اليهود بصدد خداعهم.

لم تعد لأسياد مكّة ثقة في غطفان ولا في بني قريظة، ولأنّ الحصار طال بدون تحقيق أيّ مكسب والإبل والخيل كادت تهلك من الهزال والرّيح «تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قراراً ولا بناء»[2]، اختار أسياد مكّة العودة إلى ديارهم بعد حصار ليثرب دام خمسة عشر يوماً حسب أكثر الرّوايات انتشاراً وبعد أن خسروا ثلاثة رجال[3] أشهرهم عمرو بن عبد ود. واللاّفت للنظر في واقعة الخندق أنّ الأحزاب لم يقطعوا نخيل يثرب، ولسبب ما لم يأخذوا قطعان أهلها من الإبل والأغنام، وتذكر عدّة مصادر أنّ أبا سفيان بن حرب أرسل كتاباً إلى محمّد بعد هذه الواقعة يتوعّده فيه بيوم مثل يوم أُحد[4].

أظهرت واقعة الخندق هشاشة التّحالفات بين المكوّنات الرّئيسيّة للأحزاب، وأظهرت هذه الواقعة ضعف الرّوح القتاليّة لديهم ، فطلب الغنيمة كان هو الدّافع الأساسي وراء خروج معظمهم إلى يثرب، وأظهرت واقعة الخندق قدرة أتباع محمّد الكبيرة على الصّمود، وهذا ما صنع انتصارهم. لقد كان لتمكّنهم من الصّمود أمام الأحزاب طعم الانتصار، ومثّل انفضاض الأحزاب عن يثرب من دون قتال هزيمة لهم. ورغم أنّ هذه الواقعة لم تشهد قتالاً كبيراً فقد مثّلت نقطة تحوّل أساسيّة في علاقة أهل مكّة بمحمّد.

أدرك أسياد مكّة أنّ لا طاقة لهم على التغلّب على الكيان الإسلامي، ولا شكّ في أنّ العقاب الشديد الذي أنزله أتباع محمّد ببني قريظة تناءى خبره إلى أهل مكّة فجعلهم يخافون من أن يكون مصيرهم مثل مصير اليهود، واختارت عدّة مجموعات بدويّة بعد واقعة الخندق أن تدخل في حلف محمّد الذي تعاظمت مكانته في يثرب بعد استئصال بني قريظة ودخول عشائر أوس مناة في دينه. وبعد واقعة الخندق حسم عدد من أهل مكّة أمرهم، والتحقوا بصفوف أتباع محمّد ليشاركوا في بناء دينه في جانبه الاجتماعي والسّياسي بعد أن ظلّ إسلامهم منحصراً في الجانب العقائدي، أشهرهم نعيم النحّام بن عبد الله بن أسيّد سيّد عشيرة عدي بن كعب، وعاود فريق من أبناء

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٤٧٧.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٤٨٩.

(٣) نفسه، ج ٢، ص ٤٩٦.

(٤) نفسه، ج ٢، ص ٤٩٣.

مكّة الذين ارتدّوا إلى دين الآباء الدّخول في دين محمّد بعد واقعة الخندق، وهاجروا إلى يثرب مثل سلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة (مخزوم) وهشام بن العاص (سهم)[1]. وقام أسياد مكّة بشدّ وثاق عدد من أبنائهم لمنعهم من الهجرة واللّحاق بيثرب، وتذكر بعض المصادر أنّ أبا سفيان بن حرب كلّف أحد الأعراب بقتل محمّد، وأعطاه بعيراً ونفقة، وافتضح أمر الأعرابي بعد وصوله إلى يثرب ولم يستطع تنفيذ ما خرج إليه[2].

استعاد محمّد بعض تأثيره في أهل مكّة بعد واقعة الخندق، وواصل أتباعه بعد هذه الواقعة التّعرّض لقوافل مكّة التّجاريّة. وفي جمادى الأولى سنة ستّ للهجرة استطاعوا أن يظفروا بإحدى قوافل مكّة القادمة من الشّام عبر طريق العراق، «فأخذوها وما فيها (...) وأسروا ناسا ممّن كان في العير»[3]، وكان أبو العاص بن الرّبيع زوج زينب بنت محمّد من بين الأسرى. أطلق محمّد سراح الأسرى، وردّ إليهم بضائعهم، فرجعوا بالقافلة إلى مكّة. أظهر محمّد في هذه الحادثة تسامحاً كبيراً تجاه أسياد مكّة أصحاب القافلة ووفاء لعلاقات القرابة الدّمويّة، وأظهر تعظيماً متزايداً للكعبة، إذ ما فتئت مكانتها في دينه تتعاظم، وسيتجسّد تعظيمه لها عمليّاً في توجّهه في ذي القعدة من سنة ست للهجرة مع عدد لا يُستهان به من أتباعه إلى مكّة.

أعلن محمّد نيّته قضاء العمرة، واستنفر حلفاءه من الأعراب ليخرجوا معه، فلم يستجيبوا في معظمهم لندائه خوفاً من قريش. جاء في النّص القرآني: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا» (الفتح ٤٨/ ١١ ـ ١٢). رفض الأعراب الخروج مع محمّد إلى مكّة في مغامرة غير معروفة العواقب، فخرج مع أتباعه من أهل يثرب من المهاجرين والأنصار، واختار أن تكون معه زوجته أمّ سلمة إحدى نساء بني مخزوم.

تناءى إلى قريش خبر قدوم محمّد في جمع غفير من أتباعه إلى مكّة، فاستنفروا الأحابيش، وانضوى إليهم عدد من الأعراب الذين ينحدرون من عدّة قبائل تنزل قريباً

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٥٣.

من مكّة مثل هذيل وبعض عشائر خزاعة، وانضمّ إليهم جمع من ثقيف بقيادة عروة بن مسعود. حشد أهل مكّة قواهم للدّفاع عن حرماتهم وليمنعوا قريتهم التي يشهد العرب أنّ لا أحد دخلها عنوة. ولم يكتف أهل مكّة باستنفار المقاتلين، بل وخرجوا بالنّساء والصبيان، وتعاهدوا على الاستبسال في الدّفاع عن حرماتهم. ضربوا القباب والأبنية على أطراف مكّة، «وقدّموا الخيل عليها خالد بن الوليد مائتي فرس (...) وقد وضعوا العيون على الجبال، ووضعوا الأرصاد»[1]. وسخّر أسياد قريش جميع إمكانياتهم لمواجهة محمّد وأتباعه، «... وجمعوا الأموال يطعمون بها من ضوى إليهم من الأحابيش، فكان يُطعم في أربعة أمكنة، في دار النّدوة لجماعتهم، وكان صفوان بن أميّة يطعم في داره، وكان سهيل بن عمرو يطعم في داره، وكان عكرمة بن أبي جهل يطعم في داره، وكان حويطب بن عبد العزّى يطعم في داره»[2].

تولّى عدد من أسياد الأحلاف وعشيرة عامر بن لؤي إطعام النّاس، وكان رجال حلف المطيّبين أبرز الغائبين، ويعود ذلك إلى عدم تحمّس أسياد بني عبد مناف لمنع محمّد من دخول مكّة، ومن المرجّح أنّ سيّد كنانة يوم أُحد أبا سفيان بن حرب كان غائباً عن مكّة زمن صلح الحديبيّة مثله في ذلك مثل عمرو بن العاص، ولعلّهما تعمّدا الغياب.

رأى أسياد مكّة أنّ في أداء محمّد وأتباعه العمرة إهانة لقريش، فمنعوهم من ذلك، واستعدّوا لقتالهم، وقدّموا الخيل، وتجنّب خالد بن الوليد قائد خيل مكّة أن يهجم على أتباع محمّد. راقب فرسان مكّة أتباع محمّد وهم يؤدّون صلاتهم بكلّ نظام وخشوع وهم متوجّهون نحو الكعبة، ومن المرجّح أنّ ذلك أثّر في نفوسهم ولو بشكل خفيّ. وبينما كان أهل مكّة ينتظرون قدوم محمّد وأتباعه من الطريق المألوفة فوجئوا بهم يأخذون طريقاً وعرة تمرّ بمرتفعات، وعلى مشارف مكّة وفي مكان يُعرف باسم الحديبيّة أقاموا معسكرهم، وقدم خراش بن أميّة الخزاعي على أسياد مكّة مبعوثاً من محمّد، فعقر عكرمة بن أبي جهل جمله وأراد قتله، وحال من كان في مكّة من خزاعة دون ذلك.

من المرجّح أنّ رؤية عكرمة بن أبي جهل لجمل والده الذي غنمه أتباع محمّد يوم بدر يشرد عن بقيّة إبل أتباع محمّد وينتهي إلى دار أبي جهل[3] قد هيّجت أحزانه، فسعى إلى قتل رسول محمّد على خلاف ما كانت عليه عادة العرب في عدم قتل

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٥٨٠.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٥٨٢.

(٣) نفسه، ج ٢، ص ٦١٤.

الرّسل. بعد خراش بن أميّة قدم على أسياد مكّة عثمان بن عفان، فأحسن رجال بني عبد شمس استقباله، وأقام عندهم ثلاثة أيّام، ودخل عدد من مهاجري مكّة إلى أهليهم[1]. فحبسهم أسياد مكّة، ومنعوهم من العودة إلى معسكر محمّد، وخرج عدد من مقاتلي مكّة ليلاً رجاء أن يصيبوا من أعدائهم غرّة، فانتبه إليهم أتباع محمّد، وأسروا عدداً منهم، وحدثت مناوشات بين الفريقين، فتراموا بالنّبال والحجارة، ولم تصل الأمور إلى حدّ المواجهة الشّاملة .

تجنّب أتباع محمّد وأسياد مكّة الوصول إلى نقطة يصبح فيها التّراجع مستحيلاً، وجنحوا إلى السّلم، وأخذت الرّسل تختلف بين الفريقين، ولعب عثمان بن عفان دوراً مهمّاً في تليين موقف أسياد مكّة، وعمل نفر من حلفاء قريش على الحيلولة دون وصول الأمور إلى حدّ المواجهة الحربيّة. وقام بديل بن ورقاء الخزاعي وعروة بن مسعود الثّقفي والحليس بن زبّان سيّد الأحابيش بدور مؤثّر في إقناع طرفي الصّراع باستبعاد خيار القتال، ووصل الأمر بسيّد الأحابيش إلى تهديد قريش بالانخذال عنهم مع أتباعه.

ما كان أسياد مكّة يريدون خيار الحرب ولم يقبلوا أن يخلّوا بين محمّد وما جاء له، وحاولوا أن يثيروا انشقاقاً في صفوف أتباعه، فأذنوا لعبد اللّه بن أبي بن سلول أحد أسياد الخزرج ولعثمان بن عفّان بالوصول إلى الكعبة[2]، ورفض صاحبا محمّد أن يؤدّيا العمرة دونه. أظهر أتباع محمّد تماسكاً، أمّا تحالف الدّفاع عن مكّة فبدأت تظهر عليه بوادر انشقاق، فكان ذلك أحد أسباب قبول أسياد مكّة إبرام اتّفاق صلح مع محمّد.

قام أسياد مكّة بإطلاق سراح من أسروا من أتباع محمّد، وقام محمّد بإطلاق سراح من لديه من أسرى، وتولّى إدارة مفاوضات أهل مكّة مع محمّد سهيلُ بن عمرو الذي ينتمي إلى عشيرة عامر بن لؤي التي لم تكن من عشائر قريش القويّة، وبفضل مؤهّلاته الذاتيّة اكتسب مكانة مُعتبرة، وينمّ اختياره عن جنوح أسياد مكّة إلى السّلم، وهذا ما فهمه محمّد.

أظهر سهيل بن عمرو براعة في التّفاوض، وبعد نقاش طويل عقد مع محمّد صلحاً سيُعرف في المصادر بـ"صلح الحديبيّة"، جاء في النّص القرآني: «وَهُوَ الّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ...» (الفتح ٤٨/ ٢٤). ضمن هذا الصّلح لقريش أن لا يدخل محمّد وأتباعه مكّة، وأجّلت عمرتهم إلى

(١) نفسه، ج ٢، ص ٦٠٣.　(٢) نفسه، ج ٢، ص ٦٠٢.

العام القادم، واتّفق المفاوضان على وضع الحرب عن النّاس لمدّة زمنيّة اختلفت المصادر في تقديرها. جاء في مصادر كثيرة أنّهما اتّفقا على وضع الحرب عن النّاس عشر سنين[1]، وجاء في مصادر أخرى أنّ مدّة وضع الحرب عن النّاس هي أربع سنين[2].

يبدو أنّ مدّة أربع سنين ورغم قلّة ورودها في المصادر هي أقرب إلى منطق الأحداث، فأسياد قريش طالبوا محمّداً قبل خضوع مكّة له بتمديد فترة وضع الحرب عن النّاس ممّا يدلّ على أنّها كانت فترة قصيرة، واتّفق المفاوضان على أن يردّ محمّد إلى قريش من أتاه من قريش بغير إذن وليّه ومن جاء قريشاً من أتباع محمّد لم يردّوه إليه. من الظّاهر أنّ المقصود بكلمة "وليّ": الآباء والأزواج والإخوة وأسياد العشيرة، واتّفقا على «أنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه»[3]. تكشف الأحداث التالية لصلح الحديبيّة أنّ هذا البند يعني أنّه لا يجوز لمحمّد أن يحارب من دخل في عهد قريش ولا يجوز لقريش أن يحاربوا من دخل في عهد محمّد. من النّاحية العمليّة لا يعني هذا البند سوى البدو الذين يعيشون على أطراف مكّة.

اختارت قبيلة خزاعة أن تدخل في عقد محمّد وعهده، واختار بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة أن يدخلوا في عقد قريش وعهدهم. تنحدر قبيلة خزاعة من أصول يمنيّة، وسبق لهذه القبيلة أن سيطرت على الحرم المكّي قبل أن يزيحها قصي. وكان بين بعض عشائرها وعبد المطّلب جدّ محمّد عقد تحالف، وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت عدداً من رجال خزاعة يعملون لصالح محمّد وينقلون له أخبار قريش ويخذّلون عنه النّاس، وكانت ديار خزاعة في البوادي القريبة من مكّة، وكان عدد من أسيادها يعيشون في مكّة مثل بديل بن ورقاء.

اختارت خزاعة أن تكون في عهد محمّد وعقده، واختار بنو بكر أن يكونوا في عهد قريش وعقدهم، ويشترك بنو بكر وقريش في الانتماء إلى كنانة، وكانت العلاقة بين القبيلتين زمن نبوّة محمّد تنحو إلى العداوة، إذ كانت لبني بكر في قريش دماء

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٦١١.
ـ الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٢، ص ٤٦٩.
ـ ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٢٧٢.
(٢) ابن سلاّم: **كتاب الأموال**، ص ٧٥.
ـ البلاذري: **جُمل من أنساب الأشراف**، م ١، ص ٤٤١.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٢٧٢.

يطلبونها. ومن المرجّح أنّ عداوة بني بكر لخزاعة كانت سبباً رئيسياً في اختيارهم الانحياز إلى قريش، ومن المرجّح أن أبناء خزاعة اختاروا الدخول في حلف محمّد وعقده لأنّهم لم ينسوا طردهم من مكة على أيدي أبناء قريش ولما بينهم وبين جدّه عبد المطلب من عقد تحالف.

كانت لأسياد مكّة أسباب عديدة لإبرام اتفاقيّة صلح مع محمّد، فحربهم ضده كلّفتهم خسارة كبيرة في الرّجال والأموال وأضرّت بأنشطتهم التّجاريّة، وكانوا يدركون أنّ قوّته آخذة في التّعاظم، وكان صلح الحديبيّة في بعض بنوده لصالحهم، إذ تمكّنوا من تحقيق عهدهم، ومنعوا محمّداً وأتباعه من دخول مكّة، وأعطى هذا الصّلح لقريش حقّ استعادة من يلتحق من أبناء مكّة بمحمّد بغير إذن وليّه، ولم يُعطَ مثل هذا الحقّ لمحمّد.

كان صلح الحديبيّة في بعض بنوده لصالح قريش، ولكنّ تجسيد هذا الصلح على أرض الواقع لن يخدم مصلحتهم. لم تدخل القبائل المتاخمة ليثرب في عقد قريش، أمّا القبائل النازلة قريباً من مكّة فدخل قسم منها في عقد محمّد، فأصبح له حلفاء داخل مكّة والبوادي القريبة منها. لم يُعطِ صلح الحديبيّة محمّداً الحقّ في استعادة من يلتحق من أتباعه بقريش، ولا أحد من أتباعه اختار أن يلتحق بهم، أمّا سكّان مكّة فبدؤوا يلتحقون بمحمّد قبل أن يفرغ الفريقان من إنهاء نصّ المعاهدة. ومن المفارقات أنّ أبا جندل بن سهيل بن عمرو كان أوّل من حاول اللّحاق بصفوف أتباع محمّد، فمنعه والده، وأعاده إلى مكّة.

٣ ـ أهل مكّة ينكثون بعهدهم

امتدّ بقاء محمّد وأتباعه في الحديبيّة عدّة أيّام، قاموا في نهايتها بنحر الهدي، ولم يجد قسم من أهل مكّة حرجاً في القدوم إلى معسكر أتباع محمّد والإصابة من اللّحوم، فصراع أسياد مكّة ضد محمّد لم يكن مشغل جميع سكّانها الذين كان فريق منهم على دينه. فعندما دخل عثمان بن عفّان مكّة وجد بها عدداً من المستضعفين الذين مُنعوا من الهجرة، وبعد صلح الحديبيّة قبل أسياد مكّة مقايضة بعض هؤلاء المستضعفين بالجواري اللّواتي عرضها عليهم محمّد[1]. وحرصوا على منع أبناء مكّة من اللّحاق بيثرب بدون مقابل، فعندما لحق أبو بصير حليف عشيرة زهرة بن كلاب بيثرب أرسل أسياد هذه العشيرة خنيس بن جابر أحد بني عامر بن لؤي مع مولى له إلى

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ١١٨.

محمّد يطالبونه بردّه إليهم لأنّه قدم إليه بدون إذن وليّه. وفى محمّد بما التزم به، ولكنّهما لم يعودا إلى مكّة، فعندما كانا في الطّريق إليها عدا أبو بصير على خنيس بن جابر، وقتله.

رفض أسياد عشيرة زهرة بن كلاب دفع ديّة خنيس بن جابر التي طالبهم بها سهيل بن عمرو سيّد عشيرة عامر بن لؤي، وأدّى هذا الرّفض إلى تنامي العداوة بين العشيرتين[1]. ولم تتوقّف متاعب قريش عند هذا الحدّ، فأبو بصير، وربما بتحريض خفيّ من محمّد، نزل على طريق عير قريش إلى الشّام، وبالتّعاون مع عدد من الصّعاليك والخلعاء والعبيد المتمرّدين بدأ يتعرّض لقوافل مكّة التّجاريّة، وتناءى خبره إلى عدد من أتباع محمّد المحبوسين بمكّة، فلحقوا به، «فاجتمعوا عنده قريب من سبعين رجلاً، فكانوا قد ضيّقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرّ عير إلاّ اقتطعوها حتّى أحرقوا قريشاً»[2]. وتذكر بعض الرّوايات أنّ أتباع أبي بصير بلغوا ثلاثمائة[3].

قُطعت تجارة أهل مكّة مع الشّام، وتزامن ذلك مع قطع تجارتهم نحو اليمامة على يدي حليف محمّد ثمامة بن أثال سيّد بدو بني حنيفة الذي «خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكّة شيئاً»[4]. توقّفت تجارة مكّة مع الشّام واليمامة، وترافق ذلك مع الجفاف، فساءت حال أهل مكّة «حتّى أكلت قريش العلهز[*]»[5].

لم يكن أسياد مكّة قادرين على فعل أيّ شيء لحماية تجارتهم، فإرسال جيش لمواجهة أتباع أبي بصير أمر غير ذي جدوى، لذلك أرسلوا إلى محمّد يتوسّلون إليه بصلة الرّحم أن يأوي أتباعه حتّى يكفّوا عن التّعرّض لقوافل مكّة التّجاريّة. وتذكر بعض المصادر أنّ أبا سفيان بن حرب هو من قدم على محمّد بطلب من قريش، «فجاء أبو سفيان إلى النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فقال: أليس تزعم بأنّك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: بلى. فقال: قد قتلت الآباء بالسّيف والأبناء بالجّوع!»[6]. قبل محمّد طلب أسياد مكّة، وكفّ أتباعه عن التّعرّض لقوافل مكّة التّجاريّة، والتحقوا

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٦٢٨.
(٢) نفسه، ج ٢، ص ٦٢٧.
(٣) ابن سيّد النّاس: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، ج ٢، ص ١٢٩.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٢٥١.
(*) العلهز: دم يابس يُدَقّ به أوبار الإبل في المجاعات ويؤكل.
(٥) الطبري: **جامع البيان...**، م ١٠، ج ١٨، ص ٥٣.
(٦) الطّبري: **جامع البيان...**، م ١٠، ج ١٨، ص ٥٣.

بيثرب التي وصلوها وقد خرج منها محمّد وأتباعه إلى خيبر. وعندما تناءى إلى أسياد مكّة خبر هزيمة محمّد ضد اليهود فرحوا بذلك، وظنوا أنّ متاعبهم انتهت، ولم تدم فرحتهم كثيراً، إذ سريعاً ما تبيّن لهم أنّ حليفهم حجّاج بن علاط السّلمي قد خدعهم[١]، وجاءت الأخبار أنّ محمّداً انتصر على يهود خيبر وحصّل غنائم كثيرة.

حرص محمّد على أن يستفيد أهل مكّة من غنائم خيبر، فأرسل هدايا إلى عدد من أسيادها: «... ويلغه ما فيه أهل مكّة من الضرّ والحاجة والجدب والقحط فبعث إليهم بشعير ذهب، وقيل نوى ذهب، مع عمرو بن أميّة الضّمري، وأمره أن يدفعه إلى أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أميّة بن خلف وسهيل بن عمرو، ويفرّقه ثلاثاً ثلاثاً، فامتنع صفوان بن أميّة وسهيل بن عمرو من أخذه، وأخذه أبو سفيان كلّه، وفرّقه على فقراء قريش...»[٢]، وأرسل أبو سفيان بن حرب سلاحاً وأدماً هديّة إلى محمّد[٣].

لا شكّ في أنّه كان لزواج محمّد من أمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب التي قدمت من الحبشة دور كبير في التّقريب بين الرّجلين. ومن المرجّح أنّه بعد فراغ أتباع محمّد من غزوة خيبر قدمت أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إلى يثرب مفارقة لأهلها، ورفض محمّد ردّها إلى أخويها، ولم يقابل رفضه بأيّ ردّ فعل من أسياد مكّة، ولم يُتّهم بنكث ما تعهّد به في صلح الحديبية. رفض محمّد ردّ أمّ كلثوم بنت عقبة، وطلّق عدد من أتباعه أزواجهم اللّواتي رفضن مفارقة دين الآباء، فتزوّجهن نفر من أسياد مكّة[٤].

انتشر صيت محمّد بين العرب بعد توالي انتصاراته، وقدمت عليه الوفود من بعيد، وقدم على مكّة الأعشى الكبير ميمون بن قيس صنّاجة العرب، وكان في طريقه إلى يثرب، فصدّه أسياد مكّة عن ذلك، وأعطوه مائة من الإبل على أن يعود إلى بلده ويلهو عن الذّهاب إلى محمّد. خاف أسياد مكّة أن ينصر الأعشى محمّداً بشعره: «قال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى ! واللّه لئن أتى محمّداً واتّبعه ليُضرمنّ عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مائة من الإبل. ففعلوا، فأخذها، وانطلق إلى بلده...»[٥].

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٢٧٠.

(٢) اليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، م ٢، ص ٥٦.

(٣) Rubin (U): «Muhammad's curse of Mudar and the blockade of Mecca», *J E S H O*, (Leiden, E. J. Brill), VOL XXXI part III - October 1988, p. 257.

(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٦٣٢ ـ ٦٣٣.

(٥) الأصفهاني: **الأغاني**، ج ٩، ص ١٤٨.

بعد سنة من صلح الحديبيّة وفي شهر ذي القعدة من سنة سبع للهجرة قدم محمّد في جمع كبير من أتباعه لأداء العمرة. أقام بمكّة ثلاثة أيّام، أدّى العمرة، وتزوّج من ميمونة أخت أمّ الفضل زوجة عمّه العبّاس، وفضّل أسياد مكّة مغادرتها عندما دخلها محمّد وأتباعه، وأقاموا برؤوس الجبال. لا شكّ في أنّه كان لحضور أتباع محمّد في مكّة ولدخول المهاجرين على أهلهم أثر كبير في نفوس سكّانها، لذلك اختار عدد منهم الدّخول في دين محمّد، فخسرت مكّة عدداً من أبنائها، يمثّل بعضهم مقاتلين من طراز رفيع مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. سهّل صلح الحديبيّة دخول أبناء مكّة في دين محمّد. قبل هذا الصّلح كان اعتناق دين محمّد يظهر وكأنّه ضرب من الخيانة وإزراء بدماء الأحبّة الذين قُتلوا دفاعاً عن مكّة وعن قريش.

بعد اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبيّة فوجئ أهل مكّة بمحمّد وقد قدم عليهم في عشرة آلاف مقاتل، وتختلف الرّوايات في الأسباب التي جعلته يقرّر غزو مكّة قبل نهاية مدّة الصّلح. تذكر الرّواية الأكثر انتشاراً أنّ بني بكر بن عبد مناة حلفاء قريش عقدوا العزم على الثّأر من خزاعة حلفاء محمّد فجاؤوا قريشاً، «فأعانوهم بالسّلاح والكراع والرّجال، ودسّوا ذلك سرّاً»[1]. أغار بنو بكر ومعهم عدد من أسياد قريش منتقبين على خزاعة ليلاً وهم غارّون آمنون، وأمعنوا فيهم تقتيلاً، «فلم يزالوا يقتلونهم حتّى انتهوا بهم إلى أنصاب الحرم»[2]. بلغ محمّداً ما فعله أسياد قريش من إعانة بني بكر ضد خزاعة، فرأى أنّهم نقضوا العهد، فجهّز جيشاً، واتّجه نحو مكّة. تذكر رواية ثانية أنّ بني بكر عدوا على خزاعة وقتلوا منهم ثلاثة وعشرين رجلاً، ولمّا تناءى خبر ذلك إلى محمّد بعث إلى أسياد مكّة «يخيّرهم بين إحدى ثلاث خلال بين أن يدّوا خزاعة أو يبرؤوا من حلف نفاثة أو ينبذ إليهم على سواء»[3]. رفض أسياد مكّة عرض محمّد، فقرّر أن يغزوهم.

كان أسياد مكّة يدركون أنّ محمّداً لن يسكت عمّا فعله بنو بكر بن عبد مناة بحلفائه، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب إليه ليشدّ في العقد ويزيد في المدّة. وعاد أبو سفيان بن حرب إلى مكّة بعد لقائه بمحمّد من دون أن يُحقّق ما خرج إليه ومن دون أن يعلم ما الذي سيفعل محمّد. وبعد مضيّ شيء من الزّمن وفي شهر رمضان من السّنة الثامنة للهجرة فوجئ أهل مكّة بمحمّد يأتيهم في جيش عظيم قدّرته المصادر بعشرة آلاف مقاتل. من الممكن أنّ الرّواة قد بالغوا في حديثهم عن عدد أفراد جيش

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧٨٣.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٧٨٣.

(٣) نفسه، ج ٢، ص ٧٨٦.

محمّد، وما هو مؤكّد أنّه جيش جرّار، ولم يتحرّك رجال مكّة بصفة جماعيّة لمواجهة الموقف، اختار عدد من رجال بني عبد مناف خاصة لقاء محمّد قبل أن يدخل مكّة، وطلبوا منه الأمان، من هؤلاء أبو سفيان بن الحرث وعبد اللّه بن أبي أميّة وأبو سفيان بن حرب[1].

كان أبو سفيان بن حرب رجل مكّة القويّ يدرك أنّ أهلها باتوا عاجزين عن مواجهة أتباع محمّد وأنّ دخول جيش محمّد مكّة عنوة يعني ضياع قريش، ولهذا عاد إليها، وأخذ في تخذيل النّاس عن مواجهة محمّد، وزيّن لهم قبول الخضوع له، «وجعل يصرخ بمكّة: يا معشر قريش، ويحكم أنّه قد جاء ما لا قبل لكم به ! هذا محمّد في عشرة آلاف عليهم الحديد، فأسلموا...»[2]. عمل أبو سفيان بن حرب على تجنيب أهل مكّة مواجهة ليست متكافئة ربما أدّت إلى سبي النّساء والذّراري وأسفرت عن ضياع قريش. وتزعّم صفوان بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيّل بن عمرو حركة الدّفاع عن مكّة، ولم يلتحق بهؤلاء الأسياد سوى عدد ضئيل من النّاس من قريش ومن عدّة عشائر بدويّة تنزل بالقرب من مكّة مثل هذيل وبني بكر بن كنانة، فأغلب سكّان أمّ القرى آثروا الاحتماء برؤوس الجبال أو قعدوا في ديارهم.

دخل جيش محمّد مكّة من أربعة مداخل، واختار محمّد أن يكون قادة جيشه من قريش، تذكر بعض الرّوايات أنّه أخذ الرّاية التي كانت عند سعد بن عبادة قبل دخول مكّة وأعطاها إلى علي بن أبي طالب[3]. اعترض مقاتلو مكّة كتيبة كان على رأسها خالد بن الوليد، وجرى بين الفريقين قتال قليل، إذ لم يصمد المدافعون عن مكّة، وفرّوا بعد أن فقدوا ثمانية وعشرين رجلا حسب رواية أولى[4]، واثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً حسب رواية ثانية[5]. وقُتل من أصحاب خالد بن الوليد رجلان.

انهزم جيش مكّة بسرعة، وتفرّق النّاس، وأخذ كلّ واحد يبحث عن خلاصه الذّاتي، فاستجار نفر من أسياد مكّة ببعض أقارب محمّد وأصحابه، فاستجار عبد اللّه بن أبي ربيعة والحارث بن هشام بأمّ هانئ بنت عمّ محمّد، واختار صفوان بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل الفرار نحو ساحل البحر، وفرّ هبيرة بن أبي وهب المخزومي وعبد اللّه بن الزّبعرى نحو نجران، وفرّ هبّار بن الأسود. وأمر محمّد بقتل عدد من

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٥ ـ ١٦.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٨٢٣.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٢١.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٨٢٥ ـ ٨٢٦.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٢٢.

سكّان مكّة، وتذكر الرّواية الأكثر انتشاراً أنّ أتباعه قتلوا الحويرث بن نقيذ ومقيس بن صبابة وعبد اللّه بن خطل وجارية له. حرص محمّد على قتل المرتدّين الذين كانوا في أغلبهم لا ينحدرون من قريش بالأصل، القرشي الوحيد الذي قُتل يوم فتح مكّة هو الحويرث بن نقيذ الذي آذى بنتي محمّد عندما كانتا تهمّان بالرّحيل عن مكّة. وأعطى محمّد الأمان لأسياد قريش الذين تزعّموا الأنشطة المعادية له، وأظهر تسامحاً كبيراً تجاههم، واعتبر غلبته على مكّة انتصاراً لهم: «فلمّا مرّ سعد براية النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم نادى: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الحرمة، اليوم أذلّ اللّه قريشاً (...) فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ اللّه فيه قريشاً...»[1].

مثّل خضوع مكّة لمحمّد انتصاراً مدوياً له ونقطة تحوّل رئيسيّة في سيرته النّبويّة. جاء في النّص القرآني: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» (النّصر ١١٠/١ ـ ٣). دخل أهل مكّة في دين محمّد أفواجاً، وظلّ في نفوس عدد منهم حقد شديد عليه: «تقول جويريّة بنت أبي جهل (...) أمّا الصّلاة فسنصلّي، واللّه لا نحبّ من قتل الأحبّة أبداً»[2]. وكان ألم عدد من أسياد مكّة وهم يسمعون بلال بن رباح يؤذّن من فوق الكعبة كبيراً: «... وقال خالد بن أسيّد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم ! وقال الحارث بن هشام: واثكلاه ! ليتني متّ قبل هذا اليوم، أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة !...»[3].

بعد فترة زمنيّة قصيرة عاد أغلب أسياد مكّة الذين فرّوا منها عندما دخلها محمّد. من الظاهر أنّ صفوان بن أميّة لم يبتعد كثيراً عن مكّة، لذلك لم تتأخّر عودته إليها بعد أن لحق به صديقه عمير بن وهب وضمن له أمان محمّد. وعاد عكرمة بن أبي جهل الذي هرب إلى اليمن بعد أن لحقت به زوجته، وضمنت له أمان محمّد. وبعد مضيّ شيء من الزمن عاد عبد اللّه بن الزّبعرى وهبّار بن الأسود. أمّا هبيرة بن أبي وهب المخزومي فرفض العودة إلى مكّة، ومن الظّاهر أنّ لموقفه صلة بزواجه بأمّ هانئ بنت أبي طالب التي لم يزوّجها أبو طالب لمحمّد الذي أعلن رغبته في ذلك. وعاود محمّد بعد غلبته على مكّة خطبة أمّ هانئ، فرفضت الزّواج به متعلّلة بأنّها مصبيّة[4].

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٨٢١ ـ ٨٢٢.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٨٤٦.

(٣) نفسه، ج ٢، ص ٨٤٦.

(٤) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٨، ص ١٥٢.

لم ينضمّ أسياد مكّة الذين فرّوا منها إلى هوازن الذين كانوا يستعدّون لحرب محمّد، ويعود ذلك إلى عداء قديم بين هوازن وقريش، وأرفد أسياد مكّة الذين لم يفارقوا دين الآباء محمّداً بالسّلاح والرّجال، ومن المرجّح أنّهم ساعدوا محمّداً لحماية ممتلكات قريش في الطّائف التي استحوذ عليها أسياد ثقيف.

تذكر مصادر عديدة أنّ شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخا بني عبد الدّار استغلّ واقعة حنين، وحاول قتل محمّد ثأرا لوالده الذي قتل يوم أُحد[1]. وما تذكره المصادر عن تفاصيل هذه الحادثة يغلب عليه الأسطوري والخارق، ومن المرجّح أنّ شيبة بن عثمان لم يمض طويلاً في محاولته. كان النّصر في بداية معركة حنين لصالح هوازن، وتباينت ردود فعل "الطّلقاء" من هزيمة أتباع محمّد، بعضهم فرح بذلك، وعاوده الأمل أن يخسر محمّد كلّ شيء، والبعض الآخر ساءه أن ينتصر الأعراب على محمّد القرشي وخاف على قريش من هوازن، «وصرخ جبلة بن الحنبل (...) ألا بَطل السحر اليوم، فقال له صفوان: اسكت، فضّ اللّه فاك، فواللّه لأن يرُبّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن»[2].

كان صراع أهل مكّة ضد محمّد وأتباعه النّازلين بيثرب محكوماً بعدّة معطيات تمسّ حياة مكّة الدّاخليّة وعلاقتها بما حولها من تجمّعات بشريّة. من النّاحية الاجتماعيّة كانت العلاقة بين عدد من عشائر قريش محكومة بالعداوة والتّنافس، ولم تؤدّ هجمات أتباع محمّد على قوافل مكّة التّجاريّة إلى نهاية مشاكل مكّة الدّاخليّة، فبنو عدي بن كعب لم يحضروا واقعة بدر بسبب عداوتهم مع بني عبد شمس، وكان صراع عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام على قيادة النّاس يوم بدر في أحد جوانبه صراعاً على الزّعامة بين بني عبد شمس وبني مخزوم. وأسفرت واقعة بدر عن نتيجتين: فمن جهة أولى تراجعت حدّة الخلافات بين عشائر مكّة، فلم يثأر بنو عبد شمس لمقتل حليفهم أبي أزيهر الدّوسي الذي قتله بعض بني مخزوم؛ ومن جهة ثانية أصبح رهان بني هاشم وبني المطّلب على محمّد أكبر، وأصبح فريق منهم يعملون لصالحه. وبعد واقعة الخندق تراجعت حماسة بني عبد مناف لقتال محمّد، وكان أسيادهم أبرز الغائبين يوم الحديبيّة، وبعد واقعة خيبر وزواج محمّد من أم حبيبة ستتعزّز علاقة أبي سفيان بن حرب بمحمّد، فتبادلا الهدايا، وسيقوم أبو سفيان بن حرب بدور مهمّ في جعل مكّة تخضع لمحمّد من دون قتال.

من النّاحية الاقتصاديّة كانت التّجارة هي نشاط أهل مكّة الأساسي، ويمتاز هذا

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٦٠. (٢) نفسه، ج ٤، ص ٥٩.

النّشاط بالإضافة إلى الرّبح الوفير بالهشاشة، فتجارة مكّة تحتاج إلى طريق آمنة تمتد على مسافات شاسعة، واستطاع أتباع محمّد بسهولة أن يُلحقوا أضرارا فادحة بها، فعرف أهل مكّة الفقر والخصاصة، وجنحوا إلى الصّلح، وتوسّلوا إلى محمّد أن يطلب من أتباعه أن يكفّوا عن التّعرّض لقوافلهم التّجاريّة، وكان معظم طعام أهل مكّة يأتيهم من الشّام ومصر[١]، وكانت طريق مكّة إلى الشّام ومصر تمرّ غير بعيد عن يثرب.

كانت حرب أهل مكّة ضد محمّد محكومة بخصائص مكّة الدّاخليّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة وبخصائص علاقتهم بغيرهم من التجمّعات البشريّة. ويُمكن توزيع علاقات قريش الخارجية إلى قسمين: علاقات التحالف وعلاقات العداوة. تقوم علاقات التّحالف على أسباب عديدة أهمّها القرابة الدّمويّة والمصلحة الاقتصاديّة المشتركة ووحدة المعتقد الدّيني.

اختار عدد من رجال بكر بن عبد مناة نصرة قريش في حربهم ضد محمّد بدافع قرابة الدّم، وظلّ عدد من رجال كنانة مع أهل مكّة إلى آخر لحظة في دفاعهم عنها، وبدافع القرابة الدّمويّة انضم سيّد الأحلاف من ثقيف عروة بن مسعود إلى قريش في حربهم ضد محمّد: «... فقال عروة: يا معشر قريش تتّهمونني ؟ ألستم الوالد وأنا الولد ؟ وقد استنفرتُ أهل عكاظ لنصركم فلمّا بلّحوا عليّ نفرت إليكم بنفسي وولدي ومن أطاعني...»[٢].

انضمّت عناصر عديدة إلى قريش في حربهم ضدّ محمّد بدافع قرابة الدّم. وفضّل كثير من النّاس اعتزال حرب محمّد ضد قومه لأنّه ينحدر من قريش، وكان أسياد هذه القبيلة يشتركون مع عدد من أسياد أهل البادية وعدد من أسياد الأحلاف من بني ثقيف في أنشطة اقتصاديّة تتمثّل خاصة في تسيير رحلات تجاريّة كبرى أو استغلال أراض زراعيّة أو استخراج بعض المعادن الثمينة. وانضمّ عدد من الأحلاف ومن أسياد أهل البادية إلى قريش في حربهم ضد محمّد دفاعاً عن مصالحهم الاقتصاديّة المشتركة.

كان أبناء قريش يحتلون منزلة خاصة في نفوس العرب باعتبارهم أهل الحرم، وكان النّاس يقسمون بإله قريش، وأدّت عداوة أهل الحرم لمحمّد إلى عداوة قسم من الأعراب له. ورفض فريق من أتباع محمّد وحلفائه مشاركته في حربه ضد قومه، وربط عدد من النّاس دخولهم في دين محمّد بدخول قريش فيه، وقام الأحابيش بدور مهمّ

---

(١) Donner (F): «Mecca's food supplies and Muhammed's boycott», *J E S H O* (Leiden, E. J. Brill), Vol XX part III - 1977, p. 254.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٩٤.

في الدّفاع عن مكّة، وهم «قوم يعظّمون الهدي ويتألّهون»[1]. كانت لقريش علاقات تحالف مع قسم من أهل الطّائف ومع عدد من العشائر البدويّة، وقام فريق من حلفائهم بنصرتهم في حربهم ضد محمّد، وكان أهل مكّة في حالة عداء مع عدد من التّجمّعات البدويّة ومع قسم من سكّان الطّائف: كان بنو مالك من ثقيف يتربّصون بأهل مكّة الدّوائر للاستحواذ على أموال قريش بالطّائف ولتوسيع نصيبهم من الرّحلات التّجاريّة الكبرى. ولم يخرج أهل مكّة إلى واقعة بدر إلاّ بعد أن ضمن لهم سراقة بن مالك أن لا تأتيهم بنو بكر بن كنانة من خلفهم بشيء يكرهونه. وشرع قوم أبي أزيهر الدّوسي إثر قتله بعد واقعة بدر بقليل في قتل كل قرشي يظفرون به. كان أبناء قريش وأموالهم مستهدفين من أعدائهم، وكان لقريش ثأر عند النّاس، فبنو مخزوم لم ينسوا وصيّة الوليد بن المغيرة ولم ينسوا قتل الفاكه بن المغيرة على يدي بعض بني جذيمة، وكان أبناء قريش يرغبون في الفراغ من حرب محمّد لتصفية حسابات قديمة مع عدد من أعدائهم.

خاتمة

كان محمّد على وعي تام بمكانة مكّة الخطيرة عند العرب، فأظهر إصراراً قويّاً على السيطرة عليها. فبدأ بعد نزوله يثرب بزمن قصير في استهداف قوافلها التّجاريّة، فكانت واقعة بدر التي خسرت فيها مكّة عدداً كبيراً من أبنائها، فكان ذلك دافعاً قويّاً لانخراط معظم أهلها في محاربة محمّد، واستطاع أبناء مكّة أن ينتصروا على أتباع محمّد يوم أُحد، وشكّلوا تهديداً قويّاً للكيان الإسلامي يوم الخندق. ولكنّهم عجزوا عن أن يبقوا متوحّدين في مواجهة محمّد، والتحق عدد منهم بصفوف أتباعه، ومع مرور الزّمن لم يعد أبناء مكّة قادرين على مواجهة محمّد الذي تعاظمت قوّته، فلم يظهروا إصراراً قويّاً على منعه من دخولها عندما قدم إليها في جيش عظيم بعد ثماني سنوات من خروجه منها متخفّياً.

استغرقت حرب أهل مكّة ضد محمّد قسماً كبيراً من زمن النبوّة، وعرفت حدّة في بعض مراحلها، وكانت في أغلب وقائعها ومعاركها محكومة بضرب من الأخلاق النبيلة، فلم تُنتهك الأعراض، ولم تسب النّساء، ووُجد دائماً إحساس دفين بوحدة الانتماء. ولم ينقطع الأمل بإمكانية استعادة لحمة قريش من جديد، فكانت الأصوات ترتفع دائماً داعية إلى الرّحمة وترك إمكانية للصلح. وحافظ أسياد مكّة على حلمهم

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٥٩٩.

ومروءتهم حتّى في أكثر فترات عدائهم لمحمّد شدّة، وتجنّبوا الإمعان في قتل أتباعه يوم أُحد. ولم يمنع طول عداوة قريش لمحمّد من أن يكون تصالحهم معه هو الأعمق. لقد جعلت طريقة قريش في عداء محمّد التّمازج بين الحقيقة وروابط الحبّ عميقاً في دين محمّد.

الفصل الثالث

أعداء محمّد من يهود يثرب

مقدّمة

يلفّ وجود اليهود في يثرب غموض كبير، فأخبارهم في المصادر العربيّة قليلة ويغلب عليها الإيجاز، ويعود ذلك إلى أنّ أغلب يهود يثرب الذين عرفوا محمّداً عن قرب لم يصدّقوا بنبوّته ولم يدخلوا في دينه واتّخذوا موقفاً معادياً له، فنأت الذّات الإسلاميّة عن اليهوديّة وتصالحت إلى حد كبير مع الموروث العربي الوثني، فلم يهتمّ الرّواة بتناقل أخبار اليهود اهتمامهم بتناقل أخبار الوثنيين. ويعود ضعف حضور اليهود في المصادر العربيّة أيضاً إلى قلّة رصيدهم من الشّعر الجّاهلي وقلّة مشاركتهم في أيّام العرب، أهمّ ما احتفظت به الذاكرة الجماعيّة من حياة العرب قبل الإسلام. ورغم أنّ علاقة محمّد بيهود يثرب تشكّل جزءاً مهمّاً من سيرته النبويّة، لم يتوسّع الرّواة في ذكر أخبارهم، واكتفوا في أحيان كثيرة بترديد ما جاء في النّص القرآني. ويغلب على عدد من أخبار يهود يثرب مع محمّد الطّابع الأسطوري، فالرّواة قد وظفوا العجيب والخارق في بناء عدد من أخبارهم. وخصّص النّص القرآني آيات عديدة للحديث عن اليهود، وكان حديثه عنهم في أحيان كثيرة عاماً ولا يمكن فهم معانيه وتحديد السّياق الذي نزل فيه إلاّ بالعودة إلى غيره من المصادر التي لا شكّ في أنّها في كثير من الأخبار لا تنقل الواقع بقدر ما تقدّم فهماً معيّناً للنص القرآني أنتجه المخيال الإسلامي في العهود اللاحقة لعهد النبوّة.

بدأت أنشطة اليهود المعادية لمحمّد مع بداية انتشار دينه في يثرب، واشتدت بعد هجرته إليها، ويمكن تقسيم هذه الأنشطة إلى قسمين: **قسم أوّل** يضمّ الأنشطة التي تهدف إلى صدّ النّاس عن دين محمّد وفتنة أتباعه، **وقسم ثان** يضمّ وقائع اليهود الحربيّة ضد أتباع محمّد ومحاولتهم قتله.

١ ـ يهود يثرب يصدّون النّاس عن دين محمّد ويحاولون فتنته

اتّخذ محمّد من اليهوديّة باعتبارها ديانة سماويّة موقفاً إيجابيّاً، وقدّم رسالته على أنّها مواصلة لما جاء به موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل: «قَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم» (الأحقاف ٤٦/ ٣٠). واتّخذ محمّد أثناء وجوده في مكّة موقفاً إيجابيّاً من يهود عصره، وسعى إلى إقامة علاقات جيّدة معهم: «وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (العنكبوت ٢٩/ ٤٦). ومن الظاهر أنّ محمّداً اعتقد أثناء وجوده في مكّة أنّ اليهود مؤهّلون أكثر من المشركين لتقبّل دعوته وتصديقه: «... وَالذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ» (الأنعام ٦/ ١١٥). وتوقّع محمّد أن يُقبل اليهود على الدّخول في دينه، فيكون ذلك حجة على صدق نبوّته: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ» (الأحقاف ٤٦/ ١٠). واعتقد محمّد أنّ علماء بني إسرائيل سيصدّقون بنبوّته ويقرّون بنزول الوحي عليه: «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الشّعراء ٢٦/ ١٩٧). وأظهر محمّد تعظيماً لبيت المقدس، واتّخذها على غرار اليهود قبلته في صلاته، ويبدو أنّ ذلك تمّ بعد حادثة الإسراء والمعراج، وتذكر عدّة مصادر أنّ دعوة محمّد وجدت قبولاً من بعض غلمان مكّة من اليهود[١].

اتّخذ محمّد من يهود عصره موقفاً إيجابيّاً إلاّ أنه لم ينصح أتباعه بالهجرة إلى يثرب القريبة حيث ينزل عدد غفير من اليهود، ونصحهم بالهجرة إلى الحبشة البعيدة التي كان أهلها على النّصرانيّة. وتذكر مصادر عديدة أنّ أحبار اليهود أعانوا أسياد مكّة في جدالهم لمحمّد وأوعزوا لهم بطرح عدّة أسئلة عليه لإفحامه[٢]. وتذكر المصادر أنّ يهود يثرب الذين عاشوا زمن نبوّة محمّد كانوا يتوكّفون ظهور نبيّ أظلّ زمانه وكانوا يحدّثون عرب يثرب بذلك: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدَ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الكَافِرِينَ» (البقرة ٢/ ٨٩).

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٨٦٥.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

كان عرب يثرب بحكم مخالطتهم لليهود عارفين بكثير من المبادئ الدّينيّة التي جاء بها محمّد مثل الوحي والبعث والحساب، وكان ذلك سبباً رئيسيّاً لدخولهم بكثافة في دينه، وبدأ مركز أحداث تجربة النبوّة ينتقل تدريجيّاً من مكّة إلى يثرب. تذكر بعض المصادر أنّ عدد التّجمّعات اليهوديّة في هذه البلدة يفوق العشرين[١]، ومن المرجّح أنّ أغلب هذه التجمّعات اليهوديّة التي تتحدّث عنها المصادر كانت قليلة العناصر ولم يعد لها زمن نبوّة محمّد حضور فعلي ولحقت بقبائل يثرب الكبرى.

يمكن توزيع يهود يثرب زمن نبوّة محمّد إلى قسمين كبيرين: **القسم الأوّل** تمثّله القبائل اليهوديّة الكبرى (قينقاع، النّضير، قريظة) وما لحق بها من أفراد ومجموعات صغيرة من أصول مختلفة؛ **القسم الثّاني** يمثّله يهود الأوس ويهود الخزرج، إذ كانت عشائر هاتين القبيلتين تضمّ بالأصل أو بالحلف مجموعات صغيرة تدين باليهوديّة، وكان حضور اليهود أشدّ كثافة في عشائر أوس مناة مقارنة ببقيّة عشائر الأوس والخزرج، «... ومنها بنو مريد في بني خطمة (...) ومنها بنو معاوية في بني أميّة بن زيد»[٢]. تنزل القبائل اليهوديّة الكبرى في أماكن مختلفة، إذ كانت منازل بني قريظة في جنوب يثرب عند وادي مهزور، وكانت منازل بني النّضير عند وادي بطحان[٣]، وكانت منازل بني قينقاع وسط يثرب بين منازل الأوس والخزرج. اشتغل بنو قريظة وبنو النّضير بالأنشطة الزّراعيّة، واشتغل بنو قينقاع بالتّجارة وصناعة الأسلحة والصّياغة، وكانت ليهود يثرب حصون كثيرة.

لم يدخل أغلب اليهود في دين محمّد، ولم يمنع ذلك من دخول أعداد غير قليلة من مشركي يثرب فيه، وما توفّره المصادر من أخبار قليلة تدلّ على أنّ اليهود لم يكونوا راضين عمّا تعهّد به أسياد الأوس والخزرج لمحمّد في بيعة العقبة الثّانية: «... فقال: يا رسول اللّه، إنّ بيننا وبين الرّجال حبالاً، وإنّا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثمّ أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك، وتدعنا»[٤]. قطع أسياد الأوس والخزرج ما بينهم وبين اليهود من حبال، ورضوا باستقبال محمّد وأتباعه في ديارهم، وبعد بيعة العقبة الثّانية تكاثف توافد أتباع محمّد على يثرب، وأوصى محمّد المهاجرين والأنصار أن يتشبّهوا باليهود في اتّخاذ موعد أسبوعي للاجتماع: «... وكان مصعب يقرئهم القرآن، ويعلّمهم، فكتب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يستأذنه أن يجمّع بهم، فأذن له، وكتب إليه: انظر من اليوم الذي يجهر فيه اليهود لسبتهم،

---

(١) السّمهودي: **وفاء الوفاء...**، ج ١، ص ١١٦.
(٢) نفسه، ج ١، ص ١١٥.
(٣) الأصفهاني: **الأغاني**، ج ٢٢، ص ١١٣.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٤٩.

فإذا زالت الشّمس فازدلف إلى اللّه فيه بركعتين، واخطب فيهم...»[1]. وسعى محمّد بعد وصوله إلى يثرب إلى إقامة علاقة جيّدة مع اليهود، وحرص على الاقتداء بهم في عدّة أشياء: «وكان محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم يحبّ موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه»[2]، فطلب من أتباعه صوم يوم عاشوراء[3] وتوقّع أنّ لقاءه باليهود سيجعلهم يدخلون في دينه. لم يتحقّق ما توقّعه محمّد، ولم يدخل من يهود يثرب في دينه إلاّ جمع قليل أشهرهم عبد اللّه بن سلاّم[4].

حاول محمّد بعد وصوله إلى يثرب تكوين أمّة تجمع المهاجرين وأبناء عشائر الأوس والخزرج. ينقل ابن هشام عن ابن إسحاق نصّ الصّحيفة التي شكّلت دستور هذه الأمّة، ولا يحدّد زمن كتابتها، والمرجّح أنّ ذلك تمّ بعد فترة قصيرة من وصول محمّد إلى يثرب. وتضمّ هذه الأمّة قسمين رئيسين: **قسم أوّل** يمثّله أتباع محمّد من المهاجرين؛ **وقسم ثان** تمثّله عشائر الأوس والخزرج التي تضمّ عناصر على دين محمّد وعناصر على الوثنيّة وعناصر على اليهوديّة: «وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام فيهم أهل الحلقة والحصون ومنهم حلفاء للحيّين جميعاً الأوس والخزرج، فأراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم استصلاحهم كلّهم وموادعتهم، وكان الرّجل يكون مسلماً وأبوه مشركاً»[5].

كانت أغلب عشائر الأوس والخزرج تضمّ بالحلف أو بالأصل عناصر تدين باليهوديّة، وجعل محمّد ليهود الأوس والخزرج مكانة مماثلة لمكانة بقيّة مكوّنات الأمّة، ودعاهم إلى المشاركة في الإنفاق على شؤون الأمّة العامة والمشاركة في الأنشطة الحربيّة، فكان «... اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»[6]. وحاز محمّد مكانة الحكم ضمن الأمّة، وأعطي سلطة فضّ النّزاعات والفصل بين المتخاصمين: «وإنّه ما كان بين أهل الصّحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإنّ مردّه إلى اللّه عزّ وجلّ وإلى محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم»[7].

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٣، ص ١١٨.
(٢) البخاري: **الصّحيح**، م ٣، ج ٥، ص ١٧٥.
(٣) نفسه، م ٣، ج ٥، ص ١٧٥.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١١٤ ـ ١١٥.
(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٨٤.
(٦) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٠٣.
(٧) نفسه، ج ٢، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

لم يكن معظم يهود الأوس ويهود الخزرج راضين عمّا جاء في هذه الصّحيفة، ولم يقبلوا أن يكون محمّد حكماً، ولم تلق بنود هذه الصّحيفة القبول عندهم. وأبرم محمّد مع القبائل اليهوديّة الكبرى عقود موادعة ثنائيّة تنصّ خاصة على الالتزام بعدم تقديم أيّة مساعدة لأعدائه من أهل مكّة وأهل البوادي. ولم يكتب لهذه المعاهدات النّجاح، ولم يمض زمن طويل على قدومه إلى يثرب حتّى بدأت المواجهات بينه وبين قسم من اليهود.

حاول أعداء محمّد من يهود يثرب صدّ أهلها عن الدّخول في دينه. جاء في النص القرآني: «قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (آل عمران ٣/ ٩٩)، ونجحوا في أن يقفوا بأغلب اليهود عن دين محمّد، ففضّلوا الرّحيل عن يثرب والقتل على مفارقة اليهوديّة، ونجحوا في إقناع فريق من أبناء الأوس والخزج بعدم متابعة محمّد إلى زمن متأخّر من العهد النّبوي. وكان لسعي سادة اليهود لصدّ النّاس عن دين محمّد تأثير قويّ في عشائر أوس مناة خاصة لارتفاع نسبة اليهود في هذه العشائر مقارنة ببقيّة عشائر الأوس والخزرج: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ. وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًا وَ كَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا» (النّساء ٤/ ٤٤ ـ ٤٥).

عمل سادة يهود يثرب على صدّ أهل يثرب عن دين محمّد، وعملوا على فتنة أتباعه عقائديّا وسياسيّا، فحرّضوهم على مفارقة دينه، وزيّنوا لهم العودة إلى دين الآباء: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (البقرة ٢/ ١٠٩). وزيّنوا لهم ترك دين محمّد: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً» (النّساء ٤/ ٥١).

استغلّ سادة يهود يثرب عدّة حوادث لحثّ أتباع محمّد على الارتداد عن دينه. «... روى أنّ فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر بعد وقعة أُحد: ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحقّ ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً...»[١]. ورأى أعداء محمّد من اليهود في كثرة زواجه دليلاً على عدم صدقه في ادّعائه النّبوّة:

---

(١) الرّازي (فخر الدين): **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٢٣٦.

«قالت اليهود لمّا رأت رسول اللّه يتزوّج النّساء: انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطّعام ولا من النّساء، واللّه ما له همّة إلاّ النّساء (...) وقالوا: لو كان نبيّاً ما رغب في النّساء...»[1]. وبعد هزيمة أتباع محمّد في واقعة أحد، «... أظهرت اليهود القول السيّئ، فقالوا: ما محمّد إلاّ طالب مُلك، ما أصيب هكذا نبيّ قطّ»[2].

سعى سادة يهود يثرب إلى إظهار عدم صدق محمّد مستغلّين عدّة حوادث مثل تعدّد زيجاته وهزائمه العسكريّة، وعملوا على إظهار عجزه عن إثبات صدق نبوّته، فطالبوه أن يأتيهم بعدّة معجزات مثل إنزال كتاب من السّماء: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ...» (النّساء ٤/ ١٥٣). وطلبوا منه أن يجعل اللّه يكلّمهم: «وَقَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (البقرة ٢/ ١١٨). وطلبوا منه أن ينزّل عليهم قرباناً من السّماء: «الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ...» (آل عمران ٣/ ١٨٣).

سعى سادة يهود يثرب إلى إظهار محمّد على صورة العاجز عن الإتيان بدليل يثبت صدق نبوّته، واستهزؤوا من دينه، وجعلوه موضوع إضحاك وهزل: «يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَ لَعِبًا مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ...» (المائدة ٥/ ٥٧). وسخروا من إلهه: «وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...» (المائدة ٥/ ٦٤). واعتبروا إلهه فقيراً مثله: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ...» (آل عمران ٣/ ١٨١). وسخروا من صلاته، واتّخذوها موضوع إضحاك: «وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَ لَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ» (المائدة ٥/ ٥٨). وعملوا على تحريف كتابه وتحميله بما ليس منه: «مِنَ الذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلاَمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ رَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْنًا فِي الدِّينِ...» (النّساء ٤/ ٤٦). وسعوا إلى إثارة الشّبهات حول دينه وتخذيل النّاس عن اعتناقه عبر التّظاهر بالدّخول فيه ثمّ الارتداد عنه لدفع أتباعه إلى تقليدهم: «وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ آمِنُوا بِالذِي أُنْزِلَ عَلَى الذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (آل عمران ٣/ ٧٢).

عمل سادة يهود يثرب على فتنة أتباع محمّد عقائديًا، وسعوا إلى فتنتهم سياسيّاً عبر حثّ أبناء الأوس والخزرج على عدم توفير الحماية للمهاجرين وعدم الإنفاق

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٨، ص ٢٠٢. (٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣١٧.

عليهم، وكانوا «... يأتون رجالاً من الأنصار كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنّا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النّفقة، فإنّكم لا تدرون علام يكون...»[1].
حثّ سادة اليهود أبناء الأنصار على عدم الإنفاق على المهاجرين الذين كانوا في أغلبهم من الفقراء والمعوزين ينزلون في دور الأنصار ويقتاتون من الصّدقات حتّى يغادروا يثرب، وحثّوهم على عدم الإنفاق على محمّد الذي لم تكن له في الفترة الأولى من نزوله يثرب مصادر رزق، فكان «يبيت اللّيالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء»[2].

دعا سادة يهود يثرب أتباع محمّد من أبناء الأوس والخزرج إلى عدم الإنفاق على المهاجرين الذين كانوا في أغلبهم من الفقراء وإلى عدم تسخير إمكانياتهم المادية خدمة لأنشطة أتباع محمّد العامة، وحرّضوهم على عدم المساهمة في أنشطة محمّد الحربيّة ضد قومه وضد أهل البوادي، وقاموا بتخذيلهم عن القتال معه في عدّة وقائع، وقالوا لهم: «... ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه، فإنّهم إن قدروا عليكم في هذه المرّة لم يستبقوا منكم أحداً، وإنّا نشفق عليكم، أنتم إخواننا وجيراننا، هلمّوا إلينا»[3]. وحثّوهم على عدم القبول باتّخاذ محمّد حكماً، وحرّضوهم على عدم دفع الخمس إليه. تقول عصماء بنت مروان مخاطبة الأوس والخزرج:

أَطَعْتُمْ أَتَاوِيَّ مِن غَيْرِكُمْ فَلاَ مِنْ مُرَادٍ وَ لاَ مِنْ مِذْحَجِ
تُرَجُّونَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرُّؤُوسِ كَمَا يُرْتَجَى مَرَقُ الْمُنْضَجِ[4]

حثّ سادة يهود يثرب أتباع محمّد على عدم المشاركة في تأسيس دينه في جانبه السّياسي والاجتماعي، وسعوا إلى إحداث انقسامات بين المهاجرين والأنصار، وحاولوا إحداث فتنة بين الأوس والخزرج بإثارة العداوات والضّغائن القديمة. «قال ابن إسحاق: ومرّ شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسا عظيم الكفر شديد الضّغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهليّة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا واللّه ما لنا معهم إذا اجتمع

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٥٦.
(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٤٠٠.
(٣) البغوي: **التفسير**، ج ٥، ص ٢٠٢.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٧٢.

ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثمّ اذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار (...) قال ابن إسحاق: ففعل، فتكلّم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيّين على الرّكب (...) فتقاولا، ثمّ قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة. وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظّاهرة (والظاهرة: الحرّة)، السّلاح السّلاح، فخرجوا إليها...»[1]. عندما وصل محمّد إلى يثرب كانت خمس سنوات قد مضت على واقعة بعاث آخر الوقائع الكبرى بين الأوس والخزرج، وكانت ذكريات النّاس عن هذه الواقعة حاضرة بقوّة، وسعى سادة يهود يثرب إلى إحياء العداوات والضغائن القديمة لشقّ صفوف أتباع محمّد، فحدثت عدّة مناوشات بين الأوس والخزرج أثناء وجود محمّد بينهم، وكادت هذه المناوشات تتحوّل إلى مواجهات شاملة.

سعى سادة يهود يثرب إلى صدّ النّاس عن دين محمّد، وحرّضوا أبناء الأوس والخزرج على عدم المساهمة في تأسيس مشروع محمّد السّياسي والاجتماعيّ، وحاولوا فتنته وذلك عبر مطالبته بتغيير قبلته من جديد والرّجوع إلى قبلتهم التي فارقها قبل واقعة بدر بزمن قصير. «... فقالوا: يا محمّد، ما ولاّك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنّك على ملّة إبراهيم ودينه ؟ أرجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتّبعك، ونصدّقك ! وإنّما يريدون فتنته عن دينه...»[2]. طلبوا منه أن يغيّر قبلته من جديد، ووعدوه إن هو فعل أن يتّبعوه، وكانت غايتهم من ذلك إظهار عدم صدقه وتحيّره في دينه.

رفض محمّد طلب سادة يهود يثرب تغيير قبلته والتّوجّه إلى بيت المقدس: «وَلَئِنْ أَتَيْتَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ مَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ» (البقرة ٢/ ١٤٥)، وطلب سادة يهود يثرب من محمّد أن يجعل لهم أحكاماً خاصة تميّزهم عن غيرهم وتقرّ بفضلهم على النّاس ليرضوا به حَكَماً، وكانت غايتهم من ذلك إظهاره على صورة الضّعيف أمامهم وإثارة غضب أتباعه وشكّهم في حقيقة نبوّته. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن اليهود: «وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...» (المائدة ٥/ ٤٩).

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) الطّبري: **جامع البيان...**، م ٢، ج ٢، ص ٥.

طلب يهود يثرب من محمّد أن يجعل لهم أحكاماً خاصة بهم لإظهار ضعفه وعدم صدقه في ادّعائه النّبوّة. وتذكر مصادر عديدة أنّهم قاموا بسحره «حتّى كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يُخيّل إليه أنّه كان يفعل الشيء وما فعله»[1]. كان الاعتقاد في قدرة السّحر على التّأثير منتشراً بين سكان الجزيرة العربيّة زمن نبوّة محمّد، وكان يهود يثرب يعتقدون في فاعليّة السّحر، ومن الممكن أنّهم قاموا بسحر محمّد، وكان محمّد يعتقد في قدرة السّحر على التّأثير، واعتقد أنّ يهود يثرب قاموا بسحره، فكان لهذا الاعتقاد تأثير في سلوكه.

٢ ـ يهود يثرب يحاربون محمّداً ويحاولون قتله

اعتمد أتباع محمّد من المهاجرين لتحصيل رزقهم على عطايا الأنصار، ونظموا رحلات تجاريّة إلى بلاد الشّام وتعاطوا بعض الأنشطة الزراعية أجراء عند اليهود خاصة، وبعد مضيّ بضعة أشهر على قدوم محمّد إلى يثرب بدأ أتباعه في تنفيذ غارات استهدفت بشكل أساسي قوافل مكّة التّجاريّة.

اقتصر الأمر في البداية على المهاجرين، وسرعان ما انضمّ إليهم الأنصار، وتمكّن أتباع محمّد في واقعة نخلة من قتل أحد حلفاء قريش وأخذ أسيرين. وتذكر المصادر أنّ يهود يثرب فرحوا لما جرى في هذه الواقعة لأنّهم كانوا يريدون أن يلتحم الأمر بين محمّد وقومه فيصبح في موقع الضّعيف داخل يثرب، وتوقّعوا أنّ قريشاً سيُلحقون هزيمة فادحة بمحمّد.

عوّل محمّد كثيراً على الأنشطة العسكريّة لتوفير الموارد الماليّة اللاّزمة للتّكفّل بأتباعه ولتقوية روابط التّضامن بينهم، ولم يكن قادراً على استنفار جميع أتباعه والخروج بهم للقيام بأنشطة حربيّة ضد أعدائه من أهل مكّة وأهل البوادي لخوفه من اليهود نظراً لتنامي العداوة بينه وبينهم. وعندما خرج محمّد معترضاً قافلة مكّة القادمة من الشّام بقيادة أبي سفيان بن حرب خلّف عاصم بن عدي على قباء وأهل العالية[2]، وأمر الحارث بن حاطب بأمره في بني عمرو بن عوف[3]، وتضمّ العالية بالإضافة إلى بني عمرو بن عوف خطمة ووائلا[4] اللّتين تنتميان إلى مجموعة أوس مناة. وتضمّ

---

(١) البخاري: **الصحيح**، م ٣، ج ٥، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠٢.
(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٣، ص ٤٦٦.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٠١.
(٤) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٣، ص ٥٢٦.

عشيرة عمرو بن عوف وعشائر أوس مناة أكثر عناصر يهود الأوس ويهود الخزرج معاداة لمحمّد، وتنفرد بعض المصادر المتأخّرة بالقول إنّ بني قريظة أرفدوا قريشاً بالسّلاح قبل واقعة بدر[1].

حقّق أتباع محمّد انتصاراً مهمّاً في واقعة بدر، وأظهروا انسجاماً كبيراً، وأظهر المهاجرون منهم وفاءً تامّاً للمبادئ الدّينيّة وقطعاً لروابط القرابة الدّمويّة، فقتلوا آباءهم وأبناء عمومتهم. وأذكت واقعة بدر حماسة الأنصار للقطع مع روابط القرابة الدّمويّة، وعزّزت شعورهم بالانتماء إلى الجماعة الإسلاميّة، فاندفع بعضهم بعد واقعة بدر إلى قتل عدد من يهود الأوس ويهود الخزرج الذين كانوا يحرّضون النّاس ضد محمّد، فوقع قتل عصماء بنت مروان التي كانت تحت «يزيد بن زيد بن حصن الخطمي »[2]، وكانت «تؤذي النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتعيب الإسلام، وتحرّض على النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم»[3]، وتولّى أحد أقاربها قتلها: «... فلمّا رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من بدر جاءها عمير بن عدي في جوف اللّيل حتّى دخل عليها في بيتها وحولها نفرٌ من ولدها نيام منهم من ترضعه في صدرها، فجسّها بيده، فوجد الصّبي ترضعه، فنحّاه، ثمّ وضع سيفه على صدرها حتّى أنفذه من ظهرها»[4]. وقريباً من زمن قتل عصماء بنت مروان قُتل أبو عفك أحد بني عمرو بن عوف، و«كان يحرّض على عداوة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم»[5]. قتله سالم بن عمير أحد أبناء عشيرته في «شوّال على رأس عشرين شهراً»[6]. ولم يقم بنو عمرو بن عوف وبنو أوس مناة بأيّ ردّ فعل على قتل هذين اليهوديين اللذين كانا يحرّضان النّاس ضد محمّد، وتذكر المصادر أنّه بقتل عصماء بنت مروان ظهر دينه في بني خطمة[7].

تفاجأ اليهود بما آلت إليه واقعة بدر، وأدركوا من خلال هذه الواقعة أنّ أمر محمّد في تعاظم، وكان كعب بن الأشرف من أبرز الخاسرين من انتصار أتباع محمّد يوم بدر. ينحدر كعب بن الأشرف من قبيلة طيء من جهة أبيه، ويُنسب إلى قبيلة أمّه النّضير، وكان «شاعراً مجيداً، وقد كان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، وكان يعطي

---

(١) الرازي: **تاريخ مدينة صنعاء**، ج ١٥، ص ١٨٢.

(٢) المقريزي: **إمتاع الأسماع...**، ج ١، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٧٢.

(٤) نفسه، ج ١، ص ١٧٣.

(٥) نفسه، ج ١، ص ١٧٤.

(٦) نفسه، ج ١، ص ١٧٥.

(٧) نفسه، ج ١، ص ١٧٤.

أحبار اليهود ويصلهم...»[1]. كان سيّد يهود الحجاز من أصحاب الأموال، وكان من حكّام يثرب يتولّى الحكم بين النّاس، وواصل فريق من الأنصار الاحتكام إليه بعد قدوم محمّد إلى يثرب: «نازع رجل من المنافقين رجلاً من اليهود، فقال اليهودي: بيني وبينك أبو القّاسم، وقال المنافق: بيني وبينك كعب بن الأشرف»[2]. أدرك كعب بن الأشرف بعد واقعة بدر أنّ لا طاقة له على مواجهة محمّد الذي تعاظم نفوذه في يثرب، فسعى إلى تكوين تحالف بين قريش واليهود لمواجهة خصمه القويّ، فذهب إلى مكّة، وحرّض أهلها على الثّأر من محمّد، وبكى قتلى قريش يوم بدر، ورثاهم في قصائد عديدة أشهرها قصيدته التي مطلعها:

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ ... وَلِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وَتَدْمَعُ[3]

بكى كعب بن الأشرف قتلى قريش يوم بدر، ووعد سادة مكّة أن ينصرهم يهود يثرب في حربهم ضد أتباع محمّد، وكان محمّد على علم بما كان يفعله خصمه في مكّة، فتحرّك بصورة سريعة لإجهاض كلّ تحالف بين قريش واليهود، واختار أن تكون وجهته إلى بني قينقاع لأسباب عديدة منها أنّهم ينزلون وسط يثرب بين عشائر الأوس والخزرج، وهذا ما يجعلهم يشكّلون خطراً كبيراً على أتباعه متى تحالفوا مع قريش وكانوا حلفاء لعبد اللّه بن أُبي بن سلول، سيّد المنافقين وأبرز المعارضين لتنامي نفوذ محمّد في يثرب.

كان محمّد يدرك أنّ المعركة القادمة ضدّ قريش ستكون ضارية تستدعي منه استنفار جميع أتباعه، وخاف أن يستغل بنو قينقاع غياب أتباعه من المقاتلين عن يثرب ويغيروا على النّساء والأطفال. جاء في النّص القرآني: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ» (الأنفال ٨/ ٥٩). كانت مصلحة أتباع محمّد الملحّة تقتضي إخراج هؤلاء اليهود من يثرب، واغتنم محمّد حادثة انتهاك عرض إحدى نساء العرب في سوق بني قينقاع على يد بعض رجالهم، وأعلن عليهم الحرب: «كان من أمر بني قينقاع أنّ امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصّائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها، فلمّا قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصّائغ فقتله، وكان يهوديّاً،

(١) علي الحلبي: **السيرة الحلبية**، م ٧٣، ص ٢٢٣.
(٢) الرّازي: **تاريخ مدينة صنعاء**، ج ١٠، ص ١٥٣.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٨٥.

فشدّت اليهود على المسلم، فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود، فغضب المسلمون، فوقع الشّر بينهم وبين بني قينقاع»[١]. إذن تذّرع محمّد بحادثة المرأة، وأعلن الحرب على بني قينقاع.

تذكر المصادر أنّ بني قينقاع كانوا قادرين على حشد سبعمائة مقاتل، ولكنّهم لم يظهروا أيّة مقاومة ضد أتباع محمّد «ولزموا حصنهم، فما رموا بسهم، ولا قاتلوا»[٢]. وخُيّروا بعد خمسة عشر يوماً من الحصار الاستسلام والنّزول على حكم أتباع محمّد، وتذكر مصادر عديدة أنّ محمّداً كان ينوي تنفيذ قتل جماعي لرجالهم، ومنعه من ذلك حليفهم وسيّد المنافقين عبد اللّه بن أبي بن سلول، فاكتفى بإخراجهم من يثرب، وأخذ أموالهم، وكلّف عبادة بن الصّامت أحد أسياد الخزرج بإجلائهم، وأمهلهم ثلاثة أيّام، وبعد مضيّ هذه المدّة غادر بنو قينقاع يثرب من دون أن يتمكّنوا من جمع كلّ ما كان لهم من ديون على النّاس: «فقالت قينقاع: يا محمّد، إنّ لنا ديناً على النّاس، قال النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم: تعجّلوا، وضعوا. وأخذهم عبادة بالرّحيل والإجلاء»[٣]. وغنم أتباع محمّد منهم منازل وسلاحاً وفيراً «وآلة للصّياغة»[٤]. أقام يهود يثرب المطرودون مدّة قصيرة بوادي القرى، «وحملت يهود وادي القرى من كان راجلاً منهم وقوّوهم»[٥]، ثم ساروا إلى عمق بلاد الشّام.

لم يُبدِ بنو قينقاع مقاومة قويّة لأتباع محمّد، وكانت كلّ آمالهم معقودة على حلفائهم من الخزرج، ولم يستنصروا بني النّضير وبني قريظة الذين لم يبدوا أيّ استعداد لنصرة إخوتهم في الدّين، وامتنع يهود يثرب عن نصرة قريش في حربهم ضدّ محمّد، ولم يستجيبوا لدعوة أبي سفيان الذي قدم إليهم بعد أن زيّن له كعب بن الأشرف ذلك ووعده أن ينصره اليهود. قدم فرسان قريش إلى بني النّضير، وحاولوا النّزول عند حيي بن أخطب، فرفض ذلك، فنزلوا عند سلاّم بن مشكم «فقراهم، وسقى أبا سفيان بن حرب خمراً، وأخبره من أخبار النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم»[٦]. أحسن سلاّم بن مشكم ضيافة رجال قريش، ولم يستجب لطلبهم بنصرتهم ضد محمّد، فاكتفوا بشنّ غارة خاطفة ضد عدد من أتباعه، فقتلوا أحد الأنصار، وحرقوا ممتلكات، وعادوا إلى مكّة.

حاول كعب بن الأشرف تكوين تحالف بين قريش ويهود يثرب لمحاربة أتباع

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٣٤٠.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٧٨.
(٣) نفسه، ج ١، ص ١٧٩.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٧٩.
(٥) نفسه، ج ١، ص ١٨٠.
(٦) نفسه، ج ١، ص ١٨١.

محمّد، وقام بتحريض النّاس على محمّد، وسخّر إمكانياته المادية لحربه، وسعى إلى النّيل منه وإظهار الاستهانة به. كان كعب بن الأشرف يدرك أنّ نجاح محمّد يعود في أحد أسبابه إلى نفوذه الشّخصي وإلى ما له من مكانة متميّزة في نفوس أتباعه، فسعى إلى إهانته، فأخذ يشبّب ببعض قريباته ويذكرهن في أشعاره[1] وأفحش في غزله، «... وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: من لي بابن الأشرف فقد آذاني»[2].

آذى كعب بن الأشرف محمّداً قائداً سياسيّاً وإنساناً، فطلب محمّد من أتباعه قتله، فتطوّع لذلك نفر من الأنصار، وكانوا من الأوس حلفاء بني النّضير، وتذكر المصادر أنّ أبا نائلة ومحمّد بن مسلمة اللّذين شاركا في قتله كانا أخوين له من الرّضاعة. تظاهر أبو نائلة بأنّه نادم على اعتناقه دين محمّد ودخوله في غمار أتباعه، وشكا إلى كعب بن الأشرف ما أصبح عليه من الخصاصة، واتّفق معه أن يبتاع منه مع نفر من أصحابه طعاماً، ويرهنوه السّلاح، وفي اللّيل قدم أبو نائلة مع أصحابه إلى سيّد يهود الحجاز لإتمام ما تمّ الاتّفاق عليه، فخرج لهم من حصنه، فقاموا بقتله: «... قال محمّد بن مسلمة: فذكرت مغولاً معي كان في سيفي، فانتزعته، فوضعته في سرّته، ثمّ تحاملت عليه، فقطعته حتّى انتهى إلى عانته...»[3]. قام أبو نائلة ورفاقه بقتل كعب بن الأشرف، وأخذوا رأسه إلى محمّد، تمّ ذلك على رأس خمسة وعشرين شهرا للهجرة حسب أكثر الرّوايات انتشاراً، وقريباً من هذا الزمن قام بعض أتباع محمّد بقتل ابن سنينة، وهو «رجل من تجّار يهود»[4]. وكان حليفاً لبني حارثة إحدى عشائر الأوس، وتولى قتله أحد حلفائه.

بدأ محمّد بعد واقعة بدر في قتل أسياد يهود يثرب الذين كانوا يحرّضون النّاس عليه ويعارضون تنامي نفوذه في يثرب ويشكّلون سنداً لخصمه القويّ عبد اللّه بن أُبي بن سلول سيّد المنافقين ويعملون على إحداث فتنة بين أتباعه عبر إثارة النزاعات القديمة والعصبيات القبليّة. وتذكر المصادر أنّه بعد قتل كعب بن الأشرف «حذرت اليهود، وذلّت»[5]، ولم يثأر بنو النّضير لقتل سيّدهم، وخافوا محمّداً.

ما تذكره المصادر عمّا فعله يهود يثرب يوم أحد يكتنفه غموض كبير. تذكر مصادر عديدة أنّه لمّا كان محمّد وأتباعه في طريقهم إلى أُحد للقاء جيش أهل مكّة

---

(١) أبو زيد القرشي: **جمهرة أشعار العرب**، م ١، ص ٣٢.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٨٧.

(٣) نفسه، ج ١، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٩٢.

لحقت بهم «كتيبة خشناء لها زجل»[1] وتضمّ هذه الكتيبة حلفاء عبد اللّه بن أُبي من اليهود الذين قدموا لنصرة حليفهم، فرفض محمّد الاستعانة بهم، فعادوا إلى يثرب. لا تحدّد المصادر الانتماءات القبليّة لحلفاء عبد اللّه بن أُبي من اليهود الذين قدموا لنصرته، والاحتمال الأرجح أنّ هذه الكتيبة تتكوّن من يهود الأوس ويهود الخزرج، ومن المستبعد أن تكون وافرة العدد. والظاهر أنّ هؤلاء اليهود خرجوا لنصرة حليفهم في صراعه على السّيادة، ولهذا رفض محمّد الاستعانة بهم على مواجهة قريش، فعادوا إلى يثرب، ولحق بهم بعد ذلك عبد اللّه بن أبي مع أتباعه، وتذكر المصادر أنّ مخيريق قاتل مع أتباع محمّد يوم أُحد وقُتل، و«كان حبراً عالماً، وكان رجلاً غنيّاً كثير الأموال من النّخل»[2] وأوصى بماله إلى محمّد، ومن الممكن أنّ يكون مخيريق لم يفارق اليهوديّة.

انتهت واقعة أُحد بهزيمة أتباع محمّد، وكان عبد اللّه بن أبي وأتباعه من المنافقين ويهود يثرب أبرز المستفيدين من هذه الهزيمة، واستغلّ سادة يهود يثرب ما جرى في واقعة أحد لحثّ أبناء الأوس والخزرج على ترك دين محمّد والانفضاض من حوله. وبعد هذه الواقعة بمدّة زمنيّة قصيرة أصيب عدد من أتباع محمّد في واقعة الرّجيع وواقعة بئر معونة، وتذكر المصادر أنّ بني عامر بن صعصعة الذين شارك عدد منهم في قتل أتباع محمّد في واقعة بئر معونة كانوا حلفاء لبني النّضير، ولهذا ذهب محمّد إلى هؤلاء اليهود ليساعدوه في دفع ديّة رجلين من بني عامر بن صعصعة قتلهما عمرو بن أميّة الضّمري في طريق عودته من بئر معونة. لا تحدّد المصادر ما إذا كان محمّد طالب بني النّضير بإعانته لدفع الديّة بمقتضى اتّفاق بينه وبينهم أم أنّه كان ينتظر منهم معروفاً ومروءة.

استغلّ بنو النّضير قدوم محمّد في جمع من أصحابه إليهم، ودبّروا محاولة لقتله. تذكر الرّواية الأكثر انتشاراً أنّهم كلّفوا أحد رجالهم بإلقاء صخرة عليه من فوق أحد الحصون: «... ثمّ خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنّكم لن تجدوا الرّجل على مثل حاله هذه. ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد. فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحّاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان اللّه عليهم، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الخبر من السّماء بما أراد القوم، فقام،

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٢١٥.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١١٥.

وخرج راجعاً إلى المدينة»[1]. وتذكر الرّواية الثانية أنّ بني النّضير استغلّوا قدوم محمّد إلى ديارهم، و«اشتملوا على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النّضير إلى بني أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النّضير من الغدر برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم»[2].

لا شكّ في أنّ الرّواية الثّانية رغم قلّة ورودها في المصادر هي الأقرب إلى منطق الأشياء، ولا شكّ في أنّ لمحمّد أسباباً كثيرة بالإضافة إلى محاولة قتله لإعلان الحرب على بني النّضير، فهم يشكّلون سنداً مهمّاً لخصمه القويّ عبد اللّه بن أُبيّ ومن معه من المنافقين الذين زادت أعدادهم بعد واقعة أُحد ويهيمنون على معظم موارد يثرب الاقتصاديّة بينما كان أغلب أتباع محمّد من المهاجرين يعيشون في الفقر والخصاصة.

أرسل محمّد إلى بني النضير يطلب منهم مغادرة يثرب ولهم كلّ أملاكهم، وأعطاهم مهلة عشرة أيّام[3]، فقبلوا ذلك «... فمكثوا على ذلك أيّاماً يتجهّزون»[4]. وبينما هم كذلك أرسل إليهم عبد اللّه بن أُبي يطلب منهم أن يقيموا في حصونهم، ويعدهم بأنّه سينصرهم ويقاتل معهم مع جمع غفير من أتباعه، فاستجابوا لطلبه، وتراجعوا عن قبول ما طالبهم به محمّد، ودخلوا حصونهم التي كانت لهم فيها منابع مياه وكمّية وفيرة من الطّعام[5]. أعلن محمّد الحرب عليهم، وقام بحصارهم، ولم يف عبد اللّه بن أُبي بما وعدهم به، ولم يستطع أن يمنع أبناء الأوس والخزرج من الاستجابة لدعوة محمّد والمشاركة في حربهم، ولم ينصر بنو قريظة بني النّضير، ولم ينصرهم حلفاؤهم من الأعراب.

جرى بين أتباع محمّد وبني النّضير قتال قليل سقط فيه عدد من بني النّضير قتلى[6]، ووجد أتباع محمّد صعوبة في اقتحام الحصون فأخذوا يقطعون النّخيل. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن هذه الواقعة: «مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ» (الحشر ٥٩/٥). وكان لقطع النّخيل تأثير شديد في بني النّضير، «فلمّا قطعت العجوة شقّ النّساء الجيوب، وضربن

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ١٤٣.

(٢) عبد الرّزاق الصّنعاني: **المصنف**، ج ٥، ص ٣٥٩.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٦٧.

(٤) نفسه، ج ١، ص ٣٦٧.

(٥) نفسه، ج ١، ص ٣٦٨.

(٦) نفسه، ج ١، ص ٣٧٢.

الخدود، ودعون بالويل...»[١]. جزع بنو النضير، و«... أرسل حُيي إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: يا محمّد، إنّك كنت تنهى عن الفساد، لِمَ تقطع النخل ؟ نحن نعطيك الذي سألت، ونخرج من بلادك»[٢]. لم يقبل محمّد برحيل بني النضير من يثرب، وطلب منهم التّنازل عن أراضيهم، فرفضوا طلبه ليوم أو ليومين، ثمّ اختاروا الاستسلام والقبول بالخروج من يثرب ولهم من المال ما حملت الإبل إلا الحلقة، واختارت عناصر قليلة منهم الدّخول في دين محمّد وحفظ أموالها[٣].

أخذ بنو النّضير يتجهّزون للرّحيل، وجمعوا كلّ ما يستطيعون جمعه من أموالهم، وخرّبوا بيوتهم، وأبطل محمّد أرباح ديونهم على النّاس، «فقالوا: إنّ لنا ديوناً على النّاس إلى آجال، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: تعجّلوا، وضعوا. فكان لأبي رافع سلاّم بن أبي الحقيق على أسيّد بن حضير عشرون ومائة دينار إلى سنة، فصالحه على أخذ رأس ماله ثمانين ديناراً، وأبطل ما فضل...»[٤].

كان بنو النّضير أعزّ يهود يثرب وأكثرهم مالاً وأوفرهم عدداً، ومثّل طردهم من يثرب نصراً كبيراً لمحمّد، استعاد ثقة أتباعه بعد أن توالت عليهم الهزائم في أحد وبئر معونة والرّجيع، وحصل على أموال كثيرة استعملها للإنفاق على المهاجرين حتى لا يبقوا عالة على الأنصار وللإنفاق على شؤون أتباعه العامة وعلى آل بيته. جاء في النّص القرآني حول واقعة طرد بني النّضير من يثرب: «سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. هُوَ الذِي أَخْرَجَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِم الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ» (الحشر ٥٩/ ١ ـ ٢).

رحل بنو النّضير عن يثرب، ورحل معهم فريق من يهود الأوس ويهود الخزرج من عشائر أوس مناة خاصة، وحرص اليهود على إخفاء أحزانهم وهم يخرجون من ديارهم، وأظهروا الخيلاء والزّهو: «... استقلّوا بالنّساء والأبناء والأموال معهم الدّفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم»[٥]. وانقسم اليهود المطرودون من يثرب إلى قسمين: قسم أوّل اتّجه إلى الشّام وقسم ثان ذهب إلى خيبر. وانطلاقاً من خيبر واصل اليهود أنشطتهم المعادية لمحمّد، واستطاعوا أن يجمعوا النّاس لحربه في واقعة الخندق.

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٧٣.
(٢) نفسه، ج ١، ص ٣٧٣.
(٣) نفسه، ج ١، ص ٣٧٣.
(٤) نفسه، ج ١، ص ٣٧٤.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٤٤.

لم يشارك بنو قريظة في جمع النّاس لحرب محمّد، وأعانوا أتباعه في حفر الخندق بإعارتهم المساحي والكرازين والمكاتل[1]. ونجح حيي بن أخطب أحد أسياد بني النّضير في دفع عدد من أسياد بني قريظة إلى تغيير موقفهم من محمّد والخروج عن موقف الحياد الذي التزموا به. ومن المرجّح أنّ عظمة جيش الأحزاب كانت دافعاً قويّاً ليهود يثرب لنقض عهدهم مع محمّد، إذ اعتقدوا بعد أن رأوا الأحزاب أنّ لا أمل لمحمّد وأتباعه في النّجاة.

مزّق بنو قريظة كتابهم مع محمّد، ونقضوا عهدهم معه، ولم يشاركهم في ذلك عمرو بن سعدى أحد أسيادهم، وخرج عنهم. ولمّا تناءى خبرهم إلى محمّد أرسل إليهم نفراً من كبار أصحابه على رأسهم سيّد الأوس سعد بن معاذ، «... فناشدوهم اللّه والعهد الذي كان بينهم أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل أن يلتحم الأمر»[2]. رفض سادة اليهود ما طالبهم به حلفاؤهم «ونالوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ومن المسلمين أقبح الكلام، وشتموا سعد بن عبادة شتماً قبيحاً حتّى أغضبوه»[3]. وانتهى الخبر إلى أتباع محمّد بنقض بني قريظة عهدهم «ونجم النّفاق، وفشل النّاس، وعظم البلاء، واشتدّ الخوف، وخيف على الذّراري والنّساء...»[4].

شكّل بنو قريظة بحكم موقعهم خطراً كبيراً على أتباع محمّد الذين وجدوا أنفسهم محاصرين من كلّ الجهات. جاء في النّص القرآني: «إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ» (الأحزاب ٣٣/ ١٠). خاف أتباع محمّد المرابطون على الخندق من أن يأتيهم بنو قريظة من خلفهم إلى النّساء والذّراري، وعمل يهود يثرب على تخذيل أتباع محمّد من الأوس والخزرج عن القتال معه، وارتفعت أصوات المنافقين مشكّكة في صدق وعوده، واضطرّ محمّد إلى تكليف قسم من أتباعه بترك أماكنهم عند الخندق والمرابطة من جهة بني قريظة، وجرى بين الفريقين قتال قليل: «... خرج نبّاش بن قيس ليلة من حصنهم يريد المدينة ومعه عشرة من اليهود من أشدّائهم وهم يقولون: عسى أن نصيب منهم غرّة. فانتهوا إلى بقيع الغرقد، فيجدون نفراً من المسلمين من أصحاب سلمة بن أسلم بن حريش، فناهضوهم، فراموهم ساعة بالنّبل، ثمّ انكشف القرظيون مولّين»[5]. لم يخرج بنو قريظة بوفرة لقتال أتباع محمّد، واكتفوا بإرسال مجموعات صغيرة لم تقو على الثّبات، وتناءى إليهم خبر قبول أسياد غطفان عرض محمّد أن يعطيهم ثلث ثمار

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٤٥.
(٢) نفسه، ج ٢، ص ٤٥٨.
(٣) نفسه، ج ٢، ص ٤٥٨.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ٤٥٩.
(٥) نفسه، ج ٢، ص ٤٦٢.

يثرب مقابل أن يرجعوا عنه، ففقدوا الثّقة في قريش والأعراب، وطالبوهم بعدد من الرّجال رهائن. وكان ذلك أحد أسباب انفضاض الأحزاب بالإضافة إلى الدّور الذي قام به نعيم بن مسعود الأشجعي "صديق بني قريظة" في تخذيل النّاس عن حرب محمّد وبثّ الرّيبة والشّك في نفوس مختلف مكوّنات الأحزاب .

رحل أهل مكّة والأعراب عن يثرب بعد حصار امتدّ عدّة أسابيع، ولم ينتظر محمّد كثيراً بعد انفضاض الأحزاب، وسار إلى بني قريظة الذين احتموا بحصونهم، وجرت بين الفريقين مواجهات قليلة أسفرت عن سقوط قتيلين من أتباع محمّد، واختار فريق من بني هدل حلفاء بني قريظة الدّخول في دين محمّد[1] . ولم يستطع اليهود أن يصمدوا كثيراً، وأرسلوا إلى محمّد يعرضون عليه أن يرحلوا عن يثرب ويحقن دماءهم، فرفض عرضهم، وطالبهم بالنّزول على حكمه، فبعثوا إليه «... أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إليهم، فلمّا رأوه قام إليه الرّجال، وجهش إليه النّساء والصبيان يبكون في وجهه، وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمّد ؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، إنّه الذّبح...»[2]. رغم تحذير حليفهم لم يستطع بنو قريظة أن يصمدوا كثيراً، ونزلوا على حكم محمّد، وعوّلوا على حلفائهم من الأوس لتخفيف حكمه فيهم.

قام أتباع محمّد بشدّ وثاق رجال بني قريظة، وفصلوهم عن النّساء والذّراري، وفوّض محمّد أمر الحكم عليهم إلى سعد بن معاذ الذي أصيب في واقعة الخندق إصابة بليغة واشتدّ به الألم. لم يتحقّق ما توقّعه بنو قريظة، إذ لم يكن سيّد حلفائهم رحيماً بهم، إذ «قال سعد: فإنّي أحكم فيهم أن يقتل من جرت عليه الموسى وتُسبى النّساء والذّرّية وتقسم الأموال»[3]. وتجمع المصادر على أنّ ما حكم به سيّد الأوس جرى تنفيذه، ولم تستثن من القتل سوى عناصر قليلة لم تشارك في نقض بني قريظة عهدهم مع محمّد أو شفع لها بعض أتباعه. جاء في النّص القرآني: «وَأَنْزَلَ الذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا» (الأحزاب ٣٣/٢٦).

رفض معظم رجال بني قريظة ترك اليهوديّة، وفضّلوا الموت على الدّخول في دين محمّد: «... وقد قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حين طلع: ألم يُمكن

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٢٥٨.
(٢) نفسه، ج ٣، ص ١٩٢.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥١٢.

اللّه منك يا عدوّ اللّه ؟ قال: بلى، واللّه ما لمت نفسي في عداوتك، ولقد التمست العزّ في مكانه، وأبى اللّه إلاّ أن يمكّنك منّي (...) ثمّ أقبل على النّاس، فقال: يا أيّها النّاس، لا بأس بأمر اللّه قدر وكتاب، ملحمة كُتبت على بني إسرائيل...»[1]. وتختلف الرّوايات حول عدد رجال بني قريظة الذين جرى قتلهم، وتتراوح الأعداد المقدّمة بين أربعمائة وتسعمائة قتيل[2]. وأخذ أتباع محمّد من بني قريظة غنائم عظيمة وسلاحاً كثيراً[3]. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن هذه الواقعة: «وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا» (الأحزاب ٣٣/ ٢٧).

اصطفى محمّد لنفسه من نساء بني قريظة ريحانة بنت عمرو، وأخذ خُمس أموالهم وقسّم بقيّتها بين أتباعه من المهاجرين خاصة. وبعد هذه الواقعة اختار أبناء أوس مناة الدّخول في دين محمّد، فأصبحت يثرب خالصة له، واقتصر وجود اليهود فيها على أفراد ومجموعات صغيرة غير فاعلة في صنع الأحداث العامة. ومن المرجّح أنّه بعد واقعة بني قريظة أرسل محمّد إلى أتباعه في الحبشة، وحثّهم على القدوم إلى يثرب التي زال عنها كلّ خطر يمكن أن يهدّد الكيان الإسلامي.

تذكر المصادر أنّ يهود يثرب الذين عاشوا زمن نبوّة محمّد كانوا يتوكّفون ظهور نبيّ قد أطلّ زمانه وكانوا يحدّثون العرب بذلك ويذكرون لهم بعض صفاته. وتجمع المصادر على أنّ أحبار اليهود كانوا يعرفون أن مَحمّداً نبيّ وجحدوا ذلك بغياً وعناداً وحقداً على الأميين (أي الأغيار) الذين أكرمهم اللّه بجعل النّبوّة بينهم ولم يجعلها من بني إسرائيل. من المرجّح أنّ الهدف من هذه الأخبار الموضوعة هو إثبات صدق نبوّة محمّد وإثبات لؤم اليهود الذين عادوه رغم إدراكهم أنّه نبيّ.

لم يدخل أغلب يهود يثرب في دين محمّد، ولم يشكّل دينه خطراً على اليهوديّة. وعادى اليهود محمّداً لأسباب اقتصاديّة واجتماعيّة، إذ كانوا يسيطرون على يثرب اقتصاديّا زمن قدومه إليها. فقد كان لهم القسم الأكبر من منابع المياه والتّربة الصّالحة للزّراعة، كما اشتهرت يثرب بكثرة نخيلها وجودة تمورها وإنتاج الشّعير، وكانت تنتج كمّيات جيّدة من خمر البسر. وكان أسياد اليهود أصحاب الخمّارات ودور البغاء فيها، وكانوا صيارفة ومرابين ولهم على النّاس ديون كثيرة. وكانوا يسيطرون على تجارتها

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٥١٣ ـ ٥١٤.

(٢) Arafat (W): «New light on the story of banu Qurayza and the Jews of Medina», *J R A S*, N° 2, 1976, p. 100.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥١٠.

الدّاخليّة التي كانت تجري في سوق بني قينقاع، وكان لهم خراج هذه السوق، وهيمنوا على صناعة الأسلحة والصّياغة. وكانت أكثر حصون يثرب لليهود رغم أنّهم لم يكونوا الأكثريّة. وبفضل مكانتهم الاقتصاديّة سيطر سادة اليهود على يثرب اجتماعيّاً، فكانوا حكّامها يتولّون فضّ النّزاعات بين النّاس ويحكمون بينهم، وكان ذلك مصدر دخل جيّد لهم. جاء في النّص القرآني: «وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ وَ تُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (البقرة ٢/ ١٨٧).

كان اليهود يسيطرون على يثرب اقتصاديّاً واجتماعياً، وكان عدد كبير من أتباع محمّد أجراء عندهم، وكان بعض أتباعه عبداً عند اليهود مثل سلمان الفارسي، وكانت على عدد غير قليل من أتباع محمّد ديون لأسياد يهود يثرب، وكان على محمّد بعد وصوله إلى يثرب أن يتدبّر موارد رزق لأتباعه من المهاجرين الذين ما فتئوا يتكاثرون. اشتغل المهاجرون بأنشطة زراعيّة تابعة لليهود، وشاركوا في أنشطة يثرب التّجاريّة الدّاخليّة التي كانت تجري في سوق بني قينقاع، ونظّموا رحلات تجاريّة كبرى إلى الشّام، وأصبحت التّجارة مشغلاً رئيسيّاً لهم. جاء في النّص القرآني: «يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (الجمعة ٦٢/ ٩). واستطاع أتباع محمّد من أهل مكّة بفضل خبرتهم التّجاريّة أن يطوّروا نصيبهم من أنشطة يثرب التّجاريّة: «عن أنس بن مالك قال: لمّا هاجر عبد الرحمن بن عوف من مكّة إلى المدينة نزل على سعد بن الرّبيع في بلحارث بن الخزرج، فقال له سعد بن الرّبيع: هذا مالي فأنا أقاسمكه، ولي زوجتان فأنا أنزل لك عن إحداهما. فقال: بارك اللّه لك، ولكن إذا أصبحت فدلّوني على سوقكم، فدلّوه. فخرج، فرجع معه بحميت من سمن وأقط قد ربحه»[1]. وأدّت مشاركة أتباع محمّد في أنشطة يثرب التّجاريّة إلى مواجهتهم مع اليهود، فوقعت خصومات بين الفريقين في سوق بني قينقاع[2]. وبهدف إنهاء هيمنة اليهود على تجارة يثرب استحدث محمّد سوقاً جديدة، وجعلها بدون خراج[3]. وحاول بعض أسياد اليهود أن يحول دون ذلك، إذ «ضرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قبّته في موضع بقيع الزّبير، فقال: هذا سوقكم. فأقبل كعب بن الأشرف، فدخلها، وقطع أطنابها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: لا جرم لأنقلنّها إلى موضع هو أغيظ له من هذا، فنقلها إلى موضع سوق المدينة»[4].

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٣، ص ١٢٥.
(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٢٥.
(٣) ابن ماجة: **السّنن**، ج ٢، ص ٧٥١.
(٤) السّمهودي: **وفاء الوفاء. .**، ج١، ص ٥٤٠.

استطاع المهاجرون أن يوسّعوا نصيبهم من تجارة يثرب الدّاخليّة، وكان ذلك على حساب اليهود. وبسبب تعويل بني قينقاع على الحرف والتّجارة في تحصيل معاشهم كانوا أوّل يهود يثرب تصادماً مع محمّد[1]. وجاء القرآن بتحريم الرّبا والخمر اللّذين يمثّلان مصدر دخل جيّد لأسياد اليهود. جاء في النّص القرآني: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا. وَأَخْذِهِمْ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا للكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (النّساء ٤/ ١٦٠ ـ ١٦١).

كان أسياد اليهود يسيطرون على ثروات يثرب، وبقدوم محمّد فقدوا بعض مصادر رزقهم، ولهذا قاموا بمعاداته. وبفضل ثروتهم كانت لسادة اليهود المكانة العليا في يثرب، إذ تولّوا لعب دور الحكّام بين النّاس، وكانوا يستفيدون من ذلك ماديّاً. وأدّى قدوم محمّد إلى تراجع مكانتهم الاجتماعيّة، فمع انتشار دين محمّد في يثرب بدأ أبناء الأوس والخزرج يحتكمون إليه، فكان ذلك سبباً آخر لمعاداة أسياد اليهود له.

تزعّم حركة يهود يثرب المعادية لمحمّد عدد من الرّؤساء الذين كانوا في معظمهم من الأحبار وأصحاب الأموال، «وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ويتعنّتونه ويأتونه باللّبس، ليلبسوا الحق بالباطل...»[2]. وكان رؤساء اليهود يتمتّعون بدعم أتباعهم وطاعتهم: «عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: لو آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِن اليَهُودِ لآمَنَ بِي اليَهُودُ»[3]. وقف رؤساء يهود يثرب بأتباعهم عن دين محمّد، وجادلوه، وعملوا على فتنة أتباعه دينيّاً وسياسيّاً.

لم يواجه يهود يثرب محمّداً بصورة جماعيّة، فعندما بدأ أتباعه باستهداف عناصر يهوديّة تنتمي إلى الأوس والخزرج لم يقم بقيّة اليهود بأيّ ردّ فعل جماعيّ على ذلك، ولم تتوحّد التّجمّعات اليهوديّة الكبرى (قينقاع، النّضير، قريظة) لمواجهة محمّد، وواجهته كلّ مجموعة بمفردها، ولم يستطع يهود يثرب تجاوز ما بينهم من ضغائن وعداوات للتّوحّد ضده. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن اليهود: «... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ» (الحشر ٥٩/ ١٤). ولم

---

(١) Donner (F): «Muhammed's political consolidation in Arabia up to the conquest of Mecca», *The Muslim World* (U S A), vol LXIX, N° 4, 1979, p. 232.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١١٣.

(٣) البخاري: **الصحيح**، م ٣، ج ٥، ص ١٧٥.

يظهروا براعة في القتال، جاء في النّص القرآني: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أَذَى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ» (آل عمران ٣/١١١). ولم يظهروا شجاعة في ساحة القتال: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ...» (البقرة ٢/٩٦). وغلب عليهم الخوف والذعر، ولم يكن لهم رغبة في القتال واستعداد للتضحية: «... وقال: أخبرني عمّي عمّن رأى كنانة بن أبي الحقيق يرمي بثلاثة أسهم في ثلاثمائة، يعني ذراع، فيدخلها في هدف شبراً في شبر، فما هو إلاّ أن قيل: هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قد أقبل من الشّق في أصحابه، وقد تهيّأ أهل القموص وقاموا على باب الحصن بالنّبل، فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يوترها من الرّعدة...»[1]. ولم يواجه يهود يثرب أتباع محمّد مواجهة مباشرة، واحتموا بحصونهم. جاء في النّص القرآني: «لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ...» (الحشر ٥٩/ ١٤). كان يهود يثرب تجّاراً ماهرين وصيارفة وحرفيين ومزارعين، ولم يكونوا أصحاب حرب، ولم تكن لهم مشاركة مهمّة في أيّام العرب، ولم تكن لهم تقاليد حربيّة تُذكر، وعوّلوا على حلفائهم من الأوس والخزرج لحمايتهم، ولم يشكّلوا تهديداً عسكريّاً قويّاً لمحمّد.

كانت طريقة يهود يثرب في معاداة محمّد محكومة بعدّة معطيات تشمل طبيعة حياتهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة وخصائص علاقتهم بالأوس والخزرج وبعدد من القبائل البدويّة. كانوا يتوزّعون على عدّة قبائل بينها تاريخ طويل من العداوات والأحقاد. جاء في النّص القرآني: «ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَ العُدْوَانِ...» (البقرة ٢/ ٨٥). تقاتل يهود يثرب حول المساحات الصّغيرة الصّالحة للزّراعة ومنابع المياه، ولم تكن لهم نفس أحكام الديّة، ومن المرجّح أنّ اليهود من أصول عبريّة كانت لهم منزلة أرفع من اليهود الذين ينحدرون من أصول عربيّة. كان بنو النّضير وبنو قريظة حلفاء للأوس، وكان بنو قينقاع حلفاء للخزرج، وشارك حلفاء الأوس في آخر حروب يثرب الدّاخليّة، وأمعنوا القتل في الخزرج وقاموا دون الأوس بسلبهم: «... ووضعت الأوس السّلاح، فصاح صائح: يا معشر الأوس، أحسنوا، ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثّعالب، فانتهوا عنهم، ولم يسلبوهم، وإنّما سلبهم قريظة والنّضير»[2].

لم ينس الخزرج ما فعله بهم بنو قريظة وبنو النّضير، وكان دخولهم بكثافة في

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٦٧٠.

(٢) ابن الأثير: **الكامل في التّاريخ**، م ١، ص ٦٨١.

دين محمّد في إحدى غاياته لتصفية حسابات قديمة مع أولئك اليهود. ولم يكن أغلب مشركي يثرب وخاصة من أبناء الخزرج راضين عن سيطرة اليهود على مواردها الاقتصاديّة، فالرّغبة في طرد اليهود من هذه القرية وأخذ أموالهم رغبة قديمة في نفوس عدد كبير من العرب، وهذا عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي يقول لقومه بني بياضة: «إنّ أباكم أنزلكم منزلة سوء، واللّه، لا يمسّ رأسي ماء حتّى أنزلكم منازل قريظة والنّضير أو أقتل رهنهم...»[1].

تعامل فريق من عرب يثرب مع اليهود المقيمين فيها على أنّهم عناصر دخيلة وأنّ اليهوديّة دين غريب، فتمسّكوا بالوثنيّة دين العرب الرّسمي رغم شعورهم بأنّها دون اليهوديّة، وكانوا الأسرع إلى اعتناق دين محمّد، وكانت لهم رغبة قويّة في عدم التّشبّه باليهود، فتوجّه بعضهم في صلاته إلى الكعبة عندما كان محمّد يتوجّه إلى بيت المقدس، «قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلّينا وفقّهنا، ومعنا البرّاء بن معرور سيّدنا وكبيرنا، فلمّا وجّهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البرّاء لنا: يا هؤلاء إني قد رأيت رأياً، واللّه ما أدري أتوافقونني عليه أم لا ؟ قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألاّ أدع هذه البنيّة منّي بظهر (يعني الكعبة) وأن أصلّي إليها، قال: فقلنا: واللّه ما بلغنا أنّ نبيّنا صلّى اللّه عليه وسلّم يصلّي إلاّ إلى الشّام، وما نريد أن نخالفه، فقال: إنّي لمُصلّ إليها، قال: فقلنا له: لكنّا لا نفعل. قال: فكنّا إذا حضرت الصّلاة صلّينا إلى الشّام وصلّى إلى الكعبة حتى قدمنا مكّة، قال: وقد كنّا عبنا عليه ما صنع، وأبى إلاّ الإقامة على ذلك...»[2]. وتوفّي البرّاء بن معرور وقبلة أتباع محمّد إلى بيت المقدس، وأوصى قبل وفاته أن يوجّهوه في قبره إلى مكّة[3]. كان عرب يثرب، من الخزرج خاصة، يكنّون عداء لليهود، ولذلك لم يستجيبوا لعبد اللّه بن أبي عندما دعاهم لنصرة يهود يثرب ضد محمّد، ولم يقم حلفاؤهم من الأعراب بأيّ شيء لنصرتهم، فعلاقة الأعراب بيهود يثرب كانت علاقة محكومة في جزء كبير منها بالمصلحة الماديّة، ولهذا لم يجد الأعراب حرجاً في عدم نصرة حلفائهم وتغيير نظام تحالفاتهم.

لم تكن اليهوديّة في يثرب زمن نبوّة محمّد مجرّد عقيدة، ولم تكن كذلك وطناً لكلّ اليهود الذين عاشوا ضمن الأطر القبليّة وخارجها، ولم يؤسّسوا كياناً يجمعهم، وظلّوا كيانات صغيرة متفرّقة. ورغم نزولهم في يثرب منذ أزمنة قديمة لم ينصهروا

---

(١) نفسه، م ١، ص ٦٧٩.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٤٦.

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٣، ص ٦١٩.

بشكل تام مع بقيّة العناصر البشريّة النّازلة معهم في نفس الفضاء، وظلّ فريق من النّاس يتعاملون معهم على أنّهم دخلاء.

كانت لدى محمّد وهو يهاجر من مكّة إلى يثرب رغبة قويّة في التّشبّه باليهود وإقامة علاقات جيّدة معهم لتكوين أمّة من المؤمنين لمواجهة المشركين، وليس من الثّابت أنّ تعاونهم معه كان سينتهي لو تمّ إلى أن «يصبح الإسلام فرقة يهوديّة»[1]. ولكنّه سيؤدّي إلى تغيير عميق في خصائص الإسلام وإلى تبنّي الضّمير الجمعي الإسلامي التّراث اليهودي، وكان عداء اليهود لمحمّد سبباً قويّاً لإحيائه روابط الحبّ التي تجمعه بقومه. يقول هشام جعيط: «إنّ غضب الرّسول المدمّر تجاه اليهود هو خاصة الوعي بأنّه كاد أن يفقد روحه وكاد أن يضيّع الرّوح العربيّة لصالحهم وأن يخون شعبه بصورة من الصّور»[2]. تزامن تنامي العداء بين اليهود ومحمّد مع مصالحة تدريجيّة بينه وبين قومه، فعاد إلى التّوجه إلى مكّة في صلاته، وتعمّقت مكانة إبراهيم في دينه، وتعاظمت مكانة الكعبة، وأصبح دينه تواصلاً للحنيفيّة دين إبراهيم أبي العرب وباني الكعبة.

خاتمة

كان يهود يثرب زمن نبوّة محمّد يتوزّعون على ثلاث قبائل كبرى هي قينقاع والنضير وقريظة، وكانوا أصحاب أموال يجمعون بين التجارة والصّيرفة وتعاطي بعض الحرف ويسيطرون على أهم موارد يثرب من أراض صالحة للزراعة ومنابع مياه. لم يدخل يهود يثرب في دين محمّد، وناصبوه العداء لأسباب اقتصاديّة واجتماعيّة، وكان صراعهم ضده في أحد وجوهه مواصلة لصراعهم ضد عدد من عشائر الخزرج والأوس من أجل السّيطرة على يثرب. وتمثّلت أنشطة يهود يثرب المعادية لمحمّد في محاولتهم صدّ النّاس عن الدّخول في دينه وعملهم على إثارة الفتن بين أتباعه وتحريضهم إياهم على عدم المشاركة في تأسيس مشروعه السّياسي والاجتماعي. وكان يهود يثرب حلفاء للمنافقين النّازلين بيثرب، وبسبب ما بينهم من عداوات لم يشكّل أعداء محمّد من يهود يثرب جبهة واحدة، ولم يتحرّكوا بصفة جماعيّة، ولم يمثّلوا خطراً عسكريّاً قويّاً على الكيان الإسلامي.

---

(١) Watt (W. M): *Mahomet à Médine*, p. 264.

(٢) هشام جعيط: **الشخصيّة العربيّة الإسلاميّة والمصير العربي**، ص ١٣٩.

الفصل الرّابع

المنافقون

مقدّمة

تصطدم محاولة تحديد أنشطة المنافقين بصعوبة أساسيّة تتمثّل في كيفية اعتبار نشاط ما مظهراً من مظاهر النّفاق. ذكر النّص القرآني بعض أعمال المنافقين، وذمّها، وتوعّد أصحابها بسوء المصير: «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (المنافقون ٦٣/ ٤). ويُعتبر القرآن مصدراً أساسيّاً لإدراك أنشطة المنافقين، ولكنّه ليس المصدر الوحيد، فهذا النّص لم يأت لتسجيل كلّ أحداث تجربة النّبوّة، وقد تشكّل وفق معطيات واعتبارات عديدة، وكان في حالة تفاعل مع الواقع التّاريخي، يتأثّر به، ويسعى إلى التّأثير فيه. فمحمّد واجه مواقف معادية من بعض أتباعه منذ وصوله إلى يثرب، ولم يتّخذ القرآن موقفاً متشدّداً من المنافقين إلاّ عندما امتلك محمّد القوّة اللاّزمة لمواجهتهم. وجاء الحديث عن المنافقين في عدد لا يُستهان به من الآيات محكوماً بالتّعميم والإجمال، ولا يمكن إدراك معانيه إلاّ من خلال ما توفّره المصادر من أخبار تحدّد أسباب نزوله ومقاصده، ولا شكّ في أنّ هذه الأخبار اختارها الرّواة لأنّها تتّفق مع فهمهم لظاهرة النّفاق وللنّبوّة. لا تقتصر أعمال المنافقين ضرورةً على الأعمال التي ذكرها القرآن، ولا يمكننا أيضاً أن نعتبر كل أعمال أتباع محمّد التي تمّت عن غير رضاه هي من أعمال المنافقين. إن توسيع دائرة النّفاق يمكن أن يحمّل بعض الأنشطة ما لا تحتمل ويضعها خارج السّياق الذي ظهرت فيه، إذ حدث عدّة مرات أن اختلف أتباع محمّد معه ولم ينفّذوا أوامره، ولم ينظر محمّد إلى ذلك على أنّه ضرب من النّفاق.

لم يشكّل المنافقون زمن نبوّة محمّد مجموعة مستقلة، ولم يكن النّاس في ذلك الزّمن متّفقين على تحديد المنافقين، ولم يكن ذلك من مشاغلهم الملحّة، وفي مراحل

لاحقة لفترة نبوّة محمّد ولأسباب عديدة بدأ اهتمام النّاس بتصنيف العناصر البشريّة التي شاركت في أحداث السّيرة النّبويّة، فوُضعت الطّبقات، وجمع الرّواة قائمة بأسماء المنافقين متأثّرين بطريقة تصوّرهم لفترة النّبوّة، فجرى تضخيم ما هو عقائدي وتعظيم منزلة محمّد بين أتباعه وإعطاء صورة مثاليّة لأصحابه والحطّ من منزلة المنافقين، وكانت نزعة الحطّ من منزلتهم تتعاظم كلّما ابتعد النّاس عن زمن النّبوّة.

اعتمدنا على النّص القرآني بصفة أساسيّة في تحديد أعمال المنافقين، واخترنا من المادة التي توفّرها بقيّة المصادر ما رأينا أنّه ينسجم مع ما ورد في القرآن، وقسّمنا أنشطة المنافقين إلى قسمين: خصّصنا القسم الأوّل لأنشطة سيّد المنافقين عبد اللّه بن أُبي بن سلول، والقسم الثّاني لأنشطة بقيّة المنافقين.

١ ـ عبد اللّه بن أُبي يؤذي محمّداً ويحاول نصرة اليهود

ينتمي عبد اللّه بن أُبي بن سلول إلى عشيرة بلحبلى إحدى عشائر الخزرج، وكان من أصحاب الأموال وصاحب أطم، وتجمع مصادر كثيرة على أنّه كان سيّد بني قيلة في آخر جاهليتهم: «قال ابن إسحاق: وقدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المدينة (...) وسيّد أهلها عبد اللّه بن أبي بن سلول العَوْفي ثم أحد بني الحبلى، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتّى جاء الإسلام غيره»[١]. ترأس عبد اللّه بن أبي الخزرج في بعض أيّامهم ضد الأوس، ثمّ اعتزل حروب يثرب الدّاخليّة، فلم يشارك في يوم الفجار الثّاني ويوم بعاث[٢]، وتحالف مع قسم مهمّ من اليهود، وهذا ما جعله يتمتّع بمكانة متميّزة في يثرب، وتذكر المصادر أنّ أهله كانوا ينظمون له الخرز ليتوّجوه ملكاً وأدّى قدوم محمّد وأتباعه إلى حرمانه من مُلك كان يعدّ نفسه له.

لا شكّ في أنّ المصادر بالغت كثيراً في تعظيم مكانة عبد اللّه بن أُبي. لا تثبت الأحداث التي مهّدت لهجرة محمّد وأتباعه إلى يثرب أنّ له مكانة عظيمة في قومه. دخل أبناء الخزرج بكثافة في دين محمّد، ولعبوا دوراً بارزاً في انتشاره في يثرب، وشكّلوا القسم الأكبر من أهلها الحاضرين في بيعة العقبة الأولى[٣]. وبعد هذه البيعة أرسل محمّد مصعب بن عمير إلى أتباعه في يثرب، «وأمره أن يقرئهم القرآن،

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٧٦.

(٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، م ١، ص ٦٧٩ ـ ٦٨١.

(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٤٠ ـ ٤١.

ويعلّمهم الإسلام، ويفقّههم في الدّين»[1]. نزل رسول محمّد عند أسعد بن زرارة أحد رجال الخزرج، وأخذ يدعو أهلها إلى دين محمّد، فاستجاب له عدد غير قليل منهم، ولهذا ارتفع عدد المبايعين لمحمّد في بيعة العقبة الثّانية، ولا شيء يدلّ على أنّ الخزرج قد استشاروا عبد اللّه بن أبي قبل دخولهم في دين محمّد.

كان عبد اللّه بن أبي مع قومه في مكّة زمن بيعة العقبة الثانية، ولكنّه لم يشارك فيها وغاب عنها رغم حرص العبّاس بن عبد المطّلب على حضوره[2]. كان أغلب أهل يثرب الحاضرين في هذه البيعة من الخزرج، وكان بينهم رجلان من بني الحبلى، وتجمع مصادر كثيرة على أنّ أبناء الخزرج والأوس الذين حضروا بيعة العقبة الثانية لم يستشيروا عبد اللّه بن أبي قبل أن يتعهّدوا باستقبال محمّد في يثرب وتوفير الحماية له. «قال ابن إسحاق: وحدّثني عبد اللّه بن أبي بكر أنّهم أتوا عبد اللّه بن أبي بن سلول، فقالوا له مثل ما قال كعب من القول، فقال لهم: إنّ هذا لأمر جسيم ما كان قومي ليتفوّتوا عليّ بمثل هذا، وما علمته كان»[3]. لم يكن عبد اللّه بن أبي حاضراً في بيعة العقبة الثانية التي غاب عنها أيضاً سيّدا الأوس أبو عامر الرّاهب وأبو قيس بن الأسلت، ومن المرجّح أنّه لم يكن راضياً عمّا تعهّد به قومه لمحمّد في هذه البيعة.

بدأ أتباع محمّد بعد بيعة العقبة الثانية يتوافدون على يثرب، وتوزّعوا على عدّة عشائر من الأوس والخزرج، ولم ينزل أحد منهم في ديار بلحبلى. كان محمّد يدرك علوّ منزلة عبد اللّه بن أبيّ في قومه، فسعى عندما قدم إلى يثرب أن ينزل عنده، فرفض عبد اللّه بن أبي ذلك، وقال له: «اذهب إلى الذين دعوك، فانزل عليهم»[4]، ونزل محمّد على الأوس في دار كلثوم بن هدم أو في دار سعد بن خيثمة[5] رغم أنّ أغلب أتباعه من الخزرج. ولم يطل محمّد المكوث بقباء عند الأوس، وانتقل إلى ديار أخواله بني النّجار، وفي مربد هناك بنى مسجده وبيوته.

تجمع مصادر كثيرة على أنّ عبد اللّه بن أبي لم يدخل في دين محمّد عن اقتناع بل مجاراة لقومه، أمّا ابن خالته وأحد أسياد الأوس أبو عامر الرّاهب فاختار مغادرة يثرب مفارقاً لقومه والتحق بمكّة، ومن المرجّح أنه فعل ذلك بعد وفاة أبي قيس بن الأسلت سيّد الأوس على رأس عشرة أشهر من الهجرة. وتذكر المصادر أنّ سيّد الأوس كان يهمّ بالدّخول في دين محمّد، «... فلقيه عبد اللّه بن أبي، فقال: من أين؟

---

(1) نفسه، ج ٢، ص ٤٢.

(2) نفسه، ج ٢، ص ٥٢.

(3) نفسه، ج ٢، ص ٥٣.

(4) السّمهودي: **وفاء الوفاء...**، ج ١، ص ١٨٣.

(5) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٩١.

فقال: من عند محمّد، عرض عليّ كلاماً ما أحسنه وهو الذي كنّا نعرف والذي كانت أحبار يهود تخبرنا به. فقال له عبد اللّه بن أبي: كرهت، واللّه، حرب الخزرج. قال: فغضب أبو قيس، وقال: واللّه، لا أسلم سنة. ثمّ انصرف إلى منزله، فلم يعد إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى مات قبل الحول، وذلك في ذي الحجّة على رأس عشرة أشهر من الهجرة»[1].

كان عبد اللّه بن أبي قادراً على تشكيل تهديد قويّ لمحمّد لو أنّه تحالف مع أبي عامر الرّاهب، ولكنّه لم يفعل، وبقطع النّظر عن حقيقة إيمانه أعلن سيّد الخزرج في مناسبات عديدة تأييده لمحمّد وتصديقه لما جاء به. «قال ابن إسحاق: فلمّا قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المدينة وكان عبد اللّه بن أبي بن سلول (...) له مقام يقومه كلّ جمعة لا يُنكر شرفاً له في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم الجمعة وهو يخطب في النّاس قام، فقال: يا أيّها النّاس هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بين أظهركم، أكرمكم اللّه به، وأعزّكم به، فانصروه، وعزّزوه، واسمعوا له، وأطيعوا. ثمّ يجلس»[2]. أعلن عبد اللّه بن أبي تصديقه لمحمّد وتأييده لما يدعو إليه، وفي نفس الوقت كان يستخفّ به ويظهر الاستهانة به: «عن أنس بن مالك قال: قيل للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم لو أتيت عبد اللّه بن أبي. قال: فانطلق إليه، وركب حماراً، وانطلق المسلمون، وهي أرض سبخة، فلمّا أتاه النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: إليك عنّي، فواللّه، لقد آذاني نتن حمارك. قال: فقال رجل من الأنصار: واللّه، لحمار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد اللّه رجل من قومه، قال: فغضب لكلّ واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدي وبالنّعال...»[3]. أظهر عبد اللّه بن أبي استخفافه بمحمّد وتعمّد الإساءة إليه في مناسبات عديدة وبحضور أهل يثرب والمهاجرين «... فسلّم عليهم النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم، ثمّ وقف، فنزل، فدعاهم إلى اللّه، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد اللّه بن أبي: أيّها المرء، لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقّاً فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منّا فاقصص عليه...»[4].

تعمّد عبد اللّه بن أبي الإساءة إلى محمّد في مناسبات عديدة، وكان يُعجبه أن يظهر لأهل يثرب استهانته به، وتجنّب محمّد مواجهته أو الدّخول في صراع مباشر معه

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٣٨٥.
(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٦٦.
(٣) مسلم: **الصحيح**، ج ٣، ص ١٤٢٤.
(٤) نفسه، ج ٣، ص ١٤٢٢ ـ ١٤٢٣.

لإدراكه أنّ ذلك لن يكون لصالحه، وحثّ أتباعه من أهل البوادي على الهجرة إلى يثرب لتعزيز مكانته فيها، ومن أجل تعميق روابط التّضامن بين الأنصار والمهاجرين، وللحدّ من فاعليّة روابط الدّم التي يستفيد منها عبد اللّه بن أبي عمد محمّد إلى المؤاخاة بين المهاجرين وعدد من الأنصار[1]. ولم يكن عبد اللّه بن أبي من ضمن الذين قبلوا المؤاخاة، ومن أجل توفير مصادر رزق لأتباعه ولتقوية روح التّضامن بينهم بدأ محمّد في القيام بأنشطة عسكريّة تمثّلت في التّعرّض لقوافل مكّة التّجاريّة. اقتصرت أنشطته الحربيّة في البداية على المهاجرين، ثمّ سريعاً ما انضمّ إليهم الأنصار من أبناء الخزرج خاصة، ولا تذكر المصادر أيّ شيء عن موقف عبد اللّه بن أبيّ من مشاركة أبناء الخزرج في أنشطة أتباع محمّد الحربيّة، والاحتمال الأرجح أنه لم يشارك في المغازي والسّرايا السابقة على بدر، وتذكر مصادر قليلة أنّه شارك في واقعة بدر[2]، وهذا ما لا تذكره كتب السّيرة الأساسيّة، وتذكر ابنه عبد اللّه.

ساهمت أنشطة محمّد الحربيّة في دعم روح الولاء لدينه بين صفوف أتباعه، وعمّقت روح التّضامن بينهم، وساهمت في تنامي نفوذه بين أتباعه من المهاجرين والأنصار، وساهم انتصاره في واقعة بدر في تعاظم نفوذه في يثرب، وكان أبرز المعارضين لذلك عبد اللّه بن أبي وكعب بن الأشرف، ولكنّهما لم يتحالفا ضدّه.

بدأ محمّد بعد واقعة بدر مباشرة في قتل أعدائه من يهود الأوس ويهود الخزرج، فقام بعض أتباعه بقتل أبي عفك وعصماء بنت مروان ولم يقم عبد اللّه بن أبي بأيّ ردّ فعل على ذلك. وعندما أعلن محمّد الحرب على بني قينقاع حثّ عبد اللّه بن أبي أسياد الخزرج على حماية حلفائهم والوقوف معهم ضد محمّد «... وكان ابن أبي وعبادة بن الصّامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبد اللّه بن أبي: تبرّأت من حلف مواليك !؟ ما هذه بيدهم عندك ! فذكّره مواطن قد أبلوا فيها...»[3]. تبرّأ أسياد الخزرج من حلف بني قينقاع، وتمسّك عبد اللّه بن أبي بحلفه معهم، وأرسل إليهم يطلب منهم أن يتحصّنوا، ووعدهم أن يدخل معهم في حصونهم، وينصرهم مع أتباعه الكثيرين، ويمنعهم من محمّد.

قام أتباع محمّد بحصار بني قينقاع، وامتدّ الحصار خمسة عشر يوماً، ولم يقم عبد اللّه بن أبي بأيّ شيء لنصرة حلفائه، فلم يقووا على الصمود زمناً طويلاً، ونزلوا على حكم أتباع محمّد. وتذكر المصادر أنّ محمّداً كان ينوي تنفيذ قتل جماعي لرجال

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

(٢) الطّبري: **جامع البيان...**، م ١٠، ج ١٨، ص ١٦٠.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٧٩.

بني قينقاع بعد أن قام أتباعه بشدّ أكتافهم، ومنعه عبد اللّه بن أبي من ذلك: «فحاصرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتّى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد اللّه بن أبي بن سلول حين أمكنه اللّه منهم، فقال: يا محمّد، أحسن في مواليّ، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فقال: يا محمّد أحسن في مواليّ. قال: فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم (...) قال ابن إسحاق: فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: أرسلني، وغضب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتّى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال: ويحك !! أرسلني، قال: لا واللّه لا أرسلك حتّى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ ! إنّي، واللّه، امرؤ أخشى الدّوائر، قال: فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: هم لك.»[1].

استطاع عبد اللّه بن أبي أن يحول دون تنفيذ قتل جماعي لرجال بني قينقاع، ودعا الخزرج إلى منع محمّد من طرد حلفائهم من يثرب، فلم يستجيبوا له[2]، ولم يتحمّسوا لرأيه الذي يحرمهم من غنائم كثيرة أصبحت في متناول أياديهم. وكان الأنصار من رجال الأوس خاصة أشدّاء عليه، «فجاء ابن أبي بحلفائه معه (...) يريد أن يكلّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يقرّهم في ديارهم، فيجد على باب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم عويم بن ساعدة، فذهب ليدخل، فردّه عويم، وقال: لا تدخل حتّى يؤذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لك، فدفعه ابن أبي، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدارُ، فسال الدّم...»[3]. كان عبد اللّه بن أبي أبرز الخاسرين من طرد بني قينقاع من يثرب، إذ خالف قومه، وخسر حلفاءه.

بعد طرد بني قينقاع من يثرب قام أتباع محمّد بقتل كعب بن الأشرف سيّد يهود الحجاز، ولم يكن قتله محلّ خلاف بينه وبين عبد اللّه بن أبي، وسيظهر الخلاف بينهما قوياً في واقعة أُحد، فعندما تناءى إلى أهل يثرب قدوم أهل مكّة في جيش عظيم اختلفا حول كيفية إدارة المواجهة ضدهم. كان رأي عبد اللّه بن أبي أن يمكث المقاتلون في يثرب، «فقال عبد اللّه بن أبي بن سلول: يا رسول اللّه، أقم بالمدينة، لا تخرج إليهم، فواللّه، ما خرجنا إلى عدوّ لنا قطّ إلاّ أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه، فدعهم، يا رسول اللّه، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرّجال في وجههم، ورماهم النّساء والصّبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا»[4].

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٣٤٠.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٧٨.
(٣) نفسه، ج ١، ص ١٧٨.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٩.

اختار محمّد بعد تردّد أن يخرج بالنّاس من يثرب للقاء جيش مكّة، وخرج معه عبد اللّه بن أبي مع أتباعه، ومنذ أن خرج جيش محمّد توالت عليه الحوادث غير السّارة، «... فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فركب فرسه، فسلك به في بني حارثة، ثمّ أخذ الأموال حتّى يمرّ بحائط مربع بن قيظي، وكان أعمى البصر منافقاً، فلمّا دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه حائطه قام يحثي التّراب في وجوههم، ويقول إن كنت رسول اللّه فلا تدخل حائطي، فيضربه سعد بن زيد الأشهلي بقوس في يده، فشجّه في رأسه، فنزل الدّم، فغضب له بعض بني حارثة ممّن هو على مثل رأيه...»[١]. كان بين بني عبد الأشهل وبين بني حارثة تاريخ طويل من الضّغائن والحروب، وكاد ضرب سعد بن زيد الأشهلي لمربع بن قيظي أن يؤدّي إلى مواجهة بين الفريقين، وبعد أن قطع جيش يثرب مسافة لحقت بهم كتيبة من يهود يثرب حلفاء عبد اللّه بن أُبي.

رفض محمّد أن يستعين بحلفاء عبد اللّه بن أُبي من اليهود في حربه ضد قريش، فعادوا إلى يثرب، وقبل أن يصل أتباع محمّد إلى أُحد اختار عبد اللّه بن أبي أن ينخذل عنهم، وعاد مع أتباعه الذين تقدّرهم المصادر بثلاثمائة مقاتل إلى يثرب. «قال ابن إسحاق: حتّى إذا كانوا بالشّوط، بين المدينة وأُحد، انخذل عنه عبد اللّه بن أبي بن سلول بثلث النّاس، وقال: أطاعهم، وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيّها النّاس ؟! فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النّفاق والرّيب...»[٢]. وهمّت طائفتان من أتباع محمّد بالعودة إلى يثرب على غرار ما فعل عبد اللّه بن أبي. جاء في النّص القرآني: «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» (آل عمران ٣/ ١٢٢). لا تحدّد المصادر الانتماءات العشائريّة لأتباع عبد اللّه بن أبيّ الذين انخذلوا عن أتباع محمّد وعادوا معه إلى يثرب، وتجمع أغلب الرّوايات على أنّ الطّائفتين اللّتين همّتا أن تفشلا هما سلمة (الخزرج) وحارثة (الأوس)[٣]. لا شكّ في أنّ خصومة بني عبد الأشهل وبني حارثة في الطّريق إلى أُحد هي السّبب الأساسي الذي من أجله همّ بنو حارثة بالعودة إلى يثرب، ومن المرجّح أنّ بني سلمة همّوا بالانخذال عن جيش محمّد لعودة سيّدهم الجدّ بن قيس إلى يثرب مع عبد اللّه بن أُبي.

انتهت واقعة أُحد بهزيمة جيش محمّد وسقوط عدد كبير من أتباعه قتلى وفرار عدد آخر. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن هذه الواقعة: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢١٨.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١١.

(٣) الطّبري: **جامع البيان...**، م ٣، ج ٤، ص ٨٨ ـ ٨٩.

مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا...» (آل عمران ٣/ ١٥٥). واستغلّ الحرث بن سويد أحد الأوس هزيمة أتباع محمّد، وقام بقتل المجذّر بن زياد الخزرجي لثأر قديم[1]. هُزم أتباع محمّد، وتفرّقت جموعهم، ولم يتحمّس أغلب أسياد قريش للذّهاب إلى يثرب لتحصيل الغنائم والسّبايا لعدّة أسباب منها خوفهم من عبد اللّه بن أبي «... فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغلبة فلو انصرفنا فإنّه بلغنا أنّ ابن أبي انصرف بثلث النّاس وقد تخلّف ناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكرّوا علينا وفينا جراح»[2].

انهزم أتباع محمّد يوم أُحد، وكان أغلب قتلاهم من الأنصار، إذ تجنّب رجال قريش قتل من كانت لهم بهم صلة رحم، وأمعنوا القتل في رجال يثرب، وأدّى ذلك إلى شعور فريق من الأنصار أنّهم خُذلوا من المهاجرين، ووجدوا في أنفسهم، وكان أغلب القتلى من الخزرج قوم عبد اللّه بن أبي الذي ظهر بعد واقعة أُحد في صورة المنتصر، إذ أثبتت الوقائع صواب رأيه وخطأ رأي محمّد: «فلمّا أصيب أصحاب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم سُرّ ابن أبي، وأظهر الشّماتة، وقال: عصاني وأطاع من لا رأي له»[3]. وأثارت هزيمة يوم أُحد شكوك فريق من أهل يثرب حول حقيقة نبوّة محمّد، واشتدّ النّفاق «... وجعل المنافقون يخذّلون عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أصحابه، ويأمرونهم بالتّفرّق عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم»[4].

أدّت هزيمة يوم أحد إلى تصاعد التّوتّر في يثرب، وقامت عدّة منازعات بين أتباع محمّد، وطُرد عدد من المنافقين من المسجد: «... وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس، فرآهم رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم يتحدّثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً...»[5]. كان أكثر المنافقين المطرودين من المسجد من بني النّجار، ويعود ذلك إلى شدّة حماس أبناء هذه العشيرة لنصرة محمّد الذي أصبح نقيبهم بعد وفاة أسعد بن زرارة، ولم يتدخّل عبد اللّه بن أبي لمنع طرد المنافقين من المسجد، وقامت خصومات لفظيّة بينه وبين بعض أتباع محمّد، فعندما قام في المسجد يدعو النّاس لنصرة محمّد «... أخذ المسلمون بثيابه من

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٤٥.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢٩٩.
(٣) نفسه، ج ١، ص ٢١٩.
(٤) نفسه، ج ١، ص ٣١٧.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٢٦.

نواحيه وقالوا: اجلس، أي عدو اللّه، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطّى رقاب النّاس...»[1].

أراد أهل مكّة استثمار انتصارهم في واقعة أُحد، فأرسلوا إلى محمّد وفداً يتكوّن من أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السّلمي، ونزل أعضاء وفد مكّة على عبد اللّه بن أبي[2]، ولا تذكر المصادر أيّ شيء عمّا دار بينهم. لا شكّ في أنّ اختيار رجال مكّة النّزول على عبد اللّه بن أبي ينمّ عن إدراكهم لمكانته الوازنة في قومه ولعلاقته المتشنّجة بالمهاجرين، والاحتمال الأرجح أنّهم طلبوا منه أن يمارس ضغطاً على محمّد لدفعه إلى قبول اتّفاق صلح مع قريش لتجنيب أهل يثرب مزيداً من الخسائر، ولا تنقل المصادر أيّ شيء عن موقف عبد اللّه بن أُبي ممّا عُرض عليه.

أدّت هزيمة محمّد يوم أُحد إلى تنامي ظاهرة النّفاق، وأدّت إلى انخراط عدّة تجمّعات بدويّة في الصّراع ضده، واستطاع الأعراب أن ينالوا من أتباعه في واقعة بئر معونة وواقعة الرّجيع، وكان معظم القتلى في هاتين الواقعتين من الأنصار. ويبدو أنّ توالي الهزائم على محمّد هو الذي جعل فريقاً من يهود يثرب يرون أنّ الفرصة سانحة للقضاء عليه، فدبّروا خطة لقتله، وكان ذلك سبباً مباشراً لواقعة بني النّضير التي شهدت تصاعد الخلاف بين عبد اللّه بن أُبي ومحمّد.

طلب محمّد من بني النّضير مغادرة يثرب، وأمهلهم عشراً، فرضخوا له، وأخذوا يستعدّون للرّحيل. «... فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول ابن أُبي، أتاهم سويد وداعس فقالا: يقول عبد اللّه بن أبي: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم، فإنّ معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم...»[3]. كان عبد اللّه بن أبي يُدرك أنّ وجود بني النّضير في يثرب يخدم مصلحته في صراعه مع محمّد لذلك عارض طردهم. جاء في النص القرآني: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِم الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (الحشر ٥٩/١١).

استجاب بنو النّضير لطلب عبد اللّه بن أبي، وطمعوا في نصرته، وأقاموا في حصونهم، وحاصرهم محمّد لمدّة أسبوعين، ولم يقم حليفهم بأيّ شيء لنصرتهم،

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ٦٦.

(٢) الواحدي: **أسباب النزول**، ص ٢٤٩.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

ولم يمنع حتّى ابنه عبد اللَّه من المشاركة في قتالهم: «... وخرج جديّ حتّى دخل على ابن أبي وهو جالس في بيته مع نفير من حلفائه، وقد نادى منادي رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وسلّم يأمرهم بالمسير إلى بني النّضير، فيدخل عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن أُبي على عبد اللَّه أبيه وعلى النّفر معه وعنده جُدي بن أخطب، فلبس درعه، وأخذ سيفه، فخرج يعدو. فقال جدي: لمّا رأيت ابن أُبي جالساً في ناحية البيت وابنه عليه السّلاح يئست من نصره، فخرجت أعدو إلى حُيي...»(١). كان بنو النّضير حلفاء للأوس، ولم تجد دعوة عبد اللَّه بن أبي لنصرتهم استجابة من حلفائهم ولا من الخزرج، فتمّ طردهم من يثرب واستولى أتباع محمّد على أموالهم، وكانت أموالاً كثيرة.

قام محمّد بتوزيع معظم أموال بني النّضير بين أتباعه من المهاجرين، ولم تلاق طريقته في التّصرّف في هذه الأموال أيّ احتجاج من عبد اللَّه بن أبي الذي كان من أبرز الخاسرين من إخراج هؤلاء اليهود من يثرب، وكان حزنه لرحيلهم شديداً. يقول أحد أتباع محمّد: «ولقي المنافقون عليهم يوم خرجوا حزناً شديداً. لقد لقيت زيد بن رفاعة بن التّابوت وهو مع عبد اللَّه بن أبي، وهو يناجيه في بني غنم وهو يقول: توحّشت بيثرب لفقد بني النّضير، ولكنّهم يخرجون إلى عزّ وثروة من حلفائهم، وإلى حصون منيعة شامخة في رؤوس الجبال ليست كما ها هنا»(٢).

واصل محمّد بعد طرد بني النّضير من يثرب أنشطته الحربيّة ضد أهل البوادي، واستطاع أن يحقّق في واقعة المريسيع نصراً عسكريّاً سهلاً ضد عشيرة المصطلق، وكان عبد اللَّه بن أبي حاضراً في هذه الواقعة التي شهدت منازعة بين بعض المهاجرين وبعض الأنصار، وكادت هذه المنازعة أن تتحوّل إلى مواجهة شاملة بين الفريقين: «... فتنازعا إلى أن رفع جهجا يده، فضرب سناناً، فسال الدّم، فنادى: يا آل الخزرج. وثارت الرّجال، قال سنان: وأعجزني جهجا هرباً، وأعجز أصحابي، وجعل ينادي في العسكر: يا آل قريش، يا آل كنانة. فأقبلت إليه قريش سراعاً، قال سنان: فلمّا رأيت ما رأيت ناديت بالأنصار، قال: فأقبلت الأوس والخزرج، وشهروا السّلاح حتّى خشيت أن تكون فتنة عظيمة»(٣).

استغلّ عبد اللَّه بن أبي الحادثة، وحاول أن يدفع الأمور إلى حدّ المواجهة الشّاملة بين أهل يثرب والمهاجرين: «... وكان مما ظهر وسُمع منه أن قال: واللَّه، ما

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٧٠.
(٢) نفسه، ج ١، ص ٣٧٦.
(٣) نفسه، ج ٢، ص ٤١٥.

رأيت كاليوم مذلّة ! والله، إن كنت كارهاً لوجهي هذا ولكنّ قومي غلبوني ! قد فعلوها، قد نافرونا، وكاثرونا في بلدنا، وأنكروا منّتنا، والله، ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلاّ كما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك»[1]. ودعا أبناء الأوس والخزرج إلى إخراج أتباع محمّد من المهاجرين من يثرب. جاء في النّص القرآني: «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ...» (المنافقون ٦٣/٨).

تفادى محمّد تصعيد الموقف، وسعى إلى إلهاء النّاس عمّا وقع، فأمرهم بالرّحيل في حرّ شديد، وأطال بهم الرّحلة حتّى يلهوا عمّا قاله عبد الله بن أبي، ولمّا كان العسكر على مقربة من يثرب تخلّفت عائشة بنت أبي بكر زوج محمّد عن النّاس الذين ارتحلوا في اللّيل، وفي اليوم التالي لحقت بهم وهي تركب راحلة صفوان بن المعطّل السّلمي وهو يقود بها. كانت هذه الحادثة منطلقاً لما يُعرف بـ"حديث الإفك" حيث اتّهمت عائشة بصفوان بن المعطّل، وعمل عبد الله بن أبي على نشر حديث الإفك بين النّاس، وتولّى كبره «... كان ينزل مع جماعة المنافقين متبدّين من النّاس، فمرّت عليهم، فقال: من هذه ؟ قالوا: عائشة وصفوان. فقال: فَجَر بها وربّ الكعبة (...) وصار يقول: امرأة نبيّكم باتت مع رجل حتّى أصبحت...»[2].

وجد عبد الله بن أبي في حديث الإفك فرصة جيّدة للاستهزاء من محمّد والنّيل من عرضه، وكان ذلك يؤلم محمّداً كثيراً: «... ثم صعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: من يعذرني ممّن يؤذيني في أهلي ؟ ويقولون لرجل، والله ما علمت على ذلك الرّجل إلاّ خيراً، وما كان يدخل بيتاً من بيوتي إلاّ معي، ويقولون عليه غير الحقّ»[3]. اختلف أسياد الأوس والخزرج حول عبد الله بن أبي حتّى كادوا أن يتقاتلوا: «... فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن يك من الأوس آتك برأسه، وإن يك من إخواننا من الخزرج فمُرنا بأمرك نمضي لك. فقام سعد بن عبادة (...) فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، والله، ما قلت هذه المقالة إلاّ أنّك قد عرفت أنّه من الخزرج، ولو كان من الأوس ما قلت ذلك (...) ! فقال أسيّد بن حضير: كذبت، والله لنقتلنّه وأنفك راغم، فإنّك منافق تجادل عن المنافقين ! (...) قال سعد بن عبادة: تأبون يا آل أوس إلاّ أن تأخذونا بذحول كانت في الجاهليّة، وقد محا الله بالإسلام ذلك كلّه. فقام أُسيّد بن

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٤١٦.

(٢) على الحلبي: **السيرة الحلبية**، م ٢، ص ٣٩٧.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٣١.

حضير فقال: قد رأيت موطننا يوم بعاث. ثمّ تغالظوا، وغضب سعد بن عُبادة فنادى: يا آل خزرج ! فانحازت الخزرج كلّها إلى سعد بن عبادة، ونادى سعد بن معاذ: يا آل أوس ! فانحازت الأوس كلّها إلى سعد بن معاذ...»[1].

ساءت علاقة عبد اللّه بن أبي بمحمّد بشكل كبير أثناء واقعة المريسيع وبعدها، وأظهر رجال الخزرج جفاء في تعاملهم مع عبد اللّه بن أبي رغم دفاعهم عنه ضد رجال الأوس: «مرّ عبادة بن الصّامت بعبد اللّه بن أبي عشيّة راح النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم من المريسيع، وقد نزل على النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم سورة المنافقين، فلم يسلّم عليه، ثمّ مرّ أوس بن خولي فلم يسلّم عليه، فقال ابن أبي: إنّ هذا الأمر قد تمالأتما عليه. فرجعا إليه، فأنّباه، وبكّتاه بما صنع...»[2]، وأعلن عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبي استعداده لقتل والده إذا طلب منه محمّد ذلك[3].

عرفت علاقة عبد اللّه بن أبي بالمهاجرين بعد واقعة المريسيع أقصى درجات التّوتّر، وتوفّي في هذا الزّمن صديقه وخليله زيد بن رفاعة بن التّابوت[4]. وتصاعد الخلاف بين الأوس والخزرج، وعادت الضغائن القديمة، وساءت علاقة الأنصار بالمهاجرين، فاختار عدد من المهاجرين مغادرة يثرب والعودة إلى مكّة، وعدا عبد اللّه بن خطل وكان من المهاجرين على رجل من الأنصار، فقتله، وهرب إلى مكّة، وعدا مقيس بن صبابة اللّيثي وكان من المهاجرين على أحد الأنصار، فقتله، وهرب إلى مكّة[5] ونظم حسّان بن ثابت الخزرجي شعرا يتشوّه فيه على أتباع محمّد من مضر، «فقال:

أَمْسَى الجَلاَبِيبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا   وَابْنُ الفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ البَلَدِ[6]

عرّض شاعر بني قيلة (الأوس والخزرج) بأتباع محمّد من مضر، «فاعترضه صفوان بن المعطّل، وضربه بالسّيف»[7]، واستطاع محمّد وكبار أتباعه من الأنصار والمهاجرين أن يمنعوا الأمور من أن تتطوّر نحو الأسوأ، وتنازل حسّان بن ثابت عمّا أصابه.

بعد واقعة المريسيع بمدّة زمنيّة قصيرة تناهى إلى أتباع محمّد قدوم قريش وعدد من القبائل البدويّة في جيش وافر العدد، فحفروا خندقاً حول يثرب، وقام الأحزاب

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.
(٢) نفسه، ج ٢، ص ٤٢٠.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٢٤٨.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٢٣.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٢٤.
(٦) نفسه، ج ٣، ص ٢٥٨.
(٧) نفسه، ج ٣، ص ٢٥٨.

بحصارها، وتناءى إلى النّاس نقض بني قريظة عهدهم مع محمّد، ففشلوا، ونجم النّفاق. وتذكر بعض المصادر المتأخّرة أن عبد اللّه بن أبي سعى إلى تخذيل المدافعين عن يثرب[1]، وهو ما لا تذكره كتب السّيرة الأساسيّة. بعد انفضاض الأحزاب عن يثرب لم ينتظر محمّد كثيراً، وتوجّه إلى بني قريظة، ولم يقم عبد اللّه بن أبي بأيّ شيء لحمايتهم، وقد يعود ذلك إلى أنّ الحكم عليهم كان لحليفهم سيّد الأوس سعد بن معاذ الذي حكم فيهم بقتل الرّجال وسبي النّساء والذّراري. بعد واقعة بني قريظة اقتصر وجود اليهود في يثرب على أفراد ومجموعات صغيرة غير ذات شأن، وبذلك خسر عبد اللّه بن أبي طاقة بشريّة لا يُستهان بها كانت تمثّل دعماً كبيراً له في صراعه مع محمّد.

عرف محمّد في واقعة الخندق أوقاتاً صعبة ، تصاعدت ظاهرة النّفاق، وارتفعت أصوات المنافقين مشكّكة في صدق نبوّته، وبعد عدّة أسابيع انفضّ جيش الأحزاب عن يثرب من دون قتال كبير، وخرج محمّد منتصراً من هذه الواقعة، فاتّخذ موقفاً متشدّداً من المنافقين، وهدّدهم بالطّرد من يثرب كما فعل مع قسم من اليهود. جاء في النّص القرآني: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً» (الأحزاب ٣٣/ ٦٠). خسر المنافقون حلفاءهم من اليهود، وأصبحوا في حالة ضعف داخل يثرب.

في شهر ذي القعدة من سنة ستّ استنفر محمّد أتباعه للخروج إلى مكّة لأداء العمرة، فاستجاب له فريق منهم، وخرج عبد اللّه بن أبي مع عدد كبير من الأنصار، وحضر بيعة الرّضوان، وأراد أسياد قريش أن يثيروا خلافاً بينه وبين محمّد، فعرضوا عليه أن يدخل مكّة ويؤدّي شعائر العمرة عند الكعبة، فرفض عرضهم، ولم يقبل أن يؤدّي العمرة من دون محمّد، «... وقال: لا أطوف حتّى يطوف رسول اللّه، فبلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كلامه، فسُرّ به...»[2]. كان عبد اللّه بن أبي مع محمّد يوم الحديبيّة، ومن المرجّح أنّه كان معه في واقعة خيبر، ولا تذكر المصادر أيّ شيء يثبت أو ينفي حضوره واقعة فتح مكّة وواقعة حنين وحصار الطّائف، فالمصادر لا تذكره عادة إلاّ إذا صدر منه شيء يدلّ على نفاقه. استطاع محمّد تحقيق انتصارات متوالية في عدّة وقائع، فغلب على خيبر ومكّة، وفضّ جموع هوازن يوم حنين، ومع هذه الانتصارات ازداد موقفه من المنافقين تشدّداً، جاء في النّص القرآني: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...» (التحريم ٦٦/ ٩).

---

(١) البغوي: **تفسير البغوي**، ج ٥، ص ٢٠٢. (٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٦٠٥.

سيظهر عبد اللّه بن أُبي على مسرح الأحداث من جديد عند واقعة تبوك، وقد تخلّف عن الخروج إلى هذه الواقعة عدد كبير من أتباع محمّد من سكّان يثرب ومن أهل البوادي، وقبل أن يخرج محمّد إلى هذه الواقعة أمر بعض أتباعه بتحريق بيت كان عدد من المنافقين يجتمعون فيه: «بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند جاسوم، يثبّطون النّاس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في غزوة تبوك، فبعث إليهم النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم طلحة بن عبيد اللّه في نفر من أصحابه، وأمره أن يُحرّق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضّحّاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه، فأفلتوا...»[1].

تذكر المصادر أنّه لمّا بدأت عناصر جيش محمّد تجتمع خارج يثرب استعداداً للتّوجّه إلى تبوك قدم عبد اللّه بن أُبي بعسكره، «فضرب على ثنيّة الوداع بحذاء ذباب، معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممن اجتمع إليه، فكان يُقال: ليس عسكر ابن أبيّ بأقلّ العسكرين»[2]. لم يذهب عبد اللّه بن أبي مع حلفائه إلى تبوك، وآثر العودة إلى يثرب، وتنقل المصادر أنّه قال: «يحسب محمّد أنّ قتال بني الأصفر اللّعب ؟ (...) واللّه لكأنّي أنظر إلى أصحابه غداً مقرّنين في الحبال...»[3].

لا شكّ في أنّ المصادر بالغت كثيراً في تقدير عدد أفراد عسكر عبد اللّه بن أبي. تدلّ شواهد عديدة على أنّ " سيّد المنافقين " لم يعد زمن واقعة تبوك يتمتّع بما كان له في الماضي من نفوذ لدخول أبناء مكّة في دين محمّد وتراجع نسبة الأنصار من مجموع أتباعه ولتمكّن الاعتقاد في الدّين الجديد من القلوب. «... وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنّفونه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لعمر بن الخطّاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر ؟ ! أما، واللّه، لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»[4].

تخلّف عبد اللّه بن أُبي عن واقعة تبوك، وقد يعود ذلك إلى تدهور حالته الصّحيّة، فبعد هذه الواقعة بشهور قليلة وفي شهر ذي القعدة من سنة تسع توفّي، وصلّى محمّد عليه، ووقف على قبره، واستغفر له، وأعطى أهله قميصه ليكفّن به. كانت جنازة عبد اللّه بن أبي جنازة كبيرة حضرها معظم أهل يثرب. «وكانت أمّ عمارة

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٣٣.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ٩٩٥.
(٣) نفسه، ج ٣، ص ٩٩٥.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٢٤٨.

تحدّث قالت: شهدنا مأتم ابن أُبي، فلم تتخلّف امرأة من الأوس والخزرج إلاّ أتت ابنته جميلة بنت عبد اللّه بن أُبي...»[1]. حضر محمّد وكبار أتباعه من الأنصار والمهاجرين دفن عبد اللّه بن أبي، وكان حزن النّاس عليه شديداً، «فكان عمرو بن أميّة يقول: ما لقي عليه أصحابه هؤلاء المنافقون، إنّهم هم الذين كانوا يَحثون في القبر التّراب ويقولون: يا ليت أنّا فديناك بالأنفس وكنّا قبلك ! وهم يَحثون التّراب على رؤوسهم...»[2]. وبعد وفاة عبد اللّه بن أُبي بمدّة زمنيّة قصيرة نزل القرآن بتحريم الصّلاة على المنافقين: «وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ» (التّوبة ٩/ ٨٥).

٢ ـ المنافقون يؤذون محمّداً ولا يشاركون في أنشطة أتباعه العامة

لم يكن المنافقون يُظهرون احتراماً لمحمّد، وكانوا يعاملونه بشيء من الغلظة ويتعمّدون إظهار استخفافهم به والتّطاول عليه، فعندما نزل قباء «... كان سفهاء بني عمرو ومنافقوهم يرجمونه في اللّيل...»[3]، وأشاعوا بين النّاس أنّه ساذج من حدّثه شيئاً صدّقه: «وَمِنْهُمُ الذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (التّوبة ٩/ ٦١).

أشاع المنافقون أنّ محمّداً أُذن، وأعلن بعضهم رغبته في الزّواج بنسائه بعد وفاته، «... فكان ذلك يؤذي النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم...»[4]. وكانت أزواج محمّد عرضة لتحرّشات المنافقين متى خرجن لقضاء حوائجهن: «قدم النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم المدينة على غير منزل، فكان نساء النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وغيرهن إذا كان اللّيل خرجن يقضين حوائجهن، وكان رجال يجلسون على الطّريق للغزل...»[5]. لم تكن في يثرب زمن نبوّة محمّد كنف، «... وكان النّساء يخرجن باللّيل إلى النّخل فيقضين حوائجهن، يعني التبرّز، فكان المريب يرصد النّساء باللّيل فيعرض عليها ويغمزها ...»[6]. وكان المنافقون يكثرون المجيء إلى بيوت محمّد المجاورة

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ١٠٥٨.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ١٠٥٩ ـ ١٠٦٠.

(٣) اليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، م ٢، ص ٤١.

(٤) الطّبري: **جامع البيان...**، م ١٢، ج ٢٢، ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٥) نفسه، م ١٢، ج ٢٢، ص ٥٣.

(٦) مقاتل بن سليمان: **تفسير القرآن**، م ٣، ص ٥٤ ـ ٥٥.

للمسجد، ويطيلون المكوث عنده، ويحادثون أزواجه، وكان ذلك يؤلمه. جاء في النّص القرآني: «يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِي إلاّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامِ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لاَمُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحِي مِنَ الحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا» (الأحزاب ٣٣/ ٥٣).

آذى المنافقون محمّداً في أزواجه إذن، واتّهموا عائشة بنت أبي بكر أصغرهنّ وأحبّهنّ إليه بصفوان بن معطّل السّلمي، وتُعرف هذه الحادثة في المصادر بـ"حديث الإفك". جاء في النّص القرآني: «إِنَّ الذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (النّور ٢٤/ ١١). وعندما تزوّج محمّد من زينب بنت جحش التي كانت تحت دعيّه زيد بن حارثة أشاع المنافقون أنّه نكح زوجة ابنه، واتّخذوا من ذلك سبباً للنيل منه. جاء في النّص القرآني: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ...» (الأحزاب ٣٣/ ٤٠).

آذى المنافقون محمّداً في أزواجه، وسخروا من بعض مبادئه وتعاليمه الدّينيّة. «قال ابن إسحاق: وحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة أنّ رجلاً منهم كان يُدعى حاطب بن أميّة بن رافع، وكان له ابن يقال له يزيد بن حاطب أصابته جراحة يوم أُحد، فأتي به إلى دار قومه وهو بالموت، فاجتمع إليه أهل الدّار، فجعل المسلمون يقولون له من الرّجال والنّساء: أبشر، يا ابن حاطب، بالجنّة قال: وكان حاطب شيخاً قد عسا في الجاهليّة، فنجم يومئذ نفاقه، فقال: بأيّ شيء تبشّرونه بجنّة من حرمل ؟! أغررتم، واللّه، هذا الغلام من نفسه»[1]. واتّخذ المنافقون دين محمّد موضوع ضحك وهزل. جاء في النّص القرآني: «يَحْذَرُ المُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولَنَّ كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ» (التوبة ٩/ ٦٤ ـ ٦٥).

استهزأ المنافقون من دين محمّد، واستغلوا عدّة حوادث للتشكيك في صدق نبوّته: «وزيد بن اللّصيت (...) وهو الذي قال حين ضلّت ناقة رسول اللّه صلّى اللّه

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٤٣.

عليه وسلّم يزعم محمّد أنّه يأتيه خبر السّماء وهو لا يدري أين ناقته»[1]. وشكّكوا في صدق وعوده: «... وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتّى ظنّ المؤمنون كلّ ظنّ ونجم النّفاق من بعض المنافقين حتّى قال معتّب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»[2]. جاء في النّص القرآني: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا» (الأحزاب ٣٣/ ١٢). وكانت أصوات المنافقين ترتفع مع كلّ هزيمة عسكريّة مشكّكة في صدق وعود محمّد. جاء في النّص القرآني: «... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ...» (آل عمران ٣/ ١٥٤).

استهزأ المنافقون من محمّد، وأثاروا الشّكوك حول صدق وعوده وحقيقة نبوّته، وتذكر مصادر عديدة أنّهم حاولوا قتله وهو في طريق العودة من تبوك: «... فلمّا أصبح قال له أسيّد بن الحضير: يا رسول اللّه ما منعك البارحة من سلوك الوادي فقد كان أسهل من العقبة ؟ قال: يا أبا يحيى، أتدري ما أراد المنافقون وما اهتمّوا به ؟ قالوا: نتبعه في العقبة فإذا أظلم اللّيل عليه، قطعوا أنساع راحلتي، ونخسوها حتّى يطرحوني من راحلتي...»[3]. لا تقدّم المصادر أشياء ذات قيمة حول محاولة المنافقين قتل محمّد، ومن الممكن أنّ هذه الحادثة هي المتحدّث عنها في النّص القرآني: «يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» (المائدة ٥/ ١١).

آذى المنافقون محمّداً إنساناً ونبيّاً، ولم يشاركوا في تأسيس دينه في جانبه السّياسي، فلم يشاركوا في الأنشطة الحربيّة، ولم يساهموا في الإنفاق على شؤون أتباع محمّد العامة، ولم يرضوا باتّخاذه حَكَماً. كان أغلب أتباع محمّد في العهد المكّي من زمن النّبوّة ينتمون إلى قريش بالأصل أو بالحلف، وكانوا يعيشون ضمن عشائرهم، ولم يكن لهم كيان سياسي خاص بهم، وفي السّنوات الأخيرة من الفترة المكّية بدأ أبناء الأوس والخزرج يدخلون في دين محمّد بشكل كثيف، وشكّل ذلك بداية

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ١٢٥.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ١٧٧.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص١٠٤٣.

تحوّلات عميقة في تاريخ الإسلام المبكّر. في بيعة العقبة الأولى بايع محمّداً أتباعه من الأوس والخزرج على ما صار يُعرف بـ"بيعة النّساء"، يقول عبادة بن الصّامت: «بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك باللّه شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف...»[1]. وفي بيعة العقبة الثّانية بايع محمّداً أتباعه من الأوس والخزرج على إيوائه في يثرب وتوفير الحماية له[2].

عندما وصل محمّد إلى يثرب كان أغلب أتباعه من أهل مكّة قد سبقوه إليها، وشكّل المهاجرون مجموعة مترابطة لأنّهم فارقوا عشائرهم ونزلوا بعيداً عن مواطنهم الأصلية، وكان محمّد رئيساً لهم «المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين...»[3]. أمّا الأنصار فظلّوا مرتبطين بعشائرهم، وقام دستور يثرب الذي أراد محمّد أن يؤسّس وفقه أمّة المؤمنين في يثرب على عنصرين أساسيين هما العشيرة والعقيدة. فمن جهة أولى أبقى دستور يثرب للعشيرة صلاحيات كثيرة تتكفّل بمقتضاها كلّ عشيرة بأبنائها وتتحمّل مسؤولية أفعالهم، ومن جهة ثانية ميّز بين المؤمن والكافر: «ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإنّ ذمّة اللّه واحدة: يُجير عليهم أدناهم، وإنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون النّاس»[4]. لم يسع محمّد إلى تحطيم الأطر الاجتماعيّة القديمة المتمثّلة في العشيرة، وإنّما سعى إلى الحدّ من نفوذها وإلى تجاوزها، وعمل على زيادة أهميّة المعطى الدّيني في الكيان السّياسي الذي حاول تأسيسه، ودعا مختلف مكوّنات الأمّة إلى المساهمة في الدّفاع عن يثرب والتّكفّل بحمايتها ضدّ كلّ اعتداء خارجي «... وإنّ بينهم النّصر على من دهم يثرب»[5].

بدأ محمّد بعد وصوله إلى يثرب بعدّة أشهر في القيام بأنشطة حربيّة تمثّلت في التّعرّض لقوافل مكّة التّجاريّة بصفة خاصة، اقتصر الأمر في البداية على المهاجرين، ثم سريعاً ما انضمّ إليهم قسم من الأنصار، ولم تكن مشاركة قسم من الأنصار في أنشطته الحربيّة محلّ رضى عدد من رجال الأوس والخزرج. عندما استنفر محمّد أهل يثرب لاعتراض قافلة مكّة القادمة من الشّام بقيادة أبي سفيان بن حرب خرج معه معظم المهاجرين وفريق من الأنصار. وعندما تبيّن لأتباع محمّد أنّ أهل مكّة خرجوا في جيش كبير لحماية قافلتهم كره فريق منهم القتال، وأرادوا العودة إلى يثرب وتجنّب

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٤٢.
(٢) نفسه، ج ٢، ص ٢٠٥.
(٣) نفسه، ج ٢، ص ١٠٢.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ١٠٢.
(٥) نفسه، ج ٢، ص ١٠٤.

مواجهة قريش. جاء في النّص القرآني: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُم اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ» (الأنفال ٨/ ٥ ـ ٧).

كان أتباع محمّد الحاضرون في واقعة بدر قد خرجوا معه لاعتراض قافلة أبي سفيان بن حرب، وكان على محمّد أن يستشير أبناء يثرب قبل أن يقرّر قتال قريش الذين خرجوا لحماية القافلة: «... ثمّ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: أشيروا عليّ أيّها النّاس، وإنّما يريد الأنصار وذلك أنّهم عدد النّاس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول اللّه، إنّ برآء من ذمامك حتّى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّتنا نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يتخوّف ألاّ تكون الأنصار ترى عليها نصره إلاّ ممن دهمه بالمدينة من عدوّه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم، فلمّا قال ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال له سعد بن معاذ: واللّه، لكأنّك تريدنا يا رسول اللّه، قال: أجل، قال: فقد آمنا بك، وصدّقناك (...) فامض يا رسول اللّه لما أردت فنحن معك...»[(١)].

بعد واقعة بدر قام أتباع محمّد بقتل عدد من أسياد اليهود وطرد بني قينقاع من يثرب، وكانت كلّها مهمّات عسكريّة لا تتطلّب طاقات بشريّة كبيرة. وفي سنة ثلاث للهجرة وعندما تناءى إلى محمّد قدوم قريش في جيش وافر العدد استنفر جميع أتباعه من المهاجرين والأنصار لمواجهتهم، فلم يستجب له عدد من أتباعه، وخلّوا بينه وبين قومه. جاء في النّص القرآني: «وَلِيَعْلَمَ الذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اِدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُم لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ» (آل عمران ٣/ ١٦٧). وقبل الوصول إلى ميدان المعركة اختار فريق من أبناء الأوس والخزرج الانخذال عن بقيّة أتباع محمّد والعودة إلى يثرب مع عبد اللّه بن أبي، واستغلّ المنافقون هزيمة يوم أحد لحثّ أتباع محمّد على عدم المشاركة في حروبه. جاء في النّص القرآني: «الذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (آل عمران ٣/ ١٦٨).

اعتمد محمّد في حربه ضد الأعراب على الغارات والمواجهات الخاطفة، لذلك

(١) نفسه، ج ٢، ص ٢٠٥.

لم يكن في حاجة إلى عدد كبير من المقاتلين، وفي سنة خمس للهجرة تناءى إليه تحالف أهل مكّة مع قسم يُعتد به من أهل البادية ضدّه وتكوينهم جيشاً وافر العدد. اتّخذ أتباع محمّد خندقاً حول يثرب، وتولّوا المرابطة عنده، وتصدّوا لمحاولات الأحزاب اقتحامه، وتناءى إليهم نقض بني قريظة عهدهم، فاشتدّ الخوف، ودعت طائفة من المدافعين عن الخندق إلى الفرار. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن واقعة الخندق: «وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا» (الأحزاب ١٣/٣٣).

بعد حصار امتدّ عدّة أسابيع انفضّ جيش الأحزاب عن يثرب من دون قتال كبير، وفي سنة ستّ للهجرة خرج محمّد مع أتباعه من المهاجرين والأنصار إلى مكّة يريد العمرة، وساق معه الهدي. رفض أسياد قريش السّماح لأتباع محمّد بدخول مكّة، ومنعوهم من أداء العمرة، وكادت الحرب أن تنشب بين الفريقين، ودعا محمّد أتباعه إلى مبايعته على عدم الفرار والاستبسال في القتال، فرفض بعضهم مبايعته على ذلك وخلّى بينه وبين قومه[1]، وانتهت هذه الواقعة بإبرام صلح الحديبيّة بين محمّد وقريش.

أراد محمّد في سنة تسع أن يتوغّل في بلاد الشّام التي كانت خاضعة في جزء مهمّ منها لسيطرة الرّوم، ونظرا إلى خطورة هذه المغامرة الحربيّة حرص على جمع أكبر عدد ممكن من النّاس، فاستنفر أتباعه من أهل القرى والبوادي للخروج معه، فلم يستجب له فريق منهم، وأحبّوا البقاء في ديارهم لشدّة القيظ. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن هذه الواقعة: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّم أَشَدُّ حَرًا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» (التوبة ٨١/٩). لم يخرج فريق من أتباع محمّد إلى واقعة تبوك لشدّة القيظ ولبعد المسافة: «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (التّوبة ٤٢/٩). كان المتخلّفون عن واقعة تبوك من أهل المدينة ومن الأعراب: «مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ٢٧٠.

عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» (التّوبة ٩/ ١٢١). رجع أتباع محمّد من واقعة تبوك من دون قتال الرّوم، وقدم إلى محمّد عدد من المخلّفين، واعتذروا إليه، فقبل اعتذار بعضهم، وأمر أتباعه باعتزال ثلاثة من المخلّفين هم كعب بن مالك ومرارة بن الرّبيع وهلال بن أميّة، وكانوا من كبار أصحابه. يقول كعب بن مالك: «... فاجتنبنا النّاس، وتغيّروا لنا حتّى تنكّرت لي نفسي والأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف»[١]. وبعد مُضيّ شيء من الزّمن نزل القرآن بقبول توبة أولئك الثّلاثة[٢].

لم يساهم المنافقون في بناء دين محمّد في جانبه السّياسي، فلم يشاركوا في أنشطته الحربيّة، ولم يساهموا في الإنفاق على شؤون أتباعه العامة. كان محمّد في بداية استقراره في يثرب في حاجة ماسة إلى عطايا أتباعه من الأنصار خاصة لإعالة عائلته وإعالة قسم من المهاجرين. قبض المنافقون أيديهم، ولم يساهموا في الإنفاق على أتباع محمّد من الفقراء والمعوزين: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (التّوبة ٩/ ٦٧). ترك دستور يثرب لكلّ عشيرة التكفّل بإعالة أبنائها، وكان على محمّد أن يتكفّل بالمهاجرين الذين كوّنوا مجموعة شديدة الولاء له، وحثّ أتباعه من أهل مكّة ومن أهل البوادي على الهجرة إلى يثرب لتعزيز مكانته فيها، وكان فريق من هؤلاء المهاجرين يعيشون في فقر وخصاصة ويعرفون بأهل الصّفة. «كان أهل الصّفة ناساً من أصحاب رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، لا منازل لهم، فكانوا ينامون على عهد رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، في المسجد ويظلّون فيه ما لهم مأوى غيره، فكان رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، يدعوهم إليه باللّيل إذا تعشّى فيفرّقهم على أصحابه، وتتعشّى طائفة منهم مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم...»[٣]. وحثّ المنافقون أتباع محمّد من أثرياء الأوس والخزرج على عدم الإنفاق على المهاجرين حتّى يرحلوا عن يثرب: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ» (المنافقون ٦٣/ ٧). واستهزؤوا من أتباع محمّد الذين سخّروا قسماً من أموالهم لخدمة أنشطة أتباع محمّد العامة: «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي

---

(١) نفسه، ج ٤، ص ١٥٠.

(٢) التّوبة ٩/ ١١٨ ـ ١١٩.

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٥٥.

الصَّدَقَاتِ وَالذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (التوبة ٩/ ٨٠).

بالإضافة إلى تبرّعات الأثرياء مثّلت غنائم الأنشطة الحربيّة مصدراً مهمّاً من مصادر المال العام الذي كان محمّد يتولى الإنفاق منه على أهل بيته وعلى الفقراء من أتباعه وعلى أنشطته العسكريّة. كانت العادة في الجاهليّة أن يُعطى سيّد القبيلة ربع الغنائم، وبدءاً من واقعة بدر جرى تخصيص خُمس الغنائم لمحمّد: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (الأنفال ٨/ ٤١). مثّلت غنائم الأنشطة العسكريّة مصدر دخل جيّد لمحمّد الذي أصبح مسؤولاً عن المال العام، وبعد طرد بني النّضير من يثرب كانت له وحده أموالهم الكثيرة: «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فللّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي القُرْبَى وَ اليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...» (الحشر ٥٩/ ٧). قسّم محمّد غنائم بني النّضير بين أتباعه من المهاجرين حتّى لا يبقوا عالة على الأنصار، وأعطى من تلك الغنائم بعض فقراء الأنصار.

مثّلت تبرّعات الأثرياء وغنائم الأنشطة العسكريّة أهم مصدر للمال العام الذي كان محمّد ينفق منه على شؤون أتباعه العامة ويجهّز به الجّيوش ويشتري السّلاح والخيل ويعطي الوفود، وتعهّد فريق من الأعراب الذين دخلوا في دين محمّد بصورة جماعيّة بدفع أموال لمحمّد تمثّلت أساساً في عدد من الإبل والمواشي، وكلّف محمّد في زمن ما بعد واقعة أحد بعض أتباعه بجمع هذه الأموال التي صارت تُعرف بالصّدقة، ولم تكن طريقته في التّصرّف في هذه الأموال محلّ رضى المنافقين: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ» (التوبة ٩/ ٥٨).

لم يساهم المنافقون في الإنفاق على شؤون أتباع محمّد العامة، ولم يكونوا راضين عن دفع الصّدقة إليه ولا عن طريقته في التّصرّف في الأموال العامة، ولم يرضوا باتّخاذه حكماً، وظلّوا يتحاكمون إلى الكهّان وإلى عدد من أسياد اليهود. جاء في النّص القرآني: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» (النّساء ٤/ ٦٠ ـ ٦١).

ينحدر معظم المهاجرين من قريش، وكان لأغلبهم إسلام قديم، ومثّلوا مجموعة متميّزة شديدة الارتباط بمحمّد، ولهذا رضوا بجعل أمر الحكم بينهم إليه، وعندما توفّي أسعد بن زرارة سيّد بني النّجّار بعد قدوم محمّد إلى يثرب بزمن قصير فوّض بنو النجار أمرهم لمحمّد، «فقالوا له: يا رسول اللّه، إنّ هذا الرّجل قد كان منّا حيث قد علمت، فاجعل منّا رجلاً مكانه، يُقيم من أمرنا ما كان يقيم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لهم: أنتم أخوالي وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم...»[1].

كانت العشيرة هي التنظيم الاجتماعي الأشدّ حضوراً في يثرب زمن قدوم محمّد إليها، وكان على رأس كلّ عشيرة سيّد يتولّى إدارة شؤونها العامة، وتتكوّن الأمّة التي سعى محمّد إلى تأسيسها من عشائر الأوس والخزرج ومن المهاجرين، وأعطى 'دستور يثرب' لمحمّد سلطة فضّ النّزاعات بين مختلف مكوّنات الأمّة، «وإنّه ما كان بين أهل هذه الصّحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإنّ مردّه إلى اللّه عزّ وجلّ وإلى محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم...»[2]. كان بين عشائر الأوس والخزرج تاريخ طويل من الأحقاد والعداوات، لذلك رضي أسيادها بمحمّد حَكَماً لتجنّب تجدّد النّزاعات بينهم، ومع مرور الزّمن ومع تزايد نسبة المهاجرين تنامى نفوذه في يثرب، وكان محمّد حريصاً على استشارة أسياد الأوس والخزرج قبل اتّخاذ القرارات، فقبل أن يأمر بقتل كعب بن الأشرف استشار سعد بن معاذ أحد أسياد الأوس حلفاء بني النّضير[3]، وجعل له أمر الحكم على بني قريظة أيضاً، واختار أن يكون حلفاء اليهود من أتباعه هم الذين يتولّون قتلهم، وتولّى محمّد بنفسه قيادة أتباعه في أنشطتهم الحربيّة، فساهم ذلك بشكل رئيسي في تعزيز مكانته في يثرب، وحثّ النّص القرآني في آيات كثيرة أتباع محمّد على طاعته: «من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» (النّساء ٤/ ٧٩).

لم يشارك المنافقون في بناء دين محمّد في جانبه السّياسي، وحاولوا أن يفصلوا بين مكانة محمّد الدّينيّة ومكانته السّياسيّة، وفي زمن واقعة تبوك حاول المنافقون بناء مسجد خاص بهم، ويُعرف هذا المسجد في المصادر بمسجد ضرار. جاء في النّص القرآني: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (التّوبة ٩/ ١٠٧). يبدو أنّ المنافقين حاولوا من خلال مسجد ضرار أن يفصلوا بين

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ١٠٧.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٨٧.

الممارسة الدّينيّة والولاء السّياسي، ولهذا واجههم محمّد بشدّة: «قال ابن إسحاق: (...) فلمّا نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مالك بن الدّخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي، أخا بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه. فخرجا سريعين حتّى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدّخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتّى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النّخل فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدّان حتّى دخلاه وفيه أهله، فحرّقاه، وهدماه، وتفرّقوا عنه...»[1].

لم يكن المنافقون جماعة مخصوصة لديها وعي ذاتي بتميّزها، فعبد اللّه بن أُبي يُقدّم في المصادر على أنّه سيّد المنافقين لأنّه أكثرهم نشاطا ضد محمّد، ولم يكن هو الذي يحدّد لهم ما يعملون، فهم لم يتحرّكوا بصورة منظّمة، وكانوا مبثوثين بين أتباع محمّد ولم يكن لهم كيان مستقل. ولهذا السّبب لا تقدّم المصادر عنهم إلا معلومات قليلة مفادها أنّهم كانوا في أغلبهم من الشّيوخ وذوي الأسنان: «وكان قيس غلاماً شاباً، وكان لا يُعلم في المنافقين شاب غيره»[2]، وكانوا من الأثرياء وأصحاب الأموال. جاء في النّص القرآني في سياق الحديث عن المنافقين: «وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا...» (التوبة ٩/ ٨٥). كان المنافقون من الشّيوخ أصحاب الأموال وهذا ما جعلهم يتبوّؤون مكانة اجتماعيّة مهمّة، فعبد اللّه بن أبي هو سيّد عشيرة بلحبلى، وكان الجّد بن قيس سيّد عشيرة سلمة قبل أن يغلبه عليها بشر بن البرّاء بن معرور[3].

رفض المنافقون الجانب السّياسي من تجربة محمّد النّبويّة، فلم يرضوا باتّخاذه حكماً، ولم يرضوا بأن يكون له جزء من أموالهم، ولم يشاركوا في أنشطة أتباعه العامة، ورفضوا تسخير إمكانياتهم لخدمة الكيان السّياسي الذي سعى إلى تأسيسه. وآذى المنافقون محمّداً نبيّاً وإنساناً، فسخروا من تعاليمه الدّينيّة، واتّخذوها موضوع إضحاك وهزل، وتعرّضوا بالسوء إلى أزواجه وصحابته المقرّبين.

لم يتحرّك المنافقون ضدّ محمّد بصورة منظّمة: «عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً»[4]

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ١٢٧.

(٣) ابن عبد البرّ: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ق ١، ص ٢٦٦.

(٤) مسلم: **صحيح مسلم**، ج ٤، ص ٢١٤٦.

واتّخذت حركة النّفاق عدّة أشكال، وكان التّذبذب هو ميزة المنافقين الأساسيّة. جاء في النّص القرآني: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً» (النّساء ٤/ ١٤٢ ـ ١٤٣). ولم يكن للمنافقين مشروع سياسي أو ديني واضح يمكن أن يشكّل بديلاً لما يطرحه محمّد. يقول أحد أسياد اليهود عن عبد اللّه بن أبي: «وابن أُبي لا يهودي على دين يهود ولا على دين محمّد ولا على دين قومه»[1]. وتحرّك المنافقون في أغلب الأحيان بصورة فرديّة، وامتازوا بالامتناع والرّفض، ولم تكن لهم المبادرة في صنع الأحداث.

كانت حركة النّفاق محكومة بعدّة معطيات تمسّ جوانب عديدة من حياة يثرب الاجتماعيّة والاقتصاديّة. كان اقتصاد يثرب يقوم بشكل أساسي على النّشاط الزّراعي المتمثّل في زراعة النّخيل والحبوب، وكانت المساحات الصالحة للزّراعة ومنابع المياه محدودة وأغلبها عند اليهود ولهذا لم يؤدّ النّشاط الزّراعي إلى ظهور تفاوت طبقي واسع بين سكّانها، ولم تنشأ طبقة شديدة الثّراء بين الأوس والخزرج، وكان وجود العبيد فيها قليلاً، وكان أبناء الأوس والخزرج من الأشراف وسائر النّاس يقومون بالأنشطة الزّراعيّة بأنفسهم، ولم يكونوا يملكون إلا عدداً محدوداً من الخيل أثمن الأموال في جزيرة العرب زمن النّبوّة.

من النّاحية الاجتماعيّة امتازت يثرب بوفرة عشائر الأوس والخزرج، وكانت في أغلبها عشائر قليلة العدد، ولم يكن الولاء للعشيرة قويّاً. يظهر ذلك في خروج عدد من النّاس من عشائرهم وانضمامهم إلى عشائر أخرى ضمن ما يعرف بالجوار، ويظهر تراجع حضور العشيرة في يثرب في قيام تجمّعات بشريّة لا على أساس القرابة الدّمويّة وإنّما على أساس الاشتراك في النّزول في مكان واحد مثل أهل راتج وأهل العالية، وأدّت النّزاعات حول الأرض إلى جعل العشيرة تحافظ على بعض فاعليتها وتظلّ عنصراً فاعلاً عند الشّدائد. ومكّن حضور اليهود عرب يثرب من تطوير معارفهم واكتساب ثقافة دينيّة متميّزة، فانتشر القول بالتّوحيد بين أسياد الأوس والخزرج، وتغيّرت شروط السّيادة وأصبحت الكتابة أحد شروطها، «وكان الكامل عندهم في الجاهليّة وأوّل الإسلام الذي يكتب بالعربيّة ويحسن العوم والرّمي»[2].

انتشر الإسلام في يثرب بشكل سريع، ودخل أبناء الأوس والخزرج فيه بشكل

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٦٩.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٣، ص ٥٤٢.

فردي أساساً[1]. فالذين يعرفون بالنّقباء لم يكونوا في أغلبهم من الأسياد ولم يكن لهم دور بارز في صنع الأحداث في يثرب قبل بيعة العقبة الثّانيّة أو بعدها، وحاول أبو عامر الرّاهب أحد أسياد الأوس مواجهة محمّد، فاستنفر أقاربه لذلك، فلم يستجيبوا له، فرحل عن يثرب، وقاتل مع أهل مكّة ومع أهل الطّائف، ثمّ هاجر إلى الشّام، وكان عبد اللّه بن أبي يدرك أنّ دعم الخزرج له ليس مطلقاً، لذلك لم يمض كثيراً في عداوة محمّد، «... فقال عبد اللّه بن أبي حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

مَتَى مَا يَكُنْ مَوْلاكَ خَصْمَكَ لاَ تَزَلْ   تَـذِلُّ وَ يَـصْـرَعْـكَ الـذيـنَ تُـصَـارِعُ

وَهَلْ يَنْهَضُ البَازِي بِغَيْرِ جَنَاحِهِ ؟   وَإِنْ جُذَّ يَوْمًا رِيشُهُ فَهُوَ وَاقِعُ»[2]

لم تكن للمنافقين عصبيّة قبليّة قويّة تدعمهم، ولم يكن لهم أيّ مشروع سياسي أو ديني يمكن أن يوفّر لهم دعم قاعدة اجتماعيّة قويّة، وكانت نسبة المهاجرين من مجموع أتباع محمّد النازلين بيثرب تتنامى باستمرار، لذلك تراجعت الحركة المعارضة لتنامي نفوذ محمّد السّياسي بسرعة، وأصبح النّفاق مرتبطاً بالضّعف وعدم المشاركة. تعامل محمّد مع المنافقين في بداية نزوله بيثرب بكثير من التسامح، وغضّ الطرف عن كثير من ممارساتهم، ومع تقدّم الزّمن نحا موقفه منهم إلى التشدّد، وفي آخر زمن النّبوّة نزل القرآن بتحريم الصّلاة عليهم، وعُوملوا معاملة قريبة من معاملة المرتدّين.

خاتمة

كان المنافقون عددا من الشّيوخ وأصحاب الأموال الذين كانوا يتولّون شؤون عشائر الأوس والخزرج زمن قدوم محمّد إلى يثرب، وكان عبد اللّه بن أُبي بن سلول أبرزهم. لم يرض المنافقون بتعاظم دور محمّد السّياسي في قريتهم، فعملوا على الإساءة إليه إنساناً ونبيّاً، فحاولوا بثّ الفرقة بين أتباعه عبر إثارة العصبيّات القبليّة والعداوات القديمة، ولم يرضوا بالاحتكام إليه، ولم يدفعوا الصّدقة إليه، ولم يشاركوا في أنشطته الحربيّة، واستهزؤوا من مقالاته، واستغلوا بعض الحوادث للنيل من أزواجه.

تحرّك المنافقون في أغلب الأحيان بصورة فرديّة، ولم يتوحّدوا في مواجهة محمّد، ولم يكن لهم مشروع سياسي أو ديني واضح، فلم يحظوا بمساندة كلّ أبناء

---

(١) Goto (A): «Al Madina at the time of Muhammed's coming», *Orient* (Japan), vol XX 1984, p. 36.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٧٩.

يثرب. وبعد أن خسر المنافقون حلفاءهم من يهود يثرب وتزايدت نسبة المهاجرين من مجموع سكّانها تراجعت ظاهرة النّفاق وأصبح المنافقون في موقع ضعف، وتراجعت قدرتهم على الفعل، وانفضّ النّاس من حولهم، ولم يعودوا يشكّلون خطراً كبيراً على الكيان الإسلامي. تجنّب محمّد في بداية نزوله يثرب مواجهة المنافقين، وسكت عن كثير من تصرّفاتهم، ومع مرور الزّمن نحا موقفه منهم إلى التّشدّد، فأخرجهم من مسجده، وهدّدهم بالطّرد من يثرب، ونهى عن المشاركة في دفنهم والصّلاة عليهم.

يعود نجاح محمّد في جزء مهمّ منه إلى ما يتمتّع به من هيبة ونفوذ شخصي وإلى وحدة أتباعه وتضامنهم، ولهذا مثّلت حركة النّفاق خطراً كبيراً على دينه، إذ كاد المنافقون في أكثر من مناسبة أن يتسبّبوا في إحداث فتنة بين أتباعه. وكانت سخرية المنافقين من محمّد والتعرّض لنسائه والتّطاول عليه والاستهانة به مصدر ألم كبير له، ولهذا ضيّق من حرية نسائه، وألزمهن بلباس خاص.

خاتمة الباب الأوّل

بدأ محمّد دعوته في مكّة، وظلّ فيها سنوات عديدة يدعو أهلها، فلم يستجيبوا في أغلبهم له، فهاجر إلى يثرب، وظلّ فيها إلى أن توفّاه الأجل. فهاتان البلدتان احتضنتا تجربة النبوّة، وواجه محمّد من سكّانهما حركة معادية بدأت بعد مضيّ شيء من الزّمن على إعلانه نبوّته، واستمرّت إلى آخر عهد النبوّة. كان أعداء محمّد في مكّة ويثرب من الأسياد والأشراف أصحاب الأموال ومن ذوي الأسنان، ويمكن تقسيمهم إلى مجموعتين: مجموعة **أولى** تضمّ أسياد قريش وأسياد الأوس والخزرج، ومجموعة **ثانية** تضمّ أسياد اليهود، تشترك عشائر قريش وعشائر الأوس والخزرج في أنّ فريقاً من أبنائها قد دخلوا في دين محمّد وكانوا من أصحابه المقرّبين، أمّا اليهود النازلون بيثرب فتمسّك أغلبهم بدينهم.

تحرّك أعداء محمّد في مكّة ويثرب ضدّه دفاعاً عن منزلتهم الاجتماعيّة ومصالحهم الاقتصاديّة ومعتقداتهم الدّينيّة، وكانت أنشطتهم المعادية له متنوّعة تشمل ما هو نفسي وذهني وما هو مادي، فهم قد جادلوا محمّداً وكذّبوه وسخروا من تعاليمه الدّينيّة وطالبوه بالمعجزات لإثبات صدق نبوّته وعيّروه بأنّه أبتر وآذوا بناته وأزواجه وعدداً من أقاربه وحاولوا فتنة أتباعه وبثّ الفرقة بينهم بإحياء العداوات والضغائن القديمة، وخاضوا ضد أتباعه عدّة مواجهات حربيّة.

كان محمّد يدرك منذ البداية أنّه لن يستطيع النّجاح في مشروعه إلا بالانتصار على أعدائه في مكّة ويثرب، ولهذا رحل عن مكّة عندما وصلت دعوته فيها إلى أفق يكاد يكون مسدوداً، وهاجر إلى يثرب، وحثّ أتباعه من أهل مكّة وأهل البوادي على الهجرة إليها، لأنّ تزايد عدد المهاجرين من شأنه أن يؤدّي إلى تزايد قدرته على مواجهة أعدائه. تجنّب محمّد مواجهة المنافقين لقرابتهم بأنصاره، ومع مرور الزّمن ولأسباب عديدة تراجعت ظاهرة النفاق، وواجه محمّد اليهود بكلّ صرامة وشدّة، فطرد أغلبهم من يثرب، وقتل عدداً كبيراً منهم، وتعامل بكثير من التّسامح مع أعدائه من أهل مكّة بعد أن غلب عليها.

كانت حركة أعداء محمّد من أهل مكّة وأهل يثرب محكومة بعدّة معطيات تشمل خصائص البلدتين اللّتين عاشوا فيهما. كانت مكّة تعيش زمن نبوّة محمّد انسجاماً على

المستويين الاجتماعي والدّيني، إذ كان أغلب أهلها من قبيلة قريش، وكانوا في أغلبيتهم السّاحقة على دين واحد، ولذلك لم تحدث بينهم انقسامات خطيرة عند مواجهة الحدث الإسلامي. لم يستجب معظم أهل مكّة لدعوة محمّد، وكانت أنشطة أسياد مكّة ضد أبنائها الذين فارقوا دين الآباء غير عنيفة في معظمها، وتجنّبوا قتلهم يوم أُحد، ولم تصل العلاقة بين الفريقين إلى حدّ القطيعة التّامة، وظلّ الإحساس بوحدة الانتماء قوياً. أمّا يثرب فكانت تعيش زمن نبوّة محمّد انقسامات كبيرة على المستوى الدّيني والاجتماعي، إذ كان فريق من أهلها على الوثنية وفريق آخر على اليهوديّة، وكانت فيها خمس قبائل كبيرة (قينقاع، النّضير، قريظة، الأوس، والخزرج)، وكان بين هذه القبائل تاريخ طويل من الحروب والضّغائن، وستنعكس انقسامات يثرب الدّاخليّة على طريقة تفاعل أهلها مع الحدث الإسلامي، إذ اختار معظم اليهود البقاء على دينهم، ودخل معظم أبناء الأوس والخزرج في دين محمّد، ولم يتوحّد أعداء محمّد من أهل يثرب في مواجهته، ولم يستطع المنافقون أن يمضوا طويلاً في عدائهم له لفقدانهم دعم عشائرهم، ومع مرور الزمن ضعفت حركتهم، وتراجع تأثيرهم في النّاس. أمّا المواجهة بين اليهود ومحمّد فأخذت نسقاً تصاعدياً، وانتهت إلى مواجهات حربيّة، ولم تتوحّد القبائل اليهوديّة الكبرى في حربها ضدّ أتباع محمّد.

كان أعداء محمّد من أهل مكّة وأهل يثرب قريبين منه، وهذا ما جعلهم يؤثّرون بشكل مباشر في مسار دعوته وفي تشكّل بعض خصائص دينه، فأنشطة سادة مكّة أجبرته على الرّحيل عنها، وموقف يهود يثرب منه كان سبباً قوياً في تحويله القبلة إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس، وألزم محمّد أزواجه بلباس خاص، وحدّ من حضورهن في الفضاءات العامّة بسبب تصرّفات المنافقين، وكان القرآن في جزءٍ منه جدالاً لأعداء محمّد من أهل مكّة ويثرب وبياناً لفساد معتقداتهم وذمّاً لأعمالهم، ورفض الكثير من سكّان بوادي الحجاز الدّخول في دين محمّد بسبب قتاله لقومه أهل الحرم.

الباب الثاني

أعداء محمّد
خارج مكّة ويثرب

مقدّمة الباب الثاني

بدأ محمّد دعوته في مكّة، وظلّ يدعو أهلها إلى دينه طيلة سنوات عديدة، ثم هاجر إلى يثرب، واتّخذها مقرّاً له إلى أن توفّي. ناصب قسم من أهل مكّة ويثرب محمّداً العداء، وعملوا على إفشال مشروعه، وتابعه قسم آخر من أهل هاتين القريتين، وعملوا معه على تأسيس كيانه السّياسي والذّب عنه، ولم يقتصر أعداء محمّد على أهل مكة ويثرب، وإنّما انخرطت في الحركة المعادية له عدّة تجمّعات بشريّة تقيم خارج هاتين القريتين.

أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب مجموعات كثيرة متفاوتة القوّة تنزل في مساحات شاسعة من جزيرة العرب وبلاد الشام، وتنتمي إلى أصول مختلفة، وقد اخترنا توزيعهم على أربع مجموعات: مجموعة أعداء محمّد من أهل الطّائف؛ ومجموعة أعداء محمّد من أعراب الحجاز؛ ومجموعة أعداء محمّد من أهل خيبر وأهل بلاد الشام؛ ومجموعة أعداء محمّد من أهل اليمن وأهل اليمامة. وقد جمعنا بين خيبر وبلاد الشام لما بين المكانين من قرب جغرافي وتواصل على مستوى السكّان، وجمعنا بين أعداء محمّد في اليمن وأعدائه في اليمامة لما بين حركتيهما من أوجه تشابه.

كان أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب بعيدين عنه، ولهذا تمثّلت أنشطتهم المعادية له في الأنشطة الحربيّة بصفة أساسيّة، بدأت وقائعهم ضدّه بعد نزوله يثرب بزمن قصير، وظلت قائمة إلى زمن وفاته. فسيرة محمّد أثناء الفترة المدنيّة في جانب كبير منها هي سلسلة من الوقائع الحربيّة، وهذا ما جعل كلمة "المغازي" تدلّ عند بعض القدامى على السّيرة النبويّة كلّها، ثم تمحضت لتدلّ على الأنشطة الحربيّة التي ترأسها محمّد، واستقلّت بمؤلّفات خاصة أشهرها **كتاب المغازي** لمحمّد بن عمر الواقدي (توفّي سنة ٢٠٧ للهجرة / ٨٢٢ للميلاد). وتتخذ كتب السّيرة والمغازي من محمّد مركز الكون السّردي في مختلف الأخبار التي تسوقها، لذلك تجدها لا تقدّم إلا أشياء قليلة عن أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب، فهم لا يحضرون في الأخبار عادة إلاّ عند المواجهة الحربيّة، أمّا بقيّة تفاصيل حياتهم فلا نعرف عنها إلاّ الشيء القليل. هذا ولا تحظى كلّ أنشطة محمّد الحربيّة بنفس الأهميّة، إذ تتوسّع المصادر في رواية وقائعه ضد أهل مكّة وضد أهل يثرب، ولا تقدّم إلاّ الشيء القليل عن وقائعه ضد غيرهم،

فالمساحة النصيّة المخصّصة لواقعة بدر في مختلف المصادر أكبر بكثير من المساحة النصيّة المخصّصة لواقعة حنين، أمّا ما جاء في المصادر حول واقعة مؤتة فقليل جدّاً. وتتميّز أخبار أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب في جزء مهمّ منها بالتّعميم وعدم الدقّة والميل إلى المبالغة وتوظيف العجيب والخارق. وقد اختلف الرّواة حول أخبار أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب أكثر من اختلافهم حول أخبار أعدائه من أهل هاتين القريتين، ويعود ذلك إلى أنّ أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب كانوا بعيدين عنه، ولم تكن لهم نفس مكانة أبناء مكّة وأبناء يثرب في صنع الأحداث بعد زمن النّبوّة.

الفصل الأوّل

أعداء محمّد من أهل الطّائف

مقدّمة

لا تولي المصادر الطّائف نفس الأهميّة التي توليها لبقيّة قرى الحجاز (مكّة ويثرب) ويعود ذلك إلى أسباب عديدة منها أنّ الطّائف لا تضمّ مقدّسات إسلاميّة، ولم تكن لأهلها مساهمة ذات شأن في صُنع الأحداث في العهد النّبوي. فالطّائف لم تخضع لمحمّد إلاّ في زمن متأخّر من العهد النّبوي، ولم تكن لأهلها نفس مكانة أهل مكّة ويثرب في صنع أحداث التّاريخ الإسلامي بعد عهد النبوّة، فلم تحظ بمؤلفات مستقلة، ولم تحتفظ الذّاكرة الجماعيّة إلاّ بأخبار قليلة عنها.

كان أهل مكّة يتردّدون على الطّائف بكثرة، وكانت لفريق منهم أملاك فيها، وتذكر مصادر عديدة أنّه كانت لعبد المطّلب جدّ محمّد أموال بالطائف[1] ويبدو أنّه لم يكن لمحمّد نصيب من هذه الأموال. والظّاهر أنّه لم تكن له قبل تجربة النّبوة علاقات موسّعة مع أهل الطّائف، وتذكر روايات قليلة أن زينب بنت محمّد كانت متزوّجة من أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان الثقفي وتنزل الطّائف[2] ولكن أغلب الرّوايات تذكر أن زينب بنت محمّد كانت متزوّجة من أبي العاص بن الرّبيع أحد بني عبد شمس، ومن الممكن أنّ لزوج زينب القرشي أرضاً بالطّائف وأنّها كانت تقيم فيها شطراً من السّنة.

تقع الطائف قريباً من مكّة، وكانت لأهلها علاقات واسعة بقريش، ولم تلق دعوة محمّد بينهم استجابة، فهاجر أتباعه إلى الحبشة البعيدة ثم إلى يثرب. وكان لأهل الطائف أنشطة معادية لمحمّد، ويمكن أن نقسّم هذه الأنشطة إلى فترتين: الفترة الأوّلى تمتدّ إلى زمن خضوع مكّة لمحمّد، وفيها نصر أهل الطّائف قريشاً ضده، الفترة

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٨٧. (٢) اليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، م ٢، ص ٤٢.

الثانية تبدأ بفتح مكّة وفيها تحالف أهل الطّائف مع الأعراب وقاتلوا أتباع محمّد في واقعة حنين، وبعد أن انهزموا في هذه الواقعة تحصّنوا بقريتهم، ومنعوا أتباع محمّد من اقتحامها، ولم يقبلوا بالدّخول في دين محمّد إلا في زمن متأخّر من عهد النبوّة.

١ ـ أهل الطّائف ينصرون قريشاً

تقع الطّائف غير بعيد عن مكّة من جهة الجَنوب الشّرقي في منطقة مرتفعة تعرف تساقطات مطرية جيّدة، وهذا ما جعلها تعرف نشاطاً زراعياً. كانت الأراضي المحيطة بها تنتج الحبوب وأنواعاً عديدة من الخضر والفواكه، واشتهرت الطّائف بزراعة الكروم وإنتاج العسل[١]، وتمتاز المرتفعات المحاذية لها بغطاء نباتي جيّد أتاح لسكّانها مراعي جيّدة ووفرة في الخشب والفحم، ومكّنت زراعة الكروم الطّائف من إنتاج كمّيات جيّدة من الخمور، وازدهرت فيها بعض الحرف والصّناعات مثل معالجة المعادن وإنتاج القار[٢]. كما اشتهرت بتحويل الأدم، «وجميع عملهم دباغ الأدَم»[٣]. وكانت سوق عكاظ تقع على مقربة منها، «وقال الأصمعي: عكاظ نخل في واد، بينه وبين الطّائف ليلة، وبينه وبين مكّة ثلاث ليال»[٤]. وكان ما في عكاظ من نخيل لثقيف[٥]. وبالإضافة إلى الزّراعة والرّعي كان لأهل الطّائف نشاط تجاري مُعتبر، إذ سيّر أسيادها رحلات تجاريّة في اتّجاه الشّام ومصر واليمن، وكانت الطّائف مركزاً ماليّاً، وكان أسيادها صيارفة تشمل أنشطتهم البوادي المحيطة بها ومكّة.

كانت للطائف مصادر ثروة متنوّعة، وهذا ما جعلها تتمتّع بدرجة جيّدة من الرّخاء المادي، «وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً...»[٦] وينتمي معظم أهلها إلى قبيلة ثقيف التي تنحدر حسب أشهر الرّوايات من هوازن أحد فروع مجموعة قيس عيلان، وتنقسم هذه القبيلة إلى مجموعتين: الأحلاف وبني مالك، وكان قوم من اليهود ينزلون الطّائف مع ثقيف، وكانوا أقلّية[٧] ولم يكن لهم دور في صنع الأحداث زمن النّبوّة، وكان قسم من أهلها على النّصرانيّة، وكانوا في معظمهم من العبيد

(١) Lecker (M): «al-Ta'if», *E I 2*, T X, p. 125.

(٢) Lammens (H): *La cité arabe de Taif*, pp. 225 - 226.

(٣) ابن المجاور: **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر**، ص ٢٥.

(٤) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٤، ص ١٤٢.

(٥) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ٢٢، ص ٦٢.

(٦) الجاحظ: **كتاب الحيوان**، ج ٤، ص ٣٨٠.

(٧) البلاذري: **فتوح البلدان**، ص ٦٤.

والموالي. وكان أغلب سكّان الطّائف على الوثنيّة، وكانوا يعظّمون عدّة آلهة أعظمها اللاّت، وكان مقامها بالطّائف، وينتمي سدنتها وحجابها إلى بني مالك، وتعظّم ثقيف الكعبة، وتشترك مع قريش في الانتماء إلى "الحمس"[1]. وكانت علاقة الأحلاف بقريش جيّدة، وكان عدد منهم يعيشون في مكّة حلفاء لقريش، وكانوا يتمتّعون بمكانة متميّزة، فالأخنس بن شريق الثقفي تولّى رئاسة عشيرة زهرة بن كلاب، وكان العلاّء بن جارية الثّقفي أحد أشراف مكّة، وكان عروة بن مسعود سيّد الأحلاف صديقاً لقريش كثير التردّد على مكّة،. وكانت الطائف مصيف قريش، وكانت لأسيادهم ممتلكات فيها تتمثّل في منابع مياه وكروم، وكانت لهم مع عدد من أسياد الأحلاف أنشطة تجاريّة مشتركة[2].

لم يدخل أبناء ثقيف المقيمون في مكّة والمتردّدون عليها في دين محمّد، وكان الأخنس بن شريق الثقفي أحد أبرز أسياد مكّة الذين استنكروا أن ينزل الوحي من السّماء على محمّد ورأوا أنّ بعض أهل الطّائف أجدر منه أن تخاطبه السّماء: «وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» (الزخرف ٤٣/ ٣٠).

هاجر أتباع محمّد إلى الحبشة البعيدة الواقعة في الضفة الأخرى من بحر القلزم، ولم يهاجروا إلى الطّائف القريبة. وعندما ضاقت بمحمّد السّبل في مكّة ذهب إلى الطّائف بحثاً عمّن يصدّقه من أهلها أو يتكفّل بحمايته ليبلغ رسالته. اتّجه إلى نفر من أسياد الأحلاف أصدقاء قريش لاعتقاده أنّهم سيكونون أكثر من غيرهم رحمة به، وخاب أمله فيهم. لم يبد أهل الطّائف تعاطفاً مع محمّد، ووقفوا منه موقفاً معادياً، فـ «أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه، ويصيحون به حتّى اجتمع عليه النّاس...»[3]. أساء أهل الطّائف معاملة محمّد بشكل تأذّى منه من كان فيها من أبناء قريش، وعاد محمّد إلى مكّة من دون تحقيق أي شيء، ولا شكّ في أنّ خبر ما جرى له قد تناءى إلى أسيادها، فزادهم إصراراً على معاداته. قبل أسياد الأوس والخزرج ما رفضه أسياد ثقيف، وهاجر محمّد إلى يثرب، وأسّس مع أتباعه كياناً سياسيّاً سيأخذ مجال نفوذه في التّوسّع، ومن البيّن أنّه لم تكن لأهل الطّائف بأهل يثرب علاقة متينة، لذلك لم يهتمّوا بما كان يجري فيها من تحوّلات.

لم يمض زمن طويل على قدوم محمّد إلى يثرب حتّى بدأ أتباعه يعترضون

(١) ابن حبيب: **كتاب المحبّر**، ص ١٧٨.
(٢) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ١٣، ص ٢٢٩.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٣١.

قوافل مكّة التجارية، ومن الممكن أنّ بعض أسياد ثقيف، ومن بني مالك خاصة، رأى في ذلك فرصة جيّدة لأهل الطّائف لتوسيع أنشطتهم التّجاريّة على حساب أهل مكّة. وفي شهر رجب من السّنة الثانية للهجرة أغار أتباع محمّد على إحدى قوافل مكّة القادمة من الطائف محمّلة بالزّبيب والأدم والخمر[1] وأخذوا ما فيها من مال، وقتلوا بعض الرّجال، وأسروا رجلين منتهكين الأشهر الحرم، وبيّت أصحاب محمّد للقافلة في مكان يُعرف باسم نخلة يقع على طريق مكّة إلى الطّائف.

لا تذكر المصادر أيّ شيء عن موقف أسياد ثقيف من انتهاك أتباع محمّد الأشهر الحرم وتعرّضهم لقافلة تجاريّة قادمة من قريتهم. وبعد واقعة نخلة بمدّة زمنيّة قصيرة خرج أهل مكّة لنجدة أموالهم التي كانت مع أبي سفيان بن حرب، وانتهى بهم الأمر إلى مواجهة مسلّحة ضد أتباع محمّد في واقعة بدر. بكى شاعر الطّائف أميّة بن الصّلت قتلى قريش يوم بدر، ورثاهم، و«كان أميّة يحرّض قريشاً بعد واقعة بدر، وكان يرثي من قتل من قريش في واقعة بدر، فمن ذلك قوله:

مَاذا بِبَدْرٍ وَالعَقَنْ ... قَلِ مِنْ مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحْ

وقال: وهي قصيدة نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن رواياتها...»[2].

كانت أم أميّة بن الصّلت من قريش[3]، وكان شاعر الطّائف «قد نظر في الكتب، وقرأها، ولبس المسوح تعبّداً، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفيّة، وحرّم الخمر، وشكّ في الأوثان...»[4]. وتذكر بعض المصادر أنّه كان على اليهوديّة[5]، وتذكر مصادر كثيرة أنّه كان يهمّ بالدّخول في دين محمّد وبعد أن رأى ما فعل محمّد بقومه يوم بدر تراجع عن ذلك، وأخذ يحرّض النّاس ضدّه، ولمّا خرجت قريش إلى واقعة أُحد كان معهم مائة عنصر من ثقيف بقيادة عروة بن مسعود سيّد الأحلاف، ولا تذكر المصادر شيئاً عن نسبهم، والاحتمال الأرجح أنّ أغلبهم كان من الأحلاف.

شارك عدد من أبناء الطّائف في صنع انتصار قريش يوم أُحد، ومن المرجّح أنّ أهل الطّائف لم يستنفروا لقتال محمّد في واقعة الخندق. وإذا كان عروة بن مسعود قد قاتل مع قريش يوم أُحد فابن عمّه المغيرة بن شعبة لم يجد أفضل من محمّد يلتجئ

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٦.

(٢) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ٤، ص ١٣٠.

(٣) نفسه، ج ٤، ص ١٢٧.

(٤) نفسه، ج ٤، ص ١٢٩.

(٥) البلاذري: **جُمل من أنساب الأشراف**، ج ١٠، ص ٢٧٩.

إليه بعد قتله غيلة ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك كانوا يرافقونه في طريق العودة من رحلة تجاريّة إلى مصر، وكادت هذه الحادثة أن تؤدّي إلى نشوب حرب بين أهل الطّائف. حمّل بنو مالك الأحلاف وزر ما فعله المغيرة بن شعبة، وسعوا للثأر منهم. استعدّ الفريقان للقتال، واصطفّ النّاس «... فبرز مسعود بن عمرو فقال: يا عروة بن مسعود اخرج إليّ. فخرج إليه، فلمّا التقيا بين الصفّين قال: عليك ثلاث عشرة ديّة، فإنّ المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً فاحمل بديّاتهم. قال عروة: حملت بها، هي عليّ. قال: فاصطلح النّاس»[1]. تحمّل سيّد الأحلاف ديّة قتلى بني مالك، وجنّب الطّائف حرباً داخليّة، وعندما قدم محمّد في جمع غفير من أتباعه إلى مكّة في سنة ست للهجرة استنفر عروة بن مسعود أهل عكاظ من أهل الطّائف والأعراب لنصرة قريش، فلم يستجيبوا له، فنفر إلى مكّة بأولاده ومن أطاعه من ثقيف.

نصر عروة بن مسعود قريشاً، وكان معهم لحماية مكّة ضد أتباع محمّد، وكان أحد رسل أهل مكّة إلى محمّد[2] ولعب دوراً مهمّاً في تليين المواقف، وكانت له مساهمة في إبرام صلح الحديبيّة بين الفريقين. بعد هذا الصّلح دخلت عدّة عشائر وقبائل بدويّة في دين محمّد، والتحق عدد من أسياد قريش بصفوف أتباعه، أمّا رجال ثقيف الموجودون في مكّة والطّائف فاستمروا على موقفهم المتشبّث بدين الآباء.

٢ ـ أهل الطائف يتحالفون مع الأعراب ضد محمّد

في شهر رمضان من سنة ثمان خرج محمّد في جيش عظيم، ولم يفصح عن وجهته، وخاف أهل الطّائف من أن يكون في طريقه إليهم، فجمعوا الجموع، وانضمّوا إلى أعراب هوازن. اتجه جيش محمّد إلى مكّة، وتغلب عليها، ولم يلتحق أبناء ثقيف الموجودون فيها بالطّائف، وقبلوا كغيرهم من سكّان مكّة الخضوع لمحمّد، وقاتلوا معه يوم حنين ضد قومهم. ولم يذهب أسياد قريش الفارّون من مكّة إلى الطّائف القريبة، ولم ينضمّوا إلى جيش هوازن، وترك أبو عامر الرّاهب ووحشي غلام جبير بن مطعم قاتل حمزة بن عبد المطّلب يوم أحد مكّة، والتحقا بالطّائف خوفاً من عقاب محمّد، واستغلّ جمع من أسياد ثقيف حدث فتح مكّة، واستحوذوا على أموال قريش بالطّائف، وكان ذلك أحد أسباب خروج أسياد قريش مع محمّد لقتال هوازن يوم حنين.

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٩٧ ـ ٥٩٨.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥.

لا تحدّد المصادر نسبة رجال ثقيف من جيش هوازن، وما هو ثابت أنّ معظم هذا الجيش كان من الأعراب، وربما من أجل هذا رضيت ثقيف أن تكون قيادة هذا الجيش عند مالك بن عوف سيّد قبيلة نصر بن معاوية. ولم يخرج مقاتلو ثقيف بالنساء والأموال مثلما فعل الأعراب، ولم يقاتلوا تحت راية واحدة، إنّما كانت لبني مالك رايتهم، وللأحلاف رايتهم. «وكان في ثقيف سيّدان لها يومئذ: قارب بن الأسود بن مسعود في الأحلاف هو الذي قادها، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث ويقال: الأحمر بن الحارث...»[1]. وكان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة أبرز رجال ثقيف الغائبين عن واقعة حنين التي انتهت بهزيمة جيش هوازن، وخسرت ثقيف في هذه الواقعة عدداً كبيراً من أبنائها، وكان أغلب قتلاها من بني مالك، إذ سقط منهم سبعون قتيلاً حسب رواية أولى[2]. ومائة قتيل حسب رواية ثانية[3] ولم يسقط من الأحلاف سوى قتيلين.

فرّ الأحلاف يوم حنين، ولم يثبتوا في ساحة المعركة، وقاتل بنو مالك ببسالة وثبات، فسقط منهم عدد غير قليل من القتلى، ومن أبرز قتلاهم ذو الخمار سبيع بن الحارث قائدهم يومئذ وعثمان بن عبد الله بن ربيعة[4]. تفرّق جيش هوازن، واحتمى الأعراب بالجبال والمرتفعات، وعاد أبناء ثقيف إلى الطّائف، ودخلوا حصنهم، وكان معهم مالك بن عوف سيّد هوازن يوم حنين، ولحق بهم أتباع محمّد، وضربوا حول الطّائف حصاراً، وجرّبوا طرقاً عديدة لاقتحام سورها، وفشلوا، «ودخل المسلمون تحت الدبّابة، وهي من جلود البقر (...) ثم زحفوا بها إلى جدار الحصن ليحفروه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد مُحمّاة بالنّار، فحرّقت الدبّابة، فخرج المسلمون من تحتها وقد أصيب منهم من أصيب، فرمتهم ثقيف بالنّبل، فقُتل منهم رجال»[5]. كانت لأهل الطّائف أدوات حربيّة جيّدة وخبرة في القتال كبيرة، وأظهروا شجاعة في الدّفاع عن قريتهم، وتذكر المصادر أنّ أتباع محمّد صنعوا منجنيقاً، واستعملوه في محاولتهم اقتحام الطّائف، ولم ينفعهم ذلك في شيء، فبدأوا يقطعون الكروم لإجبار أصحابها على الاستسلام، ولم يمضوا في ذلك كثيراً، وتزامن توقّفهم عن قطع الكروم مع عودة أبي سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة اللّذين قدما على ثقيف في محاولة لإخراج من كان بالطّائف من نساء قريش لتجنيبهنّ الوقوع في الأسر. قبل أسياد ثقيف

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ٨٨٥.
(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٦٥.
(٣) نفسه، ج ٣، ص ٩٠٧.
(٤) نفسه، ج ٣، ص ٩١١.
(٥) نفسه، ج ٣، ص ٩٢٧ - ٩٢٨.

بخروج نساء قريش من حصون الطّائف، ومن المرجّح أنّ ذلك كان مقابل الكفّ عن قطع الكروم، وأبت نساء قريش الخروج من الطّائف ومفارقة أزواجهن.

أظهرت ثقيف أثناء الحصار قدرة كبيرة على الصّمود، وتذكر بعض الرّوايات أنّه كان لهم من الطّعام ما يكفيهم سنة، وأظهر الذين ينتمون إلى ثقيف بالأصل تماسكاً في مواجهة جيش محمّد، وفرّ جمع من عبيد الطّائف، والتحقوا بأتباع محمّد[1]. وبعد حصار دام سبع عشرة ليلة، وبعد أن فقد محمّد اثني عشر رجلاً من أتباعه أمر بفكّ الحصار عن الطّائف والرّحيل، وكان أغلب قتلى أتباعه من قريش[2]، ويرجع ذلك إلى إصرارهم على اقتحام الطّائف حتّى يمنعوا ثقيفاً من الاستحواذ على ممتلكاتهم الموجودة بأكناف الطّائف.

أمر محمّد بفكّ الحصار عن الطّائف رغم معارضة أغلب أتباعه لذلك، «... فأذّن عمر بالرّحيل، فجعل المسلمون يتكلّمون، يمشي بعضهم إلى بعض، فقالوا: ننصرف، ولا نفتح الطّائف! لا نبرح حتّى يفتح اللّه علينا، واللّه، إنّهم لأذلّ وأقلّ من لاقينا (...) وكثر القول بينهم والاختلاف»[3]. لم يستنفد محمّد كلّ الوسائل لاقتحام الطّائف، ولم يظهر إصراراً قويّاً على ذلك، لقد أراد أن يترك لثقيف فرصة للالتحاق بصفوف أتباعه بصورة سلميّة.

بعد واقعة حنين تقوّض التّحالف الذي جمع بين ثقيف والأعراب، وعندما فرغ محمّد من حصار الطّائف بدأت وفود عشائر عجز هوازن في الوفود عليه، وقبل أن يعود إلى يثرب فرّ مالك بن عوف من الطّائف مفارقاً لثقيف، ووفد عليه، فردّ إليه محمّد ماله وأهله، وأعطاه مائة من الإبل، وتكفّل سيّد بني نصر بن معاوية بمهمّة حرب أهل الطّائف. جمع عدداً من أبناء العشائر البدويّة التي دخلت في حلف محمّد، «فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلاّ أغار عليه حتّى ضيّق عليهم»[4]. انقلب الأعراب حلفاء الأمس القريب إلى أعداء لأهل الطّائف، وأدّت غاراتهم المتكرّرة إلى حرمان ثقيف من حضور المواسم والأسواق وتسيير قوافل تجاريّة، وشكّل ذلك عاملاً أساسيّاً في تقويض صمودهم، وكان عروة بن مسعود أوّل الوافدين منهم على محمّد الذي عاد إلى يثرب.

لم يحضر عروة بن مسعود يوم حنين وحصار الطّائف، تذكر المصادر أنّه ذهب مع غيلان بن سلمة أحد أسياد الأحلاف إلى جرش باليمن لتعلّم عمل الدبّابات

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ٩٣١ ـ ٩٣٢.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ٩٣٨.

(٣) الواقدي: نفسه، ج ٣، ص ٩٣٦.

(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٠٥.

والمنجنيق. كانت تجمع هذين الرّجلين علاقة قرابة دم بقريش، فكل منهما أمّه قرشيّة[١]، ومن المرجّح أنّهما عارضا خروج أهل الطّائفَ من حصونهم لقتال أتباع محمّد.

عاد عروة بن مسعود إلى الطّائف بعد أن انفضّ عنها أتباع محمّد، وفي شهر ربيع الأوّل سنة تسع للهجرة قدم على محمّد، ودخل في دينه[٢]. كانت لسيّد الأحلاف أسباب عديدة لاعتناق دين محمّد، فبالإضافة إلى علاقة القرابة الدّمويّة التي تجمعه بقريش كان متزوّجاً من آمنة بنت أبي سفيان أخت أمّ حبيبة زوج محمّد[٣]. ومثّل إسلام عروة بن مسعود خروجاً عن إجماع أسياد ثقيف على التّمسّك بدين الآباء، ولم يغفر أهل الطّائف له ذلك، ورأوا في متابعته عدوّهم ضرباً من الخيانة، فقتلوه عند عودته إلى الطّائف: «... فلمّا أشرف لهم على عليّة له، وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنّبل من كلّ وجه، فأصابه سهم فقتله...»[٤]. ينتمي قاتل عروة بن مسعود إلى بني مالك حسب أكثر الرّوايات انتشاراً، ولم يثأر الأحلاف لسيّدهم، وترجع المصادر ذلك إلى أنّه نهاهم عن ذلك قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن رآهم وقد حشدوا في السّلاح. أدّى مقتل عروة بن مسعود إلى زيادة الضّغائن والأحقاد بين الأحلاف وبني مالك، وبعد مدّة زمنيّة قصيرة من قتله اختار ابنه أبو مليح وابن أخيه وقائد الأحلاف يوم حنين قارب بن الأسود مفارقة ثقيف، فلحقا بيثرب، ودخلا في دين محمّد، ومثّل ذلك خسارة إضافية لثقيف.

بدأ حماس أهل الطّائف لحرب محمّد يفتر، وتراجع تصميمهم على عدم الخضوع له، وأكثر مالك بن عوف من الإغارة على قريتهم القريبة من ديار أعراب عجز هوازن، فأصبح صمود ثقيف باهظ الثّمن. يقول أحد أسيادهم: «قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنّه قد كان من أمر هذا الرّجل ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلّها، وليست لكم بهم طاقة، وإنّما نحن في حصننا هذا، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تصاب ! ولا نأمن من أحد منّا يخرج شبراً واحداً من حصننا هذا، فانظروا في أمركم! (...) ألا ترون أنّه لا يأمن لكم سرب، ولا يخرج منكم أحد إلاّ اقتطع !...»[٥]. بدأت

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٥٠٣.
الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ١٣، ص ٢٢٢.
(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٥، ص ٥٠٣.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٩٧.
(٤) نفسه، ج ٤، ص ١٥٣.
(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ٩٦٢.

الأصوات تتعالى في الطّائف داعية إلى قبول الخضوع لسلطة محمّد، ولم يعد لدى أسيادها أمل حقيقي في القدرة على مواجهته، ومن المرجّح أنّ واقعة تبوك أغرت أهل الطّائف بالانضمام إلى أتباع محمّد لمشاركتهم في التّوسّع نحو أراضي الشّمال الخصبة.

بعد واقعة تبوك بمدّة زمنيّة قصيرة وبعد واقعة حصار الطّائف بسنة وفي شهر رمضان من سنة تسع للهجرة قدم وفد ثقيف على محمّد. تختلف المصادر في عدد أفراد هذا الوفد، وتتفق على أنّهم ينحدرون من بني مالك ومن الأحلاف. نزل الأحلاف على المغيرة بن شعبة، ونزل بنو مالك على محمّد[١]. كانت لأسياد الطّائف مطالب عديدة لقبول الدّخول في دين محمّد، فقبل محمّد بعض مطالبهم، ورفض البعض الآخر. وتتمثّل مطالبهم المرفوضة في إعفاء ثقيف من الصّلاة وإباحة الخمر والزّنا لهم وترك آلهتهم "اللاّت" مدّة زمنيّة معيّنة.

لم تكن الوثنيّة دين العرب "الرّسمي" تتطلّب شعائر وطقوساً يوميّة، لذلك رأى أهل الطّائف في الصّلاة التي سنّها محمّد دناءة ومشقّة وتعفيراً للوجه بالتّراب، فطالبوه أن يعفيهم منها، وكان عدد ممن دخل في دين محمّد قد رفض الرّكوع واعتبره عملاً غير لائق وممجوجاً، «وقد كان الرّكوع أثقل شيء على القوم في الجاهليّة، حتّى قال بعض من أسلم للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم: على ألاّ أخرّ إلاّ قائماً، فمن تأوّله على ألاّ أركع، فلمّا تمكّن الإسلام من قلبه اطمأنت بذلك نفسه»[٢].

طلب أسياد ثقيف من محمّد إعفاءهم من الصّلاة وطالبوه بإباحة الخمر لهم. كانت معاقرة الخمر أحد مظاهر الشّرف عند أكثر العرب، لذلك كان الأسياد يشربونها ويفتخرون بذلك، واشتهرت الطّائف بكثرة إنتاجها من الخمر وبوفرة خمّاراتها التي يأتيها العرب من كل صوب، وكانت الخمر أحد مصادر ثروة أسياد ثقيف لذلك طالبوا محمّداً بإباحتها لهم. واعتمد أسياد ثقيف بالإضافة إلى إنتاج الخمور على الصّيرفة لتحقيق ثروتهم، وكانت أنشطتهم الماليّة تقوم على الرّبا الذي يحقّق أرباحاً جيّدة قد تتجاوز نصف المبلغ المدفوع، وكانت معاملاتهم الماليّة تتجاوز الطّائف وتشمل أهل البوادي وأهل مكّة، ولهذا السّبب طلبوا من محمّد أن يبيح لهم الرّبا.

رغم أنّ دين محمّد ترك مجالات واسعة لإشباع الرّغبة الجنسيّة مثل تعدّد الزّوجات واتّخاذ الجواري وزواج المتعة، طالب أسياد الطائف محمّداً أن يبيح الزّنا لهم. كانت قريتهم مركزاً لدور البغاء، ففيها يوجد حيّ للبغايا والخمّارات، وكانت ذوات الرّايات يدفعن ضريبة إلى أسياد الطّائف: «... وكانت سميّة من ذوات الرّايات

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٥، ص ٥١٠. (٢) ابن العربي: **أحكام القرآن**، ق ١، ص ٢١.

بالطّائف تؤدّي الضّريبة إلى الحارث بن كلَدة، وكانت تنزل بالموضع الذي تنزل به البغايا بالطّائف خارجاً من الحصن في محلّة يقال لها حارة البغايا»[١]. تمثّل دور البغاء مصدر ثروة لأسياد الطّائف وكان الإكثار من الأزواج ظاهرة متفشّية بكثرة عندهم، إذ كانت لبعضهم زمن النّبوّة عشر نساء[٢]. ومن المرجّح أنّ انتشار تجارة الجنس في الطّائف هو سبب تخصيص أهلها، دون سائر العرب، نصيباً من الإرث للبنات[٣].

طلب أسياد ثقيف من محمّد أن يبيح لهم الزّنا، وطلبوا منه أن يترك لهم "اللاّت" مدّة من الزّمن، ربما أرادوا منه أن يقرّ لآلهتهم بالرّفعة والقداسة كما فعل مع الكعبة. كانت اللاّت تُعبد من عدد غير يسير من القبائل البدويّة وتأتيها الهدايا والذّبائح، وكان أسياد الطّائف ينتفعون ممّا يقدّم لآلهتهم: «... أنّ ثقيفاً قالوا للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم: أجّلنا سنة حتّى يُهدى لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدى لها أحرزناه، ثمّ أسلمنا، فهمّ أن يؤجّلهم...»[٤].

رفض محمّد أهمّ مطالب أسياد ثقيف، ولم يمنعهم ذلك من قبول الخضوع له، «فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم (...) أمّا الصّلاة فإنّه لا خير في دين لا صلاة فيه. فقالوا: يا محمّد، فسنؤتيكها وإن كانت دناءة»[٥]. وقبل عدداً من مطالبهم، وتحتفظ مصادر عديدة بنصّ كتاب تذكر أنّه يضمّ ما أقرّه محمّد لثقيف[٦]. ويمكن تقسيم ما جاء في هذا الكتاب إلى محورين أساسيين، يتمثّل المحور الأوّل في حلّ عدد من المشاكل الماديّة التي تخصّ علاقة ثقيف بقريش، ويتمثّل المحور الثّاني في ضبط علاقة ثقيف بمحمّد.

جاء في الكتاب: «وثقيف أحقّ النّاس بوجّ»[٧]. وجّ هو وادي الطائف، وقد شارك أسياد قريش في استغلاله، وأرادوا أن يغلبوا عليه، ويستحوذوا على نصيب ثقيف فيه[٨]، فجعله محمّد لثقيف، واتّفق معهم على أنّ لهم نصف أعناب قريش التي كانت مزروعة بأكناف الطائف وتولت ثقيف الاعتناء بها: «وما سقت ثقيف من أعناب

---

(١) المسعودي: **مروج الذّهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٩٢.
(٢) ابن حبيب: **كتاب المحبّر**، ص ٣٥٧.
(٣) ابن المجاور: **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز. . .**، ص ٢٥.
(٤) السّيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**، ج ١١، ص ٤٣.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٥٥.
(٦) محمّد حميد اللّه الحيدر آبادي: **مجموعة الوثائق السّياسية...**، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٧) ابن سلاّم: **كتاب الأموال**، ص ٨٧.
(٨) ابن حبيب: **المنمق**، ص ٢٨٠.

قريش، فإنّ شطرها لمن سقاها...»[1]. كان كتاب محمّد لثقيف في بعض بنوده حلاً لصراع طويل دار بينهم وبين قريش حول الأراضي ومنابع المياه المجاورة للطّائف[2]. ضمن محمّد لأهل الطّائف أن لا يستغل أسياد قريش قرابتهم به فيغلبوا على الطّائف ويستولوا على أموالها.

ضبط الكتاب علاقة أهل الطّائف بقريش، وحدّد علاقتهم بمحمّد. جاء في هذا الكتاب: «... لا يحشرون ولا يعشرون ولا يستكرهون بمال ولا نفس، وهم أمّة من المسلمين حيث شاؤوا، وأين تولّجوا ولجوا...»[3]. تنفي مصادر عديدة أن يكون محمّد أعفى ثقيفاً من دفع الصّدقة: «قال أبو عبيد (...) وقوله: لا يعشرون. يقول: لا يؤخذ منهم عُشر أموالهم، إنّما عليهم الصّدق من كلّ مائتين خمسة دراهم...»[4]. ويفهم ابن سعد عبارة "لا يحشرون" على أنّها تعني «لا يحشرون من ماء إلى ماء في الصّدقة»[5]. من المرجّح أنّ عبارة " لا يعشرون " تعني إعفاء أهل الطّائف من دفع رسوم حضور الأسواق التي كانت تقام في مناطق نفوذ أتباع محمّد. وضمن محمّد لبني مالك أن لا ينحاز إلى الأحلاف أصدقاء قريش، «... وأن لا يؤمر عليهم إلاّ بعضهم على بعض: على بني مالك أميرهم، وعلى الأحلاف أميرهم...»[6]. وما لم يذكره كتاب محمّد لأهل الطّائف هو إعفاؤهم من تحطيم صنم اللاّت بأيديهم، وتكفّل بهذه المهمّة المغيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب.

ذهب محمّد صاحباً إلى الطّائف، واختار أبو سفيان بن حرب البقاء خارجها خوفاً على حياته من ثقيف، وقدم المغيرة بن شعبة على قومه، وأخذ يحطّم اللاّت وهو محروس من قبل الأحلاف خوفاً عليه من أن يلقى مصير ابن عمّه عروة بن مسعود، وبكى أهل الطّائف ربّتهم أحرّ بكاء: «... وقد خرج نساء ثقيف حسّراً يبكين على الطّاغية والعبيد والصّبيان والرّجال منكشفون، والأبكار خرجن»[7]. توقّع أهل الطّائف إلى آخر لحظة أن تمتنع الرّبة وتنتقم من المغيرة بن شعبة الذي شرع في تحطيمها، ولكنّها لم تفعل، وخاب ظنّهم فيها، وأخذوا يدخلون في دين محمّد.

---

(١) ابن سلاّم: **كتاب الأموال**، ص ٨٧.

(٢) Kister (M. J): «Some reports concerning Al Ta'if», *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* (Jerusalem), I-1979, p. 9.

(٣) ابن سلاّم: **كتاب الأموال**، ص ٨٧.

(٤) نفسه، ص ٨٧.

(٥) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٧١.

(٦) ابن سلاّم: **كتاب الأموال**، ص ٨٧.

(٧) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ٩٧٢.

كانت اللاّت تعظّم من جانب ثقيف وقريش وعدد مُعتبر من القبائل البدويّة، وكان سدنتها وحجّابها من بني العجلان من بني مالك، وكانت لهم قاعدة اجتماعيّة واسعة تدعمهم وتوفّر لهم مصادر دخل جيّدة، فكان في خزانة اللاّت ذهب وفضّة وطيب، وكان اعتقاد أهل الطائف في الربّة قويّاً، وكان لها حضور قويّ في حياتهم.

يتداخل في مطالب وفد أهل الطّائف الدّيني بالاقتصادي والسّياسي، وتمثّل هذه المطالب جانباً مهمّاً من أسباب عداوتهم لمحمّد، وكانت طريقتهم في مواجهته محكومة بعدّة معطيات تمسّ خصائص حياتهم الدّاخليّة وخصائص علاقتهم بأهل البوادي وبقريش. وأبرز سمة تميّز حياة أهل الطّائف هي الانقسام الشّديد بين الأحلاف وبني مالك، كانت العلاقة بين الفريقين محكومة بالتّوتّر الشّديد والميل إلى العداوة، ويتجلّى هذا الانقسام على مستوى البنية الحضريّة للطائف، فلبني مالك حيّهم، وللأحلاف حيّهم، وكان لكلّ فريق باب خاص به. وقد ساهم الخطر الخارجي في التّقريب بين الفريقين، ولكنّه لم يؤد إلى تجاوز الأحقاد والضغائن، فلم يتوحّد أهل الطّائف وراء قيادة واحدة في واقعة حنين، وكانت للأحلاف رايتهم، ولبني مالك رايتهم، ورضوا أن يكون عناج الجيش لمالك بن عوف سيّد بني نصر بن معاوية. وانعكست انقسامات الطّائف الدّاخليّة على علاقاتهم بأهل البوادي من حولهم وخاصة بني نصر بن معاوية حلفاء بني مالك وأعداء الأحلاف، «... فلمّا لجّت الحرب بين بني نصر والأحلاف اغتنم ذلك بنو مالك ورئيسهم جندب بن عوف بن الحارث بن مالك بن حطيط بن جشم من ثقيف لضغائن كانت بينهم وبين الأحلاف، فحالفوا بني يربوع على الأحلاف...»[1].

كانت علاقة الأحلاف ببني نصر بن معاوية محكومة بالعداء، وتولّى سيّد بني نصر بن معاوية مالك بن عوف قيادة جيش هوازن يوم حنين، فلم يثبت الأحلاف في مواجهة جيش محمّد، واختاروا الهروب، فلم يسقط منهم سوى قتيلين. وتظهر انقسامات أهل الطّائف الدّاخليّة في علاقتهم بقريش، إذ كان الأحلاف متحالفين مع قريش، وكانت بينهم علاقات نسب وأرحام، وهذا ما مكّن أسياد قريش من توسيع مجال نفوذهم بالطّائف والسّيطرة على مساحات جيّدة من الأراضي الصّالحة للزراعة ومنابع المياه، وكانت علاقة بني مالك بقريش تميل إلى التّوتر والعداوة. قال محمّد عندما بلغه خبر قتل عثمان بن عبد اللّه أحد أسياد بني مالك على يد أحد رجال قريش: «أبعد اللّه عثمان بن عبد اللّه بن ربيعة، فإنّه كان يبغض قريشاً»[2]. وكما لعب

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، م١، ص٦٨٥. (٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ٩١٢.

الأحلاف دوراً مهمّاً في توسيع مجال نفوذ قريش في الطّائف لعبوا دوراً مؤثراً في خضوع الطّائف لسلطة محمّد، وكان رائدهم في ذلك عروة بن مسعود.

بالإضافة إلى الانقسامات الدّاخليّة، امتازت الطّائف بالتّفاوت الطبقي الشّديد، إذ كانت السّلطة والثّروة عند طبقة الأسياد التي تتكوّن من أصحاب الأراضي والتجّار والمرابين ومالكي الخمّارات ودور البغاء والحرفيين الكبار. وكان هؤلاء الأسياد يوظّفون عدداً غفيراً من العبيد والأحرار الذين يشكّلون طبقة "الضّعفاء والسّفلة"، وكان هؤلاء الضّعفاء يشعرون بالظّلم والحيف، ولهذا اختار عدد منهم الفرار من الطّائف والالتحاق بصفوف أتباع محمّد، ورفض محمّد طلب أسياد ثقيف أن يردّ إليهم من فرّ من عبيد الطّائف.

خاتمة

قابل أهل الطائف دعوة محمّد منذ بدايتها بالرّفض التّام، ورفضوا إجارته عندما استجار بهم، وأساؤوا معاملته، وطردوه من قريتهم، وأعان فريق منهم أهل مكّة في حربهم ضد محمّد، فقاتلوا معهم يوم أُحد، وكانوا معهم يوم الحديبيّة، ولم يدخل أهل الطّائف في صراع مباشر مع محمّد إلاّ بعد أن غلب على مكّة سنة ثمان للهجرة، وكوّنوا مع أعراب عجز هوازن قوّة عسكريّة خطيرة خاض ضدّها أتباع محمّد أكبر وقائعهم الحربيّة وأشدّها زمن النّبوّة. عادى أهل الطائف محمّداً حفاظاً على استقلال قريتهم ودفاعاً عن آلهتهم وحفظاً لأموالهم، وتزعّم حركتهم مجموعة من الأسياد الذين كانوا يجمعون بين الصّيرفة والتّجارة والفلاحة وتعاطي بعض الحرف.

لم يستطع أهل الطّائف تجاوز خلافاتهم الدّاخليّة في حربهم ضد محمّد، فلم يتحرّكوا بصفة جماعيّة لنصرة قريش يوم الحديبيّة، ولم يجتمعوا تحت راية واحدة يوم حنين، وقام أصدقاء قريش بدور بارز في إخضاع الطّائف لسلطة محمّد من دون قتال. كان صراع أهل الطّائف مع محمّد في جانب كبير منه مواصلة لعلاقتهم بقريش التي تتراوح بين التحالف والعداوة. كان محمّد يدرك أهميّة الطائف، فلم يوظّف كلّ طاقاته لدخولها عنوة، وترك لأهلها فرصة الالتحاق بصفوف أتباعه من دون قتال، وضمن لهم أن لا يستغلّ أبناء قريش قرابتهم به فيستولون على ما في الطائف من أموال.

الفصل الثاني

أعداء محمّد من أعراب الحجاز

مقدّمة

تختلف المصادر في تحديد منطقة الحجاز، وتقدّم روايات عديدة حول حدود هذه المنطقة، ونأخذ في حديثنا عن أعراب الحجاز بالرّواية التي تجعل منطقة الحجاز تضمّ تهامة، وهي المنطقة الساحليّة الغربيّة الواقعة على بحر القلزم، والأجزاء الغربيّة من نجد تلك الهضبة الفسيحة التي تمتد من شرق الجزيرة العربيّة إلى حدود بلاد الشّام[1]. فأعراب الحجاز هم أهل البوادي القريبة من الطائف ومكّة ويثرب.

لا يمثّل أعراب الحجاز مجموعة بشريّة مستقلّة ذات وعي بتميّزها، إذ لا يستبطنون أيّ إحساس بوحدة الكيان، فهم مجموعات كثيرة يجمع بينها النّزول في بوادي الحجاز التي تمتدّ على مساحات شاسعة. والظّاهر أنّ أهل القرى هم الذين أطلقوا على سكّان البوادي اسم "الأعراب"، واستعمل القرآن كلمة الأعراب بمعنى سكّان البوادي في العديد من الآيات. ورغم أنّ أغلب المواجهات الحربيّة التي خاضها أتباع محمّد كانت ضدّ أعراب الحجاز لا تحتفظ المصادر إلاّ بأشياء قليلة عنهم، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة، فمحمّد مركز الكون السّردي لأخبار السّيرة النّبويّة عاش أكثر حياته في مكّة ويثرب، ولم تكن له علاقات كثيرة بالأعراب، وهذا ما جعل حضورهم ضعيفاً في أخبار السّيرة النّبويّة. كما لم يكن لهم بعد دخولهم في دين محمّد دور قيادي في صنع الأحداث، فلم تحتفظ الذّاكرة الجماعيّة إلاّ بأخبار قليلة عنهم، فهم لا يحضرون في أخبار السّيرة النّبويّة إلاّ عند المواجهة الحربيّة ضدّ أتباع محمّد، أمّا بقيّة تفاصيل حياتهم فلا يقدّم الرّواة عنها إلاّ أخباراً قليلة.

---

(١) محمّد الجوادي: «بدو الحجاز وعلاقتهم بمحمّد من ظهور الإسلام إلى فتح مكّة سنة ٨ هـ»، **إبلا** (تونس) السنة ٥٩، العدد ١٧٨، ١٩٩٦، ص ٦٩.

جاءت أخبار وقائع أعراب الحجاز الحربيّة ضدّ محمّد مقتضبة، إذ لا تخصّص لها المصادر مساحات نصيّة مماثلة لتلك التي خصّصتها لوقائع قريش، وبالإضافة إلى الاقتضاب كانت أخبارهم محكومة بالتّعميم. يظهر ذلك في عدم الدّقّة في تحديد الانتماءات القبليّة للعناصر المشاركة في كثير من الأنشطة الحربيّة وعند الحديث عن وفود الأعراب التي قدمت على محمّد، إذ لا توضّح المصادر في كثير من الأحيان ما إذا كان الوفد يعبّر عن موقف القبيلة ككل أو يعبّر عن موقف أحد فروعها أو يعبّر عن موقف أصحابه فقط، ويظهر التّعميم في عدم دقّة بعض الأسماء التي تطلق على التّجمّعات البدويّة، فنحن لا نعرف متّى يكوّن الأعراب عشيرة ومتى يكوّنون قبيلة.

تحرّك أعراب الحجاز ضدّ محمّد في شكل مجموعات متفاوتة من حيث العدد، وكانت القرابة الدّمويّة هي الأساس التي تقوم عليه المجموعات الصغيرة والتي تُعرف في المصادر باسم "العشيرة". لم نتتبّع أنشطة كلّ عشيرة بصورة مستقلة، وإنّما نظرنا إلى أنشطة العشائر المعادية لمحمّد على أنّها تمثّل حركة واحدة رغم أنّه لم يكن بينها أيّ تنسيق في كثير من الأحيان. وكانت بين أعراب الحجاز وأتباع محمّد وقائع كثيرة تتراوح بين المناوشات الخاطفة والمواجهات الكبرى، وتمثّلت أنشطة أولئك الأعراب في نصرة أهل القرى (مكة، الطائف، خيبر) ضد محمّد والارتداد عن دينه، بدأت المواجهات بين أعراب الحجاز وأتباع محمّد بعد استقراره بيثرب، وظلت قائمة إلى آخر عهد النّبوّة.

١ ـ أعراب الحجاز ينصرون أهل القرى ضد محمّد

توجّه محمّد طيلة سنوات عديدة بدعوته إلى أهل مكّة، واعتقد أنّهم مؤهّلون أكثر من غيرهم للاستجابة له، وعجب أنّ دعوته لقيت استجابة من بعض الأعراب الوافدين على مكّة[١] إذ لم يكن محمّد، مثل غيره من سكّان أمّ القرى، يأمل خيراً في سكّان البوادي. وعقاباً لبني هاشم وبني المطّلب الذين رفضوا خلع محمّد قام أسياد مكّة بحصارهم، وتحالفوا في ذلك مع عشائر كنانة التي تنزل قريباً من مكّة، وكان عدد من أسيادها يقيمون فيها أو يتردّدون بكثرة عليها، وكانت لهم مشاركة في أنشطتها التّجاريّة الدّاخليّة والخارجيّة، ولهذا تحالف أسياد قريش معهم عند حصار حماة محمّد من بني هاشم وبني المطّلب.

لم يعرض محمّد نفسه على القبائل البدويّة إلا بعد أن يئس من خير أهل المدر

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٢٢٣.

في مكّة والطّائف، وتذكر المصادر أنّ بني عامر بن صعصعة أظهروا استعدادا لحمايته على أن يكون لهم الأمر من بعده[1]. ولمّا رفض محمّد ذلك أعرضوا عنه، ولم يقبلوا إجارته، وتذكر المصادر أنّ بعضهم عمد إلى الاعتداء عليه، «... إذ أتاهم بحيرة بن فراس القشيري (...) فقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى ناقته، فركبها، فغمر الخبيث بحيرة شاكلتها، فقمصت برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم...»[2]. تعمّد هذا الأعرابي إهانة محمّد والاعتداء عليه، ولم يلق فعله أيّ ردّ فعل من بني هاشم، وربما كانت حركته بتشجيع من بعض أسياد مكّة. تذكر مصادر عديدة أنّ إبليس تجسّد في هيئة شيخ من نجد وأوعز لأسياد مكّة بفكرة اشتراك جميع عشائر قريش في قتل محمّد قبل أن يلتحق بأتباعه في يثرب. قد تكون لهذا الخبر نواة واقعيّة، فشيوخ نجد كانوا يتردّدون بكثرة على مكّة.

استحسن أسياد مكّة فكرة الشّيخ النّجدي، وعملوا بها، ولكنّهم لم يُوفّقوا في قتل محمّد الذي خرج متخفياً ليلاً من منزله، واختبأ في جبال مكّة، وبعد أن خفّ عنه الطّلب توجّه إلى يثرب مع أبي بكر الصدّيق وعامر بن فهيرة، وكان دليلهم أحد الأعراب وهو عبد اللّه بن أريقط اللّيثي «وهو على دين الكفر...»[3]. وجعلت قريش في محمّد مائة ناقة لمن يردّه إليهم، وعلم سراقة بن مالك أحد أشراف بني مدلج بخروج محمّد ورفاقه من مكّة، فلحق بهم على أمل أن تكون جائزة قريش من نصيبه، وتعزو المصادر فشل سراقة بن مالك في مسعاه إلى تدخّل العناية الالهية التي حالت بينه وبين ما يريد[4]. ومن الجائز أنّه اختار أن لا يدلّ قريشاً على محمّد مقابل شيء من المال الذي حمله أبو بكر معه عند هجرته، ونزل محمّد وهو في طريقه إلى يثرب ببعض رجال عشيرة أسلم، فأحسن إليه، وحمله على جمل، وبعث معه غلاماً له[5].

كانت يثرب تتمتّع بقدر كبير من القوّة، وكانت تعتمد على النّشاط الزراعي بشكل أساسي، وهذا ما جعلها غير محتاجة إلى سكّان البوادي. وكانت لأهلها عقود موادعة مع عدد من أسياد القبائل البدويّة، وكان الأعراب يأتون إلى أسواق يثرب بالجلب ومشتقات الحليب والأدم. وورث محمّد علاقات الأوس والخزرج الجيّدة بعدد من القبائل البدويّة التي كانت تنزل قريباً من يثرب مثل مزينة وقسم من جهينة،

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٣٥.
(٢) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج ٣، ص ١٤١.
(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٢٩.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٥) نفسه، ج ٢، ص ٩٠.

ولم تشعر القبائل البدويّة الكبرى التي كانت تنزل في مرتفعات نجد أنّ الكيان السّياسي الذي أسّسه محمّد يشكّل خطراً عليها، وربما ظنّ الأعراب أنّ أمره لن يتجاوز يثرب.

لم ينتظر محمّد كثيراً بعد وصوله إلى يثرب، وبدأ في التّعرّض لقوافل مكّة التجاريّة، واختارت عدّة تجمّعات بدويّة صغيرة تنتمي إلى كنانة وجهينة موادعته والتزام موقف الحياد من حربه مع قومه، فعندما خرج محمّد إلى واقعة "ودّان" على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه يثرب وادع مخشي بن عمرو سيّد ضمرة إحدى عشائر بني بكر بن عبد مناة بن كنانة[1]. ووادع مجدي بن عمرو سيّد إحدى عشائر جهينة، ووادع بني مدلج أحد فروع بني بكر بن عبد مناة بن كنانة[2]. ونجح مجدي بن عمرو في أن يحجز بين أتباع محمّد ورجال قريش الذين كانوا يرافقون إحدى قوافل مكّة التّجاريّة، «فانصرف بعض القوم عن بعض، لم يكن قتال»[3]. كان الأعراب يستفيدون مادياً من تجارة مكّة، ولم يفعلوا أيّ شيء لحماية قوافلها التجاريّة التي أصبحت عرضة لهجمات أتباع محمّد، ولم يتحرّكوا ضدّ أتباع محمّد الذين انتهكوا الأشهر الحرم وأغاروا على إحدى قوافل مكّة التّجارية في شهر رجب وسفكوا الدّماء وأسروا رجلين.

عندما علم أبو سفيان بن حرب العائد من الشّام أنّ محمّداً وأتباعه قد كمنوا للقافلة التي يترأسّها استأجر ضمضم بن عمرو أحد بني غفار، فبعثه إلى أهل مكّة يستنفرهم إلى أموالهم، ولم يخرج أهل مكّة لنجدة أموالهم إلاّ بعد أن ضمن لهم سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي أن لا تأتيهم كنانة من خلفهم بشيء يكرهونه[4]. وخرج مع أهل مكّة إلى بدر عدد من أسياد عشائر كنانة مثل عمرو بن أميّة الضّمري[5]، وسراقة بن مالك الجعشمي وقباث بن أشيم الكناني[6]. ولعب نوفل بن معاوية الدّؤلي دوراً مهمّاً في تجهيز النّاس للخروج إلى بدر، «ومشى (...) إلى أهل القوّة من قريش، فكلّمهم في بذل النّفقة والحملان لمن خرج...»[7]. ومن المرجّح أنّ هؤلاء الأعراب كانوا ينزلون في أوقات من السّنة بمكّة للتجارة، إذ لم يقم أبناء قريش باستنفار القبائل البدويّة لواقعة بدر.

قبل أسياد مكّة الذّاهبون إلى بدر هديّة أيماء بن رخصة سيّد بني غفار المتمثّلة في عدد من الجزائر(*)، ورفضوا عرضه بأن يمدّهم بالسّلاح والرّجال[8]. وتابعت

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ١٨٣.
(٢) نفسه، ج ٢، ص ١٩٠.
(٣) نفسه، ج ٢، ص ١٨٧.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ٢٠٣.
(٥) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٢٤٨.
(٦) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٩٧.
(٧) نفسه، ج ١، ص ٣٢ ـ ٣٣.
(*) المقصود بها: الذبائح.
(٨) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٢١١.

عناصر من البدو جيش مكّة طمعاً في النّهب وتحصيل الغنائم[١]. وانتهت واقعة بدر بهزيمة جيش مكّة هزيمة فادحة أذهلت من حضرها من الأعراب، وتولّى الحيسمان بن حابس الخزاعي إخبار أهل مكّة بما حلّ بجيشهم يوم بدر[٢]، وانتشرت أخبار هذه الواقعة بين سكّان البوادي، وتباينت مواقفهم ممّا جرى فيها. حقد فريق منهم على محمّد لإمعانه القتل في قومه أهل الحرم، واختارت عدّة تجمّعات بدويّة تمتين علاقتها به وموادعته. عرف الأعراب من خلال واقعة بدر أنّ أتباع محمّد يشكّلون قوّة لا يمكن تجاهلها، وأدركوا أنّ طموحاته كبيرة ولا تقتصر على يثرب، وبعد هذه الواقعة بزمن قصير ضرب محمّد حصاراً على بني قينقاع، ولم يتحرّك الأعراب للدّفاع عنهم.

كانت تحرّكات محمّد العسكريّة قبل واقعة بدر تتمثّل في استهداف قوافل مكّة التجاريّة وعدد من التّجمّعات البدويّة النازلة على طريق هذه القوافل، وبعد فراغه من بني قينقاع غيّر وجهته، فاتّجه نحو نجد حيث تنزل قبائل بدويّة كبيرة. فعلى رأس ثلاثة وعشرين شهراً للهجرة توجّه مع عدد غير قليل من أتباعه إلى قرارة الكدر، «وهي بناحية معدن بني سليم قريب من الأرحضيّة وراء سدّ معونة وبين المعدن وبين المدينة ثمانية برد»[٣]. تذكر المصادر أنّه خرج يريد جمعاً من غطفان وسليم، ومن المؤكّد أنّ هذا الجمع لا يضمّ سوى قسم صغير من غطفان وسليم، فغطفان زمن نبوّة محمّد مجموعة من القبائل هي عبس وذبيان وأشجع، وتمتدّ ديار هذه القبائل على مساحة شاسعة من الحجاز إلى جبال شمّر[٤].

كانت قبائل غطفان موغلة في البداوة تعتمد على الرّعي بشكل أساسي، وتشترك مع قبيلة سُليم في الانتماء إلى "قيس عيلان" الفرع الثّاني من "مضر"، وتنزل معظم عشائر سُليم في منطقة بين مكّة ويثرب تعرف بحرّة بني سليم. وبالإضافة إلى الرّعي، نشاط القبيلة الأساسي، كانت بعض عشائر سليم تتعاطى النّشاط الزراعي بمنطقة السّوارقيّة[٥]، وتشتهر أرض بني سليم بوفرة مناجم المعادن فيها. وكانت قبائل غطفان وقبيلة سليم تتمتّع بعلاقات ودّية مع يثرب قبل قدوم محمّد إليها، إذ كانوا يأخذون الجلب ومشتقّات الحليب إلى أسواقها[٦]. وكانت هذه القبائل البدويّة تعيش في شكل

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٧٦.

(٢) نفسه، ج ١، ص ١٩.

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٣١.

(٤) Fuck (J. W): Art «Ghatafan», in *E I 2*, T II, p. 1046.

(٥) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٨٥.

(٦) Lecker (M): Art «Sulaym» in *E I 2*, T IV, p. 852.

عشائر صغيرة، وهذا ما يتلاءم مع حياة التّرحال المتواصل طلباً لمساقط الغيث، وكانت العشائر تغيّر أماكن نزولها وتحالفاتها، ولهذا كان الجمع الذي خرج إليه محمّد في قرارة الكدر يضمّ عناصر من غطفان وسُليم.

لا تقدّم المصادر معلومات عن مدى إدراك الأعراب لما يدعو إليه محمّد، ولا تقدّم معلومات عمّا فعله محمّد لنشر دينه بين عشائر غطفان وسليم قبل واقعة "قرارة الكدر". ومن المرجّح أنّ محمّداً كان يخاف أن تتحالف ضدّه قبائل نجد القويّة مع أهل مكّة، فسعى إلى التضييق على بعضها لدفعها إلى موادعته.

استطاع محمّد من دون قتال أن يظفر في غزوة "قرارة الكدر" بغنائم وفيرة. وبعد هذه الغزوة بشهرين خرج مع عدد من أتباعه إلى جمع من ثعلبة ومحارب، وثعلبة إحدى عشائر قبيلة ذبيان التي تنتمي إلى غطفان، وتنتمي قبيلة محارب إلى مجموعة قيس عيلان[1]. وتذكر المصادر أنّ الذي أهاج محمّداً للخروج إلى نجد سماعه أنّ دعثور بن الحارث سيّد محارب جمع النّاس بذي أمرّ، وهو موضع «بنجد من ديار غطفان»[2]. وأراد أن يدنو من أطراف يثرب، ومن الظاهر أنّ سيّد محارب لم يوفّق في جمع عدد كافٍ من النّاس، لذلك هرب أتباعه، واحتموا برؤوس الجبال وتجنّبوا مواجهة أتباع محمّد[3]. وبعد هذه الحادثة بمدّة زمنيّة قصيرة خرج محمّد في ثلاثمائة من أتباعه إلى جمع من بني سليم، فلّما سمع الأعراب بقدومه تفرّقوا، ولم يكن بين الفريقين قتال[4].

حاول عدد من أسياد الأعراب بعد واقعة بدر جمع النّاس والقيام بنشاط عسكري ضد أتباع محمّد، وكان محمّد على علم بذلك، فخرج إليهم أكثر من مرّة في عدد من أتباعه، وفي كلّ مرّة كانوا يهربون قبل أن يدركهم. كان الأعراب يفضّلون الغارات الخاطفة، لذلك تجنّبوا ملاقاة جيش محمّد الذي انتشر صيته بين النّاس بعد انتصاره على قريش يوم بدر وطرده بني قينقاع من يثرب.

حرص أسياد مكّة على الاستعداد الجيّد لواقعة أحد، فاستنفروا سكّان البوادي القريبة من مكّة، فخرج معهم حلفاؤهم الذين يعرفون بالأحابيش[5]، وكان على رأسهم يومئذ الحليس بن زبّان أحد بني الحارث بن عبد مناة، وكان لهم يوم أُحد لواء.

---

(١) Levi Della Vida (G): Art «Muharib» in *E I 2*, T VII, p. 463.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ١، ص ٢٥٢.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ١٩٣ ـ ١٩٦.

(٤) نفسه، ج ١، ص ١٩٦.

(٥) نفسه، ج ١، ص ٢٠٣.

وخرجت مع قريش عناصر كثيرة من كنانة وخاصة من بني بكر بن عبد مناة، وكان لهم لواء خاص بهم، وكان على رأسهم سفيان بن عوف[١] وخرج مع قريش إلى أُحد عدد من رجال قبيلة سليم، وكان على رأسهم أبو الأعور سفيان بن عبد شمس[٢].

خرج أهل البوادي مع أهل مكّة إلى أُحد بدافع القرابة الدّموية وبدافع التّحالف والصّداقة، وتذكر المصادر أنّ أسياد قريش دفعوا أموالاً لعدد من أسياد الأعراب مقابل خروجهم معهم لقتال محمّد وأتباعه، وخرجت مع جيش مكّة بعض نساء الأعراب، وتذكر مصادر عديدة أنّ الأعراب قاتلوا يوم أُحد بإقدام وبسالة، وبرزت بينهم بصفة خاصة عمرة بنت علقمة زوجة غراب بن سفيان بن عويف «... التي رفعت اللّواء يوم أُحد لكفّار قريش»[٣]. وكانت «تقذف النّاس وتحوشهم حوشاً منكراً»[٤]، وخسر سفيان بن عويف أربعة من أبنائه يوم أُحد[٥].

لعب حلفاء قريش من الأعراب يوم أُحد دوراً محورياً في انتصار أهل مكّة، واستقبح سيّد الأحابيش تمثيل بعض قريش بجثث قتلى أتباع محمّد. «قال إبن إسحاق: وقد كان الحُليس بن زبّان أخو بني الحرث بن عبد مناة، وهو يومئذ سيّد الأحابيش، قد مرّ بأبي سفيان وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطّلب بزُجّ الرّمح، وهو يقول: ذق عُقق، فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيّد قريش يصنع بابن عمّه ما ترون لحماً، فقال: ويحك ! اكتمها عني، فإنّها كانت زلّة»[٦]

كان لانتصار جيش مكّة في واقعة أُحد صدى كبير بين الأعراب، واعتقد عدد كبير منهم أنّ أتباع محمّد قد تمّ استئصالهم: «وأقبل رجل من بني ضمرة يقال له مخشي بن عمرو (...) فقال: يا محمّد، لقد أُخبرنا أنّه لم يبق منكم أحد...»[٧]. وأغرت هزيمة محمّد عدّة مجموعات بدويّة بالانخراط في الصّراع ضدّه، فبعد واقعة أحد مباشرة حاول طليحة بن خويلد سيّد قبيلة أسد بن خزيمة جمع النّاس والتّوجّه إلى يثرب.

كان طليحة بن خويلد كاهناً وأحد فرسان العرب المعدودين وصاحب أيّام مشهورة، ويقال إنّه يعدل ألف فارس[٨]. وتنحدر قبيلة أسد بن خزيمة من "خندف" الفرع الثاني من مضر، وتشترك مع قريش في الانتماء إلى "خزيمة"، وكانت معظم ديارها بنجد شرق يثرب، وكانت زمن النّبوّة في حالة عداء مع قبيلة طيء المجاورة

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٢٠٣.
(٢) نفسه، ج ١، ص ٢٦٦.
(٣) ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، ص ١٨٨.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢٥٩.
(٥) نفسه، ج ١، ص ٣٠٩.
(٦) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٤٩.
(٧) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٨٨.
(٨) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج١٥، ص٢٠٧.

لها، وتكفّل أحد بني طيء بإخبار محمّد بما كان يدبّره طليحة بن خويلد، فأرسل محمّد أبا سلمة بن عبد الأسد في جمع من أتباعه، فأغاروا على سرح لبني أسد بن خزيمة بقطن، و«قطن ماء، ويقال جبل من أرض بني أسد بناحية فيد...»[١]. ساق أتباع محمّد السّرح، وتفرّق النّاس عن طليحة بن خويلد، وانشغلت قبيلة أسد بن خزيمة بعد هذه الحادثة بحربها ضد قبيلة طيء[٢].

كان الأعراب يفضّلون الغارات الخاطفة، فتجنّبوا مواجهة أتباع محمّد، واحتموا بمرتفعات نجد، واعتمدوا طريقة استهداف المجموعات الصغيرة، ونجحوا بعد واقعة أُحد بمدّة قصيرة في النّيل من أتباع محمّد في واقعتين: واقعة بئر معونة وواقعة الرّجيع. تختلف المصادر في تفاصيل واقعة بئر معونة اختلافاً كبيراً، تختلف حول عدد أتباع محمّد الذين حضروا هذه الواقعة. تذكر رواية أولى أنّهم سبعون[٣]، وتذكر رواية ثانية أنّهم أربعون[٤]، وتذكر رواية ثالثة أنّهم ثلاثون[٥]، وتذكر رواية رابعة أنّهم سبعة وعشرون[٦]، وتذكر رواية خامسة أنّهم ثمانية عشر[٧]. وتجمع أغلب المصادر على أنّ أتباع محمّد لم يخرجوا إلى نجد في مهمّة حربيّة، وإنّما خرجوا لدعوة أهل البادية إلى دينه ولتفقيههم في الدّين. وتختلف المصادر في الظّروف التي حفّت بقدومهم إلى البادية، فتذكر رواية أولى أنّ أبا برّاء عامر بن مالك سيّد قبيلة عامر بن صعصعة التقى بمحمّد وتكفّل بحماية أتباعه من أعراب نجد، وتذكر رواية ثانية أنّ أتباع محمّد قدموا إلى البادية لتفقيه ناس من قبيلة سليم دخلوا في دينه[٨].

من المستبعد أن يرسل محمّد مجموعة مهمّة من أتباعه لدعوة الأعراب إلى دينه أو لتفقيههم، فهذه المهمّة يستطيع أن يقوم بها عدد قليل من النّاس، ثمّ إنّ عمرو بن أميّة الضّمري الحاضر في واقعة بئر معونة لم يمض على دخوله في دين محمّد إلا زمن قليل[٩]، ولا يمكن أن يكون مؤهّلاً لتفقيه الأعراب في الدّين. الاحتمال الأرجح أنّ

---

(١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٤، ص ٣٧٥.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٤٤.
(٣) نفسه، ج ١، ص ٣٤٧.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٣٧.
(٥) البكري: **معجم ما استعجم...**، م ٢، ج ٤، ص ١٢٤٥.
(٦) مقاتل بن سليمان: **تفسير مقاتل بن سليمان**، م ٣، ص ٢٥٦.
(٧) السّمرقندي: **بستان العارفين**، ص ٢٠٨.
(٨) حسّان بن ثابت: **الديوان**، ج ١، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٩) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٢٤٨.

أصحاب محمّد ذهبوا لنصرة أتباعه من بني سُليم الذين أخرجهم أبناء قبيلتهم فلجؤوا «إلى سفيان بن أبي الضحّاك أحد بني بكر بن كلاب، وكان سفيان وابنه الضحّاك مسلمين»[١]. تذكر المصادر أنّ عناصر من سليم دخلت في دين محمّد في العهد المكي من زمن النبوّة، ولم يهاجر بعضها إلى يثرب[٢]. والاحتمال الأرجح أنّه بعد هزيمة محمّد يوم أُحد عمد حلفاء قريش من بني سليم إلى طرد أتباع محمّد من هذه القبيلة، فأرسل محمّد عدداً من أتباعه لنصرتهم، وتتّفق أغلب المصادر على أنّ الذي ندب النّاس لقتل أتباع محمّد هو عامر بن الطفيل أحد بني عامر بن صعصعة، وهو أحد فرسان العرب المعدودين وصاحب أيّام كثيرة. وتختلف الرّوايات في تحديد الانتماء القبلي للّذين استجابوا لندائه، فتقول رواية أولى إنّهم من سليم، وتقول رواية ثانية إنّهم في معظمهم من قبيلة عامر بن صعصعة.

ما توفّره المصادر من معلومات عن قتلة بعض أتباع محمّد يثبت أنّهم كانوا من بني سليم ومن بني عامر بن صعصعة، فعامر بن فهيرة قُتل على يد جبّار بن سلمى أحد رجال بني عامر بن صعصعة[٣]، أو على يد عامر بن الطّفيل[٤]، وقُتل نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي على يد أنس بن عبّاس أحد رجال بني سليم[٥]، وينحدر أتباع محمّد المقتولون في واقعة بئر معونة من الأنصار والمهاجرين من مكّة ومن أبناء قبيلة سليم[٦]. اشتركت عدّة عشائر بدويّة في قتل أتباع محمّد يوم بئر معونة، ومن المؤكّد أنّ ما فعله عامر بن الطّفيل لم يكن محلّ رضى عدد من أسياد بني عامر بن صعصعة لدخولهم في دين محمّد مثل سفيان بن أبي الضحّاك ولحسن علاقتهم بمحمّد مثل أبي برّاء عامر بن مالك.

يعيش قتلة أتباع محمّد من بني سليم في جوار بني عامر بن صعصعة[٧] وينحدرون من عشائر عصيّة ورعل وذكوان، وترتبط هذه العشائر بعلاقة جيّدة مع قريش، إذ كانت عشيرة ذكوان حليفة لبني عبد شمس وكانت عشيرة رعل حليفة لبني نوفل، واشتركت سليم مع قريش في تعظيم "العزّى"، وكانت سدانتها لبني شيبان من

---

(١) حسّان بن ثابت: **الديوان**، ج ١، ص ٢٣٢.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٢١٤.

(٣) ابن عبد البرّ: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ق ٢، ص ٧٩٦.

(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٤٩.

(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٤٠.

(٦) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٤، ص ٣٧٧.

(٧) أبو عبيدة: **كتاب النّقائض**، م ١، ص ٤١٠.

سليم حلفاء بني هاشم[1]. وكانت لعدد من رجال سليم مساهمة مهمّة في أنشطة مكّة التجاريّة، فالحجّاج بن علاط أحد أسياد عشيرة عصيّة وصاحب مناجم الذهب كان يقيم في مكّة ويشارك في أنشطتها التّجاريّة، وكان الحكيم بن أميّة أحد بني ذكوان محتسباً في مكّة[2]، وشارك عدد من أسياد قريش في استغلال مناجم الذهب الموجودة بأرض بني سليم، وكانت لعدد منهم أملاك مشتركة مع أبناء قبيلة سليم: «كانت القرية بين حرب بن أميّة ومرداس بن أبي عامر...»[3].

كانت قبيلة سليم من "الحلّة"، وكانت قبيلة عامر بن صعصعة من "الحمس"، وتشترك القبيلتان في الانتماء إلى مجموعة قيس عيلان، ويتوزّع بنو عامر على عدّة عشائر أشهرها ربيعة وهلال ونمير. وكانت ديار ربيعة قريبة من ديار بني سليم، فبئر معونة المكان الذي قُتل فيه أتباع محمّد «هو ماء لبني عامر بن صعصعة، وقال ابن إسحاق: هي بين ديار بني عامر وحرّة بني سليم، وهي إلى الحرّة أقرب...»[4].

كانت للأعراب أسباب عديدة للتّحرّك ضد أتباع محمّد في واقعة بئر معونة، من هذه الأسباب الثّأر لقتلى قريش يوم بدر الذين تربطهم بهم علاقة قرابة دمويّة، ، فأنس بن عبّاس سيّد عشيرة رعل شارك في قتل أتباع محمّد ثأراً لابن أخته طعيمة بن عدي أحد بني نوفل المقتول يوم بدر[5]، وندب عامر بن الطّفيل النّاس لقتال أتباع محمّد نصرة لقريش الذين ينتمون إلى مضر ضد أهل يثرب من الأوس والخزرج الذين ينحدرون من أصول يمنيّة، وأُطلق سراح عمرو بن أميّة الضّمري عندما عُرف أنّه مضري.

كانت واقعة بئر معونة في جانب كبير منها مشاركة من الأعراب في نصرة قريش في حربهم ضدّ محمّد، وكانت لهذه الواقعة صلة بصراعات داخليّة كانت تدور في قبيلة عامر بن صعصعة، فعامر بن الطّفيل كان يتوق إلى أن يكون سيّد هذه القبيلة ورجلها الأوّل مكان عمّه أبي برّاء عامر بن مالك الذي أدركه العمر[6]. فمشاركة عامر بن الطّفيل في قتل أتباع محمّد كانت في أحد جوانبها إحدى وسائله في صراعه من أجل السّيادة. وتذكر المصادر أنّ أبا براء عامر بن مالك حرّض بعض بني عامر بن

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٣٣.

(٢) Lecker (M): Art «Sulaym» in *E I 2*, T IV, p. 852.

(٣) البكري: **معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع**، م ٢، ج ٣، ص ١٠٧٠.

(٤) نفسه، م ٢، ج ٣، ص ١٠٧٠.

(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٤٠.

(٦) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٥٠.

صعصعة ضد ابن أخيه بعد واقعة بئر معونة، ودعا إلى النّيل منه: «قال ابن إسحاق: فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطّفيل، فطعنه بالرّمح، فوقع في فخذه، فأشواه، ووقع عن فرسه، فقال: هذا عمل أبي برّاء، إن أمت فدمي لعمّي، فلا يتبعنّ به، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أتي إليّ»[1].

استطاع الأعراب أن يُلحقوا بأتباع محمّد هزيمة قاسية في واقعة بئر معونة، وكانت هذه الواقعة متزامنة مع واقعة الرّجيع. وكما اختلفت المصادر حول تفاصيل واقعة بئر معونة اختلفت حول واقعة الرّجيع، وتعلّق الاختلاف بالغاية الأساسيّة التي من أجلها خرج أتباع محمّد الذين قُتلوا في هذه الواقعة. فتذكر رواية أولى أنّ عدداً من الأعراب قدموا إلى يثرب وطلبوا من محمّد أن يرسل من يفقّههم في الدّين، فأرسل معهم جمعاً من أتباعه[2]، وتذكر رواية ثانية أنّ محمّداً أرسل أتباعه عيوناً إلى مكّة ليخبروه خبر قريش[3]. وتختلف الرّوايات في عدد أتباع محمّد الذين شهدوا واقعة الرّجيع، فتذكر رواية أولى أنّهم ستّة أنفار[4]، وتذكر رواية ثانية أنّهم سبعة أنفار[5]، وتذكر رواية ثالثة أنّهم عشرة أنفار[6]. وتختلف المصادر حول نسب الأعراب الذين شاركوا في هذه الواقعة، فتذكر رواية أولى أنّهم من عشيرة لحيان إحدى عشائر هذيل[7]، وتضيف رواية ثانية إلى بني لحيان عشيرتي عضل والقارة[8] اللّتين تنتميان إلى قبيلة الهون بن خزيمة. ترتبط كل هذه العشائر (عضل، القارة ولحيان) بعلاقات جيّدة بقريش، فقبيلة الهون بن خزيمة تشترك مع قريش في الانتماء إلى "خزيمة" وتشترك خزيمة وهذيل في الانتماء إلى "مدركة" أحد أقسام "خندف" الفرع الثاني من مضر[9]، وتنتمي عضل والقارة إلى الأحابيش حلفاء قريش، وتقع منازل هؤلاء الأعراب قريباً من مكّة. كان بنو هذيل من الحلّة رغم مشاركتهم منذ زمن طويل في تدبير شؤون مكّة وكانوا يشرفون على سوق ذي المجاز[10]، وتولّى بنو لحيان وهم

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٤٠.
(٢) نفسه، ج ٣، ص ١٢٣.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٥٤.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٢٣.
(٥) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٣، ص ٢٩.
(٦) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٥٥.
(٧) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٥٤.
(٨) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٢٣.
(٩) Kindermann (H): Art «Rabi'a et Mudar», in *E I 2*, T VIII, p. 365.
(١٠) Rentz (M. J): Art «Hudhayl», in *E I 2*, T III, p. 559.

بطن من هذيل سدانة "سواع" إحدى آلهة العرب[١].

بيّت الأعراب لأتباع محمّد عند الرّجيع وهو «ماء لهذيل، لبني لحيان منهم، بين مكّة وعسفان بناحية الحجاز»[٢]، ودارت بين الفريقين مواجهة لم تدم طويلاً وأسفرت عن قتل أغلب أتباع محمّد وأسر رجلين هما زيد بن الدّثنة وخبيب بن عدي. كان هدف الأعراب تحصيل أكثر ما يمكن من الأسرى من أتباع محمّد للحصول على مكافأة رصدتها بعض عشائر قريش لمن يمكّنها من الثأر لقتلاها، «فقالوا: إنّا، واللّه، ما نريد قتالكم، إنّما نريد أن نصيب بكم ثمناً من أهل مكّة، ولكم العهد والميثاق ألاّ نقتلكم»[٣]. رضي اثنان من أتباع محمّد بالأسر، وفضّل البقيّة الموت. اشترت عشيرة نوفل خبيب بن عدي، واشترى صفوان بن أميّة سيّد بني جمح زيد بن الدّثنة، والظّاهر أنّ أهل مكّة قاموا بقتل الأسيرين بعد أن رفض محمّد عرض وفدهم الذي قدم عليه في يثرب، وكان أبو الأعور السّلمي الذي قاد بني سليم يوم أُحد أحد أعضاء وفد مكّة[٤]. ولم يغيّر حضور سيّد بني سليم من موقف محمّد الذي رفض ما عُرض عليه، واختار أن يواصل الحرب ضد أهل مكّة وحلفائهم من الأعراب.

كان لواقعة بئر معونة ولواقعة الرّجيع تأثير شديد في أتباع محمّد، إذ وقعتا بعد هزيمة يوم أُحد، ولم يكن بإمكان محمّد أن يثأر من قتلة أتباعه: «... عن أنس بن مالك: (...) فبلغ ذلك نبيّ اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، فقنت شهراً في صلاة الصّبح يدعو على رعل وذكوان وعصيّة وبني لحيان. قال: فقرأنا بهم قرآناً زماناً ثم إنّ ذلك رُفع أو نُسي: بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَ أَرْضَانَا»[٥].

كانت واقعة بئر معونة وواقعة الرّجيع، كما قُلنا، مناصرة من الأعراب لقريش في صراعهم ضد أهل يثرب ومحاولة من الأعراب للاستفادة من الصّراع الذي كان يجري بين محمّد وقومه. لم يقم محمّد بالانتقام من قتلة أتباعه في واقعة بئر معونة، ورضي بدفع ديّة رجلين من بني عامر بن صعصعة قتلهما عمرو بن أميّة الضّمري، ولم يطالب محمّد الأعراب بدفع ديّة القتلى من أتباعه. والغريب أنّ عامر بن الطّفيل هو الذي طالب محمّداً بدفع ديّة العامريين، ويبدو أنّ أبا برّاء عامر بن مالك توفّي بعد واقعة بئر معونة بمدّة زمنيّة قصيرة، «... فدعا أبو براء بن عامر إلى الوثوب بعامر، فلم يجيبوه،

---

(١) ابن الكلبي: **كتاب الأصنام**، ص ١٠.

(٢) البكري: **معجم ما أستعجم**...، م ١، ج ٢، ص ٦٤١.

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٥٥.

(٤) الواحدي: **أسباب النزول**، ص ٢٤٩.

(٥) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٥٣.

فغضب، فدعا بالخمر، فشربها صرفاً حتّى قتلته»[١]. وتذكر مصادر عديدة أنّ محمّداً ذهب إلى بني النّضير يستعينهم في دفع ديّة العامريين للحلف الذي كان بينهم وبين بني عامر بن صعصعة، فاستغلوا قدومه إلى حصونهم، وأرادوا قتله، فكان ذلك سبباً لإعلانه الحرب عليهم.

حاصر جيش محمّد بني النّضير مدّة خمسة عشر يوماً، ولم يقم بنو عامر بن صعصعة بأيّ شيء لنصرة حلفائهم الذين طردهم محمّد من يثرب وأخذ نخيلهم. وكان حزن بعض الأعراب لرحيل اليهود عن يثرب شديداً: «يقول نعيم بن مسعود الأشجعي: فدى لهذه الوجوه التي كأنّها المصابيح ظاعنين من يثرب. من للمجتدي الملهوف؟ ومن للطارق السّغبان؟ ومن يسقي العقار؟ ومن يُطعم الشّحم فوق اللّحم؟ ما لنا بيثرب بعدكم مقام»[٢]، وقال عبّاس بن مرداس السّلمي شعراً يذكر فيه حزنه لرحيل بني النّضير عن يثرب[٣].

حرص محمّد بعد طرد بني النّضير من يثرب على الخروج في عدد كبير من أتباعه إلى سوق بدر، وكلّفت قريش نعيم بن مسعود الأشجعي بتخذيل أتباع محمّد عن الخروج، وأعطوه مقابل ذلك عشرين فريضة[*] من الإبل[٤]. ذهب نعيم بن مسعود إلى يثرب، ولم يفلح في تحقيق ما كُلّف به، وخرج محمّد مع جمع من أتباعه إلى سوق بدر التي غاب عنها أهل مكّة.

كانت إحدى غايات محمّد من الخروج إلى سوق بدر استعراض قوّته أمام الأعراب الذين أصبحوا أكثر جرأة عليه بعد واقعة أُحد، وبعد هذه الحادثة التي تُعرف في المصادر بغزوة بدر الموعد بشهرين تناءى إلى محمّد أنّ أنماراً وثعلبة جمعوا له الجموع، فخرج في جمع من أتباعه إلى نجد: «... ثم سار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في أصحابه حتّى أتى محالهم، فيجدون المحال ليس فيها أحد، وقد ذهبت الأعراب إلى رؤوس الجبال وهم مطلّون على النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم»[٥]. ولمّا حان وقت الصّلاة خاف محمّد «أن يغيروا عليه وهم في الصّلاة وهم صفوف»[٦]،

---

(١) ابن قتيبة: **الشّعر والشّعراء**، ص ٣٤٠.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٧٥.

(٣) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ١٤، ص ٣٠٨.

(*) كل شيء تَفرِضُه فتُوجِبه على إنسان بقَدْر معلوم

(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٥) نفسه، ج ١، ص ٣٩٦.

(٦) نفسه، ج ١، ص ٣٩٦.

فصلّى بأتباعه بطريقة تمكّنهم من أن يظلّوا منتبهين لما يفعله الأعراب، وستُعرف هذه الصّلاة بعد ذلك بـ"صلاة الخوف"[1]. تغلب على تضاريس نجد المرتفعات والجبال، وهذا ما جعل أتباع محمّد عاجزين عن ملاحقة الأعراب، وتذكر بعض المصادر أنّ محمّداً تعرّض في هذه الواقعة التي تُعرف بـ"واقعة ذات الرّقاع" إلى محاولة اغتيال قام بها أحد أسياد الأعراب، ولا تقدّم المصادر معلومات ذات قيمة عن هذه الحادثة[2]. وبعد هذه الواقعة غيّر محمّد وجهته، وخرج في ألف من أتباعه إلى دومة الجندل التي تقع شمال يثرب على أطراف بلاد الشّام وينزلها جمع من قبيلة كلب التي تنتمي إلى "قضاعة"، «وفي هذه الغزاة وادع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عيينة بن حصن أن يرعى بتغلمين وما ولاه إلى المراض»[3]. يُعرف عيينة بن حصن بأنّه "ربّ معدّ"[4] وينحدر من عائلة توارثت القيادة، وكانت له أيام كثيرة، وكان من الجرّارين، «ولم يكن الرّجل يسمّى جرّاراً حتّى يرأس ألفاً»[5]. ومن المرجّح أنّه أراد بموادعة محمّد لمدّة زمنيّة قصيرة أن يدعمه في حربه ضدّ قبائل الشّمال التي تنحدر في معظمها من أصول يمنيّة.

عاد محمّد من غزوة دومة الجندل من دون قتال. وفي شهر شعبان من سنة خمس للهجرة توجّه في جمع غفير من أتباعه إلى عشيرة المصطلق، تنحدر هذه العشيرة من خزاعة، وتنتمي إلى تحالف الأحابيش، وتقع ديارها قريباً من مكّة في مكان يسمّى المريسيع، «وهو ماء في ناحية قديد إلى السّاحل»[6]. كان هجوم أتباع محمّد على الأعراب مفاجئاً وعنيفاً: «... ثمّ إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أمر أصحابه أن يحملوا، فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقُتل عشرة منهم، وأسر سائرهم، وغنمت النّعم والشّاء...»[7].

أظهر محمّد في هذه الواقعة التي تُعرف بـ"واقعة المريسيع" بأساً شديداً ضد أعدائه ورحمة بالذين يقبلون بما يدعو إليه، إذ انتهت الواقعة بزواجه من جويريّة ابنة الحارث بن أبي ضرار سيّد العشيرة وإطلاق سراح الأسرى والسّبايا. وبهذا دخل بنو

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٩٦.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٥٩ ـ ١٦١.

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٦٣.

(٤) ابن قتيبة: **المعارف**، ص ٣٠٢.

(٥) ابن حبيب: **المحبّر**، ص ٢٤٩.

(٦) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٥، ص ١١٨.

(٧) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٤٠٧.

المصطلق في دين محمّد وعهده، وبذلك بدأ تحالف الأحابيش في التّفكّك، ولم تفعل قريش أيّ شيء لحماية حلفائها من الأعراب، وكان على محمّد بعد فراغه من بني المصطلق أن يعود سريعاً إلى يثرب لخوفه من أن يأتيها عيينة بن حصن من خلفه، وقد انقضت مدّة الموادعة التي كانت بينهما[1].

حاول عدد من أسياد الأعراب جمع النّاس لحرب محمّد، وفشلوا في أغلب محاولاتهم، إذ لم تكن للأعراب طاقة على تكوين جيش وافر العدد، وكانوا يفتقرون إلى قادة بارزين قادرين على حشد النّاس وتعبئتهم، وكانت بينهم عداوات كثيرة، واختارت قبيلة مزينة الانضمام بصفة جماعيّة إلى حلف محمّد، فأرسلت وفداً إلى يثرب في شهر رجب من سنة خمس للهجرة، فـ «كان أوّل من وفد على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من مضر أربعمائة من مزينة...»[2].

استطاع محمّد أن يتجاوز هزائمه في أُحد وبئر معونة والرّجيع، وأظهر للأعراب أنّه يتمتّع بدرجة لا يُستهان من القوّة، فتجنّبت العشائر البدويّة الدّخول في مواجهات حربيّة ضدّه. وعندما استنفر أسياد يهود خيبر الأعراب لحرب محمّد استجابوا لهم. وتختلف المصادر حول التّجمّعات البدويّة التي انضمّت إلى الأحزاب، فتذكر رواية أولى أنّ الأعراب الذين حضروا واقعة الخندق هم فزارة ومرّة وأشجع[3]، وتضيف رواية ثانية إليهم قبيلة أسد بن خزيمة وقبيلة سليم[4]، وتذكر رواية ثالثة أنّ عشيرة مرّة لم تحضر هذه الواقعة.

من الظّاهر أنّه بعد أن استتبّ الأمر لأتباع محمّد وغلب دينه على معظم العرب أنكرت عدّة قبائل وعشائر بدويّة كلّ مشاركة لها في حربه: «... لمّا أجمعت غطفان السّير أبى الحارث بن عوف المسير، وقال لقومه: تفرّقوا في بلادكم، ولا تسيروا إلى محمّد، فإنّي أرى أنّ محمّداً أمره ظاهر لو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة، فتفرّقوا في بلادهم، ولم يحضر واحد منهم، وهكذا روى الزّهري، وروت بنو مرّة...»[5].

تنتمي كلّ التجمّعات البدويّة التي شاركت في واقعة الخندق إلى مضر، إذ ينتمي بنو فزارة وبنو مرّة إلى ذبيان على أكثر الرّوايات تداولاً. وتشترك ذبيان مع أشجع في الانتماء إلى غطفان، وتشترك غطفان مع سليم في الانتماء إلى قيس عيلان، وتنتمي

---

(1) نفسه، ج ٢، ص ٤٢٢.
(2) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٩١.
(3) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٧١.
(4) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٤٣.
(5) نفسه، ج ٢، ص ٤٤٣.

قبيلة أسد بن خزيمة إلى الفرع الثاني من مضر الذي يعرف باسم "خندف".

تذكر عدّة مصادر أنّ عشائر غطفان المشاركة في واقعة الخندق مثلت قوّة بشريّة يُعتد بها، إذ خرجت فزارة في ألف، وخرجت مرّة في أربعمائة، وخرجت أشجع في أربعمائة، وخرجت سليم في سبعمائة، ولا تذكر المصادر عدد بني أسد بن خزيمة الذين شاركوا في هذه الواقعة. وتتفق أغلب المصادر على أنّ الذين وافوا الخندق كانوا عشرة آلاف منهم أربعة آلاف من قريش وأتباعهم، وهذا ما يجعل عدد أبناء أسد بن خزيمة الحاضرين يوم الخندق ثلاثة آلاف وخمسمائة، وهذا عدد يصعب قبوله. من الممكن أنّ عدد جيش الأحزاب أقلّ من عشرة آلاف، وربما وافت الخندق عدّة مجموعات بدويّة صغيرة العدد لم تذكرها المصادر.

اتّفقت المصادر حول تحديد عدد عناصر بعض التّجمّعات البدويّة التي وافت الخندق، ولا شكّ في أنّ هذا الاتّفاق ليس دليل صحّة هذه الأعداد المقدّمة، فالرّواة قد اختلفوا في تحديد عدد أتباع محمّد الحاضرين في وقائع عديدة، فأنّى لهم أن يدركوا عدد أعدائه الحاضرين في واقعة الخندق ؟ ما هو ثابت أنّ جيش الأحزاب كان وافر العدد وأنّ الجزء الأكبر من هذا الجيش من الأعراب، فعشيرة فزارة عبّأت واستنفرت كلّ ما تملكه من طاقات بشريّة، وكان سيّدها عيينة بن حصن شديد التّحمّس لحرب محمّد، أمّا أشجع فلم تحضر بجميع عناصرها البشريّة إلى الخندق، وكان سيّدها يومئذ مسعود بن رخيلة، وكان أبو الأعور سفيان بن عبد شمس صديق قريش سيّد قبيلة سليم يوم الخندق. تذكر عدّة مصادر أنّ الأحزاب انقسموا إلى ثلاثة عساكر، من الظّاهر أنّ بني سليم دخلوا في عسكر قريش وكوّنت عشائر غطفان عسكراً واحداً تحت قيادة عيينة بن حصن، ومثّل بنو أسد بن خزيمة عسكراً تحت قيادة طليحة بن خويلد.

ضمّ جيش الأحزاب عدّة تجمّعات بدويّة تنزل في أغلبها بمرتفعات نجد، وسبق لأتباع محمّد أن شنّوا عدّة غارات على عدد منها، وكان بنو عامر بن صعصعة أبرز المتغيّبين عن واقعة الخندق، ويبدو أنّ غيابهم عائد إلى رحيلهم إلى أرض بليّ البعيدة عن يثرب[1]، وإلى سوء علاقتهم بقبائل غطفان التي مثّلت قسماً غالباً من جيش الأحزاب وإلى علاقة التحالف التي جمعت عدداً من أسيادهم بمحمّد.

تضافرت عوامل عديدة في دفع الأعراب إلى المشاركة في قتال محمّد، ومن هذه العوامل الرّغبة في تحصيل الغنائم ونصرة قريش ويهود خيبر: «وجعلت يهود

---

(١) نفسه، ج ١، ص ٣٥١.

لغطفان تحريضاً على الخروج نصف تمر خيبر كلّ عام (...) وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل طليحة الأسدي فيمن تبعه من بني أسد، وهما الحليفان أسد وغطفان، وكتبت قريش إلى رجال من بني سليم بينهم وبينهم أرحام استمداداً لهم، فأقبل أبو الأعور بمن تبعه من سليم مدداً لقريش»[1] . كانت حياة الأعراب تقوم في جزء أساسي منها على الإغارة والنّهب، ولهذا خرجوا بكثافة إلى واقعة الخندق طمعاً في تحصيل خيرات يثرب الكثيرة من تمر وقطعان إبل وأغنام، وشارك الأعراب في قتال أتباع محمّد نصرة لقريش واليهود الذين استنصروهم، إذ كانت علاقة سليم بقريش جيّدة، وكانت علاقة غطفان بيهود خيبر جيّدة. «قال عيينة: إنّا، واللّه، ما جئنا ننصر قريشاً، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا، ولا خرجت معنا من حرمها، ولكن كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة مع أنّنا ننصر حلفاءنا من اليهود، فهم جلبونا إلى ها هنا»[2] .

فوجئ الأعراب الذين تعوّدوا على الغارات الخاطفة بوجود خندق يحمي يثرب، فأقاموا معسكرهم قريباً منها في انتظار أن تسنح الظّروف باقتحامها، وكان عليهم أن يوفّروا مراعي لخيلهم وإبلهم. فالأراضي المحيطة بيثرب في معظمها سبخ لا توفّر مرعى جيّداً: «... وسرّحت غطفان إبلها إلى الغابة في أثلها وطرفائها في عضاه الجرف (...) وكادت إبلهم تهلك من الهزال»[3] . لم يكن الأعراب متعوّدين على حصار القرى، ولم تكن لهم آلات حربية تمكّنهم من ذلك، ولم يظهروا إصراراً كبيراً على اقتحام يثرب، فأغلب المحاولات التي تمّت لتجاوز الخندق قادها فرسان قريش، وكان محمّد يدرك أنّ قدوم الأعراب كان بدافع الرّغبة في تحصيل الغنائم في المقام الأوّل، لذلك اختار أن يعرض على أسياد غطفان جزءاً من تمر يثرب مقابل أن يرجعوا عنه، فلم يتردّدوا في قبول عرضه. وكان لعيينة بن حصن والحارث بن عوف لقاء به، ورغم أنّ ما عرضه محمّد عليهما لم يتحقّق لتراجعه عن ذلك، ساهم قبول سيدي غطفان هذا العرض في انفضاض جيش الأحزاب عن يثرب، فعندما تناءى خبرهما إلى بني قريظة شعروا بالخذلان والخديعة، ولم يفعلوا شيئاً كبيراً لتقويض صفوف أتباع محمّد، ولعب نعيم بن مسعود الأشجعي دوراً مهمّاً في فكّ الحصار عن يثرب[4] .

---

(١) الديار بكري: **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، ج ١، ص ٤٨٠.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٧٩.

(٣) نفسه، ج ٢، ص ٤٤٤.

(٤) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٧٤.

تختلف الرّوايات حول دوافع نعيم بن مسعود للقيام بتخذيل النّاس عن حرب محمّد، فتذكر رواية أولى أنّه قدم مع قومه لحرب محمّد ثم اختار عند حصار يثرب أن يخرج عنهم ويعمل لصالح محمّد، فتحالفا على ذلك بشكل سرّي[١]. ونجح نعيم بن مسعود في بثّ الرّيبة في نفوس أسياد بني قريظة وفي نفوس أسياد قريش وأسياد الأعراب، وتذكر رواية ثانية أنّه لم يتعمّد تخذيل النّاس عن حرب أتباع محمّد، ولكنه خُدع، إذ أوهمه محمّد بوجود اتّفاق سرّي بينه وبين بني قريظة[٢].

كان لنعيم بن مسعود متعمّداً أو مخدوعاً دور واسع في بثّ الرّيبة في صفوف مختلف مكوّنات الأحزاب. وكان الطّقس غير ملائم لإطالة أمد الحصار، فالبرد شديد، والريح لا تكفّ عن الهبوب، ولهذا اختار الأعراب أن يعودوا إلى ديارهم، وبهذا فشلت أهمّ محاولة قام بها أعداء محمّد من قريش والأعراب واليهود للقضاء على الكيان الإسلامي. وتذكر بعض المصادر أنّ الأحزاب وهم ينفضّون عن يثرب كانوا يدركون أنّ أتباع محمّد سيسيرون حتماً إلى بني قريظة وسينتقمون منهم.

فضّل الأعراب أن يعودوا إلى ديارهم وأن يخلّوا بين محمّد وبني قريظة، ويعود موقفهم هذا في أحد أسبابه إلى أنّ فريقاً منهم كانوا يفضّلون محمّداً على اليهود: «قالوا (...) وإنّما يقع حرّ محمّد ببني قريظة إذا ولّينا جثم عليهم، فحصرهم جمعة حتّى يعطوا بأيديهم قال الحارث: بعداً وسحقاً. محمّد أحبّ إلينا من اليهود»[٣]. فضّل الأعراب أن يخلّوا بين محمّد ويهود يثرب، وربما لم يتوقّعوا أنّه سيتصرّف بكلّ تلك الشدّة، إذ لم ينتظر محمّد كثيراً بعد ذهاب الأحزاب، وتوجّه إلى بني قريظة، وقام باستئصالهم بشكل عنيف لم يتعوّد عليه العرب، فقتل المقاتلة، وسبى النّساء، وأرسلهنّ إلى نجد حيث جرى بيعهن، واشترى بثمنهن سلاحاً وخيلاً.

بعد فراغ محمّد من بني قريظة قام أحد أتباعه وهو عبد اللّه بن أنيس بقتل سيّد بني لحيان سفيان بن خالد بن نبيح[٤]، وقام محمّد بن مسلمة في جمع صغير من أتباع محمّد بالإغارة على القرطاء «وهم بطن من بني بكر من كلاب، وكانوا ينزلون البكرات بناحية ضريّة، وبين ضريّة والمدينة سبع ليال»[٥]. وخرج محمّد في جمع غفير من أتباعه إلى بني لحيان قتلة أتباعه يوم الرّجيع، وعلم هؤلاء الأعراب بقدومه، ففرّوا،

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٨٠ ـ ٤٨١.
(٢) نفسه، ج ٢، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧.
(٣) نفسه، ج ٢، ص ٤٨٠.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ٥٣١ ـ ٥٣٣.
(٥) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٧٨.

واحتموا برؤوس الجبال[١]. ولم تتحرّك قبيلة قريش لحماية حلفائها في مواجهة محمّد الذي أظهر تصميماً كبيراً على إخضاعهم لسلطته، أمّا الأعراب فلم يثبتوا في معظمهم على حربه كثيراً، فالتّحالف الذي جمع بينهم وبين قريش واليهود والذي خاض واقعة الخندق كان تحالفاً هشّاً، فبعد هذه الواقعة اختارت كلّ قبيلة طريقتها الخاصة في التّعامل مع محمّد، فوادعته أشجع: «قالوا: وقدمت أشجع على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، وأمر لهم بأحمال التّمر، فقالوا: يا محمّد، لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً منك منّا ولا أقلّ عدداً، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك، فجئنا نوادعك، فوادعهم»[٢].

وادعت بعض عشائر الأعراب محمّداً بعد واقعة الخندق، وواصلت عدّة عشائر بدويّة أخرى أنشطتها المعادية له. فبعد هذه الواقعة بمدّة زمنيّة قصيرة أغار عيينة بن حصن في جمع من أتباعه على سرح أتباع محمّد، واستطاع سيّد غطفان أن يغنم عدداً من اللّقاح، ولكنّه خسر أربعة من أتباعه[٣]. وبدأ محمّد بعد واقعة الخندق في اعتماد أسلوب الغارات الخاطفة ضدّ قبائل نجد بعد أن فشلت الحملات الكبرى لفرار الأعراب واحتمائهم برؤوس الجبال. ولم يحالف التّوفيق الكثير من السّرايا، ففي شهر ربيع الأوّل من سنة ستّ للهجرة ظفر بنو ثعلبة بسريّة له تتكوّن من عشرة أفراد، فقاموا بقتلهم، ولم ينج منهم سوى قائدهم محمّد بن مسلمة[٤]. وبعد هذه الواقعة بمدّة قصيرة حاول بنو ثعلبة اجتياح مراعي قريبة من يثرب، فأرسل إليهم محمّد سريّة بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح[٥]. وحاول أسير بن زارم سيّد يهود خيبر جمع أعراب غطفان من جديد لحرب أتباع محمّد، وعلم محمّد بذلك عن طريق أحد حلفائه من بني أشجع، فأرسل علي بن أبي طالب في مائة رجل سريّة إلى بني سعد إحدى عشائر ذبيان، فأغاروا عليهم، وساقوا النّعم والشّاء[٦]، فخاف الأعراب، وتراجعوا عن نصرة يهود خيبر. وقريباً من هذا الزّمان وبينما كان زيد بن حارثة يقود قافلة تجاريّة إلى الشّام «لقيه ناس من بني فزارة من بني بدر، فضربوه، وضربوا أصحابه حتّى ظنّوا أن قد قتلوا، وأخذوا ما كان معه»[٧]. ولمّا وصل الخبر إلى محمّد، أرسل إليهم سريّة،

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧.
(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٣٠٦.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٣٧ ـ ٥٤٩.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ٥٥١ ـ ٥٥٢.
(٥) نفسه، ج ٢، ص ٥٥٢.
(٦) نفسه، ج ٢، ص ٥٦٢.
(٧) نفسه، ج ٢، ص ٥٦٤.

واستطاع أتباعه أن يغنموا إبلاً، وسبوا إحدى بنات مالك بن حذيفة بن بدر، وقتلوا أمّها التي كانت يُضرب بها المثل في العزّة: «... عمد قيس بن المحسّر إلى أمّ قرفة، وهي عجوز كبيرة، فقتلها قتلاً عنيفاً، ربط بين رجليها حبلاً، ثم ربطها بين بعيرين، ثم زجرهما، فذهبا، فقطّعاها...»[1].

لم يقم الأعراب بعد واقعة الخندق بأنشطة خطيرة ضدّ محمّد، واقتصر نشاطهم على الغارات الخاطفة التي استهدفت أموال أتباعه المتمثّلة في قطعان الإبل والمواشي والقوافل التجاريّة. ووجد أتباع محمّد عنتاً كبيراً في ملاحقة الأعراب لصعوبة تضاريس نجد، وتذكر عدّة مصادر أنّ أبا سفيان بن حرب كلّف أعرابيّاً لا تحدّد المصادر نسبه بقتل محمّد، وأعطاه بعيراً ونفقة، ولمّا وصل الأعرابي إلى يثرب افتضح أمره[2]. وفي ذي القعدة من سنة ستّ للهجرة خرج محمّد في جمع كبير من أتباعه إلى مكّة، فاستنصرت قريش الأعراب للدّفاع عنها، ولم تستجب القبائل البدويّة الكبرى التي تنزل بنجد خاصة لدعوة قريش، وخلّوا بين محمّد وقومه، واستجاب لها عدد من الأعراب النازلين قريباً من مكّة وخاصة من بني بكر بن عبد مناة ومن الأحابيش ومن خزاعة.

أقام محمّد مع أتباعه على مشارف مكّة في "الحديبيّة"، وأرسل من هناك خراش بن أميّة أحد خزاعة إلى قريش، فعقر بعضهم جمله، وأراد قتله، «فمنعه من هناك من قومه حتّى خلّوا سبيل خراش، فرجع إلى النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم، ولم يكد...»[3]. تولّى من كان في مكّة من خزاعة حماية رسول محمّد، ولعب سيّد الأحابيش الحليس بن زبّان دوراً مهمّاً في تليين موقف قريش، ووصل الأمر به إلى تهديدهم بالانخذال عنهم مع أتباعه: «قال ابن إسحاق: فحدّثني عبد اللّه بن أبي بكر أنّ الحليس غضب عند ذلك، وقال: يا معشر قريش، واللّه، ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصدّ عن بيت اللّه الحرام من جاء معظّماً له. والذي نفس الحليس بيده لتخلّنّ بين محمّد وبين ما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد...»[4]. كان تهديد سيّد الأحابيش أحد دوافع قريش لإبرام صلح الحديبيّة، واختارت خزاعة أن تدخل في حلف محمّد وعقده، ودخل بنو بكر بن عبد مناة في حلف قريش وعقدهم، ولم تر القبائل البدويّة الكبرى التي شاركت في حصار يثرب أنّها معنيّة بصلح محمّد وقومه.

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٩٠.

(٢) نفسه، م ٢، ص ٩٤.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٦٠٠.

(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

جعل صلح الحديبيّة محمّداً في موقع أكثر قوّة في مواجهة أعدائه من الأعراب، ووفّر فرصة لعدد كبير منهم لتغيير موقفهم المعادي له والتّصالح معه، فعدّة تجمّعات بدويّة لم تدخل في دين محمّد كرها لحربه مع قريش، «فقالوا: يا محمّد (...) نحن لا نريد قتالك، ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك، ولكنّا لا نقاتل قريشاً...»[1]. وأتاح صلح الحديبيّة فرصة لعدد من حلفاء قريش من الأعراب للدّخول في دين محمّد، فبعد هذا الصلح التحق بصفوف أتباعه عدد من أسياد سليم مثل أنس بن عبّاس الرّعلي والحجّاج بن علاط أحد أسياد عشيرة عصيّة وحليف بني عبد الدّار[2].

مكّن صلح الحديبيّة محمّداً من التفرّغ لحرب أعدائه من اليهود والأعراب، فتوجّه في جمع من أتباعه إلى يهود خيبر الذين كانت تربطهم علاقة جيّدة ببني أسد بن خزيمة وغطفان، والظّاهر أن هؤلاء الأعراب كانوا يتولّون حماية خيبر مقابل طعمة سنويّة. لم يفعل بنو أسد بن خزيمة أيّ شيء لنصرة حلفائهم. أمّا ما فعلته غطفان فيلفّه غموض كبير وتتعدّد فيه الرّوايات. تذكر مصادر عديدة أنّ يهود خيبر استنصروا أبناء غطفان لمواجهة محمّد وأنّ عيينة بن حصن استجاب لنداء حلفائه وخرج في جمع حاشد من أتباعه لنصرتهم. وتختلف الرّوايات في ما وقع بعد ذلك، فتذكر رواية أولى أنّه لمّا كان بنو غطفان في طريقهم إلى خيبر، «سمعوا خلفهم في أموالهم وأهاليهم حسّا ظنّوا أنّ القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهاليهم وأموالهم، وخلّوا بين رسول اللّه وبين خيبر...»[3]، وتذكر رواية ثانية أنّ عيينة بن حصن رفض عرض محمّد أن يرجع بمن معه ويكون له تمر خيبر سنة ودخل مع أتباعه أحد حصون خيبر، وسريعاً ما تناءى إلى رجال غطفان أنّ أتباع محمّد خالفوهم إلى ديارهم وأغاروا على أموالهم وأهلهم، «فخرجت غطفان على الصّعب والذّلول...»[4]. ما تتّفق حوله الرّوايتان هو أنّ رجوع الأعراب إلى ديارهم لم يتمّ بسبب اتّفاق مع محمّد وأنّ عيينة بن حصن لم يتعمّد خذلان حلفائه من يهود خيبر، وتذكر بعض المصادر أنّ محمّداً وهب أرضاً من أراضي خيبر لعيينة بن حصن[5]. وهذا ما يجعل فرضيّة وجود اتّفاق بينهما فرضيّة قويّة، ومن الممكن أنّ محمّداً اتّفق مع سيّد غطفان أن يعطيه قسماً من غنائم خيبر على أن يتراجع عن نصرة أهلها.

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٣٠٦.
(٢) الطّبري: **جامع البيان...**، م ٤، ج ٥، ص ٣٣٢.
(٣) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٢، ص ٤٨٩.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٦٥١.
(٥) نفسه، ج ٢، ص ٦٧٦.

بعد أن فرغ محمّد من واقعة خيبر كثّف من إرسال السّرايا إلى نجد، واستطاعت بعض هذه السّرايا تحصيل غنائم، وكان الفشل التّام مصير السريّة التي ترأسها بشير بن سعد إلى بني مرّة بن عوف، حيث قُتل أغلب من خرج فيها، وارتثّ رئيسها من بين الموتى[1]. وحاول عيينة بن حصن جمع غطفان مرّة أخرى لحرب أتباع محمّد، وعلم محمّد بذلك، فأرسل له ثلاثمائة من أتباعه[2]. واستطاع أتباع محمّد أن يغنموا من الأعراب نعماً كثيرة، وجرت بين الفريقين مناوشات قليلة، «ثمّ انكشف جمع عيينة، وتبعهم أصحاب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين، فأسروهما أسراً...»[3]. لم تكن غارات عيينة بن حصن مقتصرة على أموال أتباع محمّد من أهل يثرب، إنّما شملت عدداً لا يُستهان من التّجمّعات البدويّة، فقريباً من زمن هذه الواقعة أغار على بني جعفر بن كلاب أحد فروع قبيلة عامر بن صعصعة، «واستحفّ أموالهم وأموال المسلمين المجاوريهم، أحدهم أنس بن عبّاس الرّعلي»[4].

لم تتحرّك قبيلة سليم ضدّ محمّد بشكل موحّد، بعد واقعة الخندق دخلت بعض عشائرها في حلف محمّد، وبقيت عشائر أخرى ترفض الخضوع له، وواصل أتباعه تنفيذ غارات على عدد من عشائر هذه القبيلة، فبعد أن فرغ محمّد من عمرة "القضيّة" بعث «ابن أبي العوجاء في خمسين رجلاً إلى بني سليم»[5]. وانتهت هذه الغارة بالفشل التّام، قُتل عامة أتباع محمّد «... وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى، ثمّ تحامل حتّى بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم»[6]. بعد هذه الواقعة بأشهر قليلة وعندما كان محمّد في طريقه إلى مكّة التحق به بنو سليم، ودخلوا في غمار أتباعه، وكان على رأسهم العبّاس بن مرداس، كما التحق به عيينة بن حصن سيّد غطفان.

ظلّ عيينة بن حصن بعد التحاقه بصفوف أتباع محمّد يتعامل معه بكثير من النّدّيّة والجرأة: «... دخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: وأين الإذن ؟ فقال: ما استأذنت على أحد من مضر. وكانت عائشة مع النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم جالسة، فقال: من هذه الحميراء. فقال: أمّ المؤمنين. قال: أفلا أنزل لك عن أجمل منها...»[7]. كان عيينة بن حصن مُطاعاً في قومه، وهذا ما جعله في الطّبقة الأولى من المؤلّفة قلوبهم، ومن المرجّح أنّه التحق بصفوف أتباع محمّد ولم يدخل في دينه: «عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة قال: أخبرني من نظر

---

(1) نفسه، ج ٢، ص ٧٢٣.
(2) نفسه، ج ٢، ص ٧٢٨.
(3) نفسه، ج ٢، ص ٧٢٨.
(4) أبو عبيدة: **كتاب النقائض**، م ١، ص ٣٠٢.
(5) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ١٢٣.
(6) نفسه، م ٢، ص ١٢٣.
(7) ابن عبد البرّ: **العقد الفريد**، ق ٣، ص ١٢٥٠.

إلى عيينة بن حصن مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريد، يقولون: أي عدوّ اللّه، أكفرت بعد إيمانك ! فيقول: واللّه ما كنت آمنت باللّه قطّ...»[1]. تذكر عدّة مصادر أنّ محمّداً دخل مكّة بين عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ويشترك رفيقا محمّد في رفعة المنزلة، فالأقرع بن حابس أحد أسياد بني تميم وأحد فرسان العرب المعروفين بالجرّارين[2]، وكان له أمر الموسم وقضاء عكاظ[3]، وقد التحق بصفوف أتباع محمّد وهم في طريقهم إلى مكّة سنة ثمان للهجرة.

تذكر المصادر أنّ بني بكر بن عبد مناة الذين دخلوا في حلف قريش عند صلح الحديبيّة «بيّتوا خزاعة ليلاً وهم غارّون آمنون من عدوّهم»[4]، وأمعنوا فيهم القتل. وخرج محمّد إلى مكّة في جيش عظيم لنصرة خزاعة، وحاول فريق من أبناء مكّة منعه من دخولها، و«ضوى إليهم ناس من قريش وناس من بني بكر وهذيل...»[5]. قاتل المدافعون عن مكّة قتالاً قليلاً، ولاذوا بالفرار بعد أن سقط عدد منهم قتلى منهم أربعة من هذيل[6]. وتذكر بعض المصادر أنّ محمّداً أذن لخزاعة بعد أن غلب على مكّة بقتال بني بكر، «فخبطوهم ساعة»[7]. وعدا خراش بن أميّة الخزاعي على جنيدب بن الأدلع أحد هذيل، فقتله لثأر قديم[8]، وتذكر المصادر أنّ أحد الأعراب وهو فضالة بن عميّر بن الملوح اللّيثي أراد «قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو يطوف بالبيت عام الفتح...»[9]. ويستشفّ من المصادر أنّ محمّداً تفطّن إلى ما يدبّره فضالة بن عمير وأعلمه بذلك ولم يعاقبه.

مكث محمّد في مكّة عدّة أيّام، وأرسل من هناك خالد بن الوليد إلى بني جذيمة إحدى عشائر بكر بن عبد مناة بن كنانة، وكانت منازلهم غير بعيدة عن مكّة، ويختلف الرّواة في ما فعله خالد بن الوليد ببني جذيمة، فتذكر رواية أولى أنّه وجدهم على دين محمّد فتعمّد قتالهم ثأراً لعمّه الفاكه بن المغيرة الذي قُتل قبل عشرين سنة[10]، وتذكر

---

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ١١٥.
(٢) ابن حبيب: **المحبّر**، ص ٢٤٧.
(٣) المرزوقي: **كتاب الأزمنة والأمكنة**، ج ٢، ص ١٦٨.
(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧٨٣.
(٥) نفسه، ج ٢، ص ٨٢٣.
(٦) نفسه، ج ٢، ص ٨٢٥ ـ ٨٢٦.
(٧) نفسه، ج ٢، ص ٨٣٩.
(٨) نفسه، ج ٢، ص ٨٤٣ ـ ٨٤٤.
(٩) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٣٢.
(١٠) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ٨٨٠.

رواية ثانية أنّه «انتهى إلى بني جذيمة، فامتنعوا أشدّ الامتناع، وقاتلوا، وتلبّسوا السّلاح، فانتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء لا يسمع أذاناً، ثمّ حمل عليهم، فقتل من قتل، وأسر من أسر، فادّعوا بعدُ الإسلام...»[1]. بخضوع مكّة لمحمّد خضعت له معظم القبائل والعشائر البدويّة التي كانت تنزل قريباً منها، ولم يمكث أتباع محمّد بها سوى أسابيع قليلة، وخرجوا لملاقاة هوازن في واقعة "حنين".

مثّل فتح مكّة نقطة تحوّل أساسية في علاقة الأعراب بمحمّد، فبعده اختارت عدّة تجمّعات بدويّة الدّخول في دينه وحلفه، «وكانت العرب تلوّم بإسلامها الفتح يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبيّ»[2]، ورأت هوازن أنّ محمّداً بعد أن غلب على مكّة سيسير إليهم حتماً، فتجهّزوا لمواجهته.

تضمّ هوازن قبيلة عامر بن صعصعة وثقيفاً وبكراً، وتستعمل المصادر لفظ "هوازن" للدّلالة عادة على "عجز هوازن" الذي يضمّ قبيلة جشم بن معاوية بن بكر وقبيلة نصر بن معاوية بن بكر وقبيلة سعد بن بكر. وتشترك هوازن مع سليم وغطفان في الانتماء إلى مجموعة قيس عيلان، وتمتدّ معظم ديار هوازن شرق مكّة في المرتفعات القريبة من الطّائف[3].

عندما كان أهل مكّة منهمكين في حرب محمّد اختار بنو معاوية بن بكر الحياد، فلم يدعموهم في أُحد، ولم ينضمّوا إلى الأحزاب، ولم يستجيبوا إلى عروة بن مسعود عندما استنفر أهل عكاظ للدّفاع عن مكّة ضدّ أتباع محمّد الذين قدموا إليها سنة ستّ للهجرة. كانت ديار بني معاوية بن بكر بعيدة عن يثرب، وهذا ما جعلهم لا يدخلون في مواجهات ضد محمّد إلاّ في فترة متأخّرة من عهد النّبوّة. أمّا علاقة بني سعد بن بكر به فيكتنفها الكثير من الغموض، فالأخبار حولها متضاربة، إذ يذكر ابن سعد أنّ وفدهم كان من أوائل وفود الأعراب قدوماً على محمّد: «عن ابن عبّاس قال: بعثت بنو سعد بن بكر في رجب سنة خمس ضمام بن ثعلبة، وكان جلداً أشعر ذا غديرتين وافداً إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فسأله، فأغلظ في المسألة، سأله عمّن أرسله وبما أرسله، وسأله عن شرائع الإسلام، فأجابه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في ذلك كلّه، فرجع إلى قومه مسلماً قد خلع الأنداد، وأخبرهم بما أمرهم به، ونهاهم عنه، فما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلاّ مسلماً، وبنوا المساجد،

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ٨٨٣.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٣٣٦.

(٣) البكري: **معجم استعجم**. . . ، م ١، ج ١، ص ٨٧.

وأذّنوا بالصّلوات...»[١]. الاحتمال الأرجح أنّ ضمام بن ثعلبة لا يمثّل إلاّ قسماً صغيراً من قبيلة سعد بن بكر، فدخول معظم عناصر هذه القبيلة في دين محمّد لا يمكن أن يكون قد تمّ قبل واقعة حنين.

كان أسياد هوازن يدركون أنّ محمّداً سيسير إليهم بعد الفراغ من قريش، فلم يتحالفوا معهم لمواجهته، ومن المرجّح أنّهم رغبوا في أن يقاتل محمّد قومه، فهم لم ينسوا هزيمتهم أمام قريش في حرب الفجار. لم يتحقق ما رغب فيه أسياد هوازن وتوقّعوه، ودخل أتباع محمّد مكّة دونما قتال كبير، ومثّل ذلك خبراً سيّئاً لأسياد هوازن. لبث محمّد ما يقارب شهراً في مكّة، ثم خرج في جمع حاشد من أتباعه قدّرته المصادر باثني عشر ألف مقاتل لمواجهة جيش يضمّ قبائل عجز هوازن وقبيلة ثقيف وقسم صغير من عشيرة هلال بن عامر بن صعصعة، وتشترك كلّ هذه المجموعات في الانتماء إلى هوازن.

استنفر أسياد عجز هوازن بني عامر بن صعصعة لقتال أتباع محمّد، فلم يخرج معهم سوى جمع صغير. ويعود ذلك إلى الدّور الكبير الذي قام به حلفاء محمّد في تخذيل النّاس عن المشاركة في حربه[٢]، وإلى سوء علاقة هؤلاء الأعراب بثقيف الذين حرموهم من خيرات الطّائف: «... وكان بنو عامر يمنعون ثقيفاً ممن أرادهم من العرب، فلمّا كثرت ثقيف وشرفت حصنت بلادها، وبنوا سوراً على الطّائف، وحصّنوه، ومنعوا عامراً ممّا كانوا يحملونه إليهم عن نصف الثّمار، وأراد بنو عامر أخذه منهم، فلم يقدروا عليه، فقاتلوهم، فلم يظفروا...»[٣]. وأدّى هذا النّزاع إلى تقارب بين بني عامر بن صعصعة وقريش، فخرجت عشيرتا كعب وكلاب عن هوازن، ولم تواصلا المشاركة في حرب الفجار: «... ثمّ كان اليوم الثّاني من الفجار الثّاني، وهو يوم شمطة، فتجمّعت كنانة وقريش بأسرها وبنو عبد مناة والأحابيش (...) وجمعت هوازن، وخرجت، فلم تخرج معهم كلاب ولا كعب، ولا شهد هذان البطنان من أيّام الفجار إلاّ يوم نخلة مع أبي براء عامر بن مالك...»[٤]. وغابت كعب وكلاب عن يوم حنين، ولم يحضره من بني عامر بن صعصعة إلاّ قسم من هلال. ويتّفق الرّواة على أنّ عناج جيش هوازن كان لمالك بن عوف النّصري، وكان يومئذ ابن ثلاثين سنة، ولا شكّ في أنّ سيّد بني نصر بن معاوية قد سبق له أن أظهر قدرات

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٩٩.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ٨٨٦.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، م ١، ص ٦٨٥.

(٤) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ٢٢، ص ٦٧.

جيّدة أهّلته لقيادة هوازن، فممّا يُذكر عنه أنّه ساد قومه وهو أمرد[1].

تذكر مصادر كثيرة أنّ جيش هوازن كان يعدّ عشرين ألف يوم حنين. من الصّعب معرفة كيف أمكن للرّواة أن يدركوا عدد هذا الجيش في حين أنّهم اختلفوا في تحديد عدد أتباع محمّد في وقائع كثيرة. من المستبعد أن تستطيع ثقيف وقبائل عجز هوازن حشد عشرين ألف مقاتل، ومن المرجّح أنّ عدد مقاتلي جيشهم قريب من عدد مقاتلي جيش محمّد الذي يعدُّ اثني عشر ألفاً، ولهذا اعتقد أتباعه أنّهم لن يُهزموا عن قلّة. جاء في النّص القرآني: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا...» (التّوبة ٩/ ٢٥).

ما تقدّمه المصادر من معلومات لا يتيح معرفة مسار الأحداث قبل واقعة حنين. من المرجّح أنّ أسياد هوازن جمعوا أمرهم، واختاروا أن يسيروا إلى محمّد قبل أن يسير إليهم. كانوا يدركون أنّه سيخرج إليهم حتماً متى فرغ من مكّة، فاستعدّوا لملاقاته على خلاف قريش الذين لازموا قريتهم حتّى دهمهم أتباع محمّد، ومن المستبعد أنّهم تحالفوا مع أهل الطّائف ليذهبوا إلى مكّة ويطؤوها.

اختار أسياد هوازن أن يسيروا إلى محمّد ويلاقوه في المكان الذي يريدون، ومن المؤكّد أنّهم لم يفعلوا ذلك لحماية أموالهم وأهلهم لأنّ بدو هوازن ساقوا معهم الأموال والنّساء والأطفال لاعتقادهم أنّ ذلك سيكون دافعاً للثّبات في القتال والاستبسال. تذكر عدّة مصادر أنّ دريد بن الصّمّة أحد رجال جشم المعدودين وسيّد عجز هوازن في أيّام كثيرة كان حاضراً في واقعة حنين وهو «شيخ كبير ليس فيه شيء إلاّ التّيمّن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخاً مجرّباً»[2]. لم يرض شيخ جشم بما دبّره مالك بن عوف، وسفّه رأيه، وقبّح طريقته في إدارة المواجهة، ودعا هوازن إلى عدم طاعته والانصراف عنه: «قال دريد: يا معشر هوازن، واللّه ما هذا لكم برأي، هذا فاضحكم في عورتكم، وممكّن منكم عدوّكم، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم، فانصرفوا واتركوه»[3]. ولم تأخذ هوازن برأي دريد بن الصمّة، وأخذوا برأي مالك بن عوف.

التقى الجيشان عند الغلس في وادي أوطاس الذي يقول عنه دريد بن الصّمّة: «نعم مجال الخيل، لا حزن، ولا ضرس، ولا سهل دهس»[4]. كمن رجال هوازن في مضايق الوادي وشعابه، وفاجؤوا أتباع محمّد، وحملوا عليهم حملة رجل واحد،

---

(١) نفسه، ج ٢٢، ص ٧٦.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٥٢.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ٨٨٨.

(٤) نفسه، ج ٣، ص ٨٨٧.

فانكشفت خيل محمّد، وولّت هاربة، وتبعها أصحابه هاربين وقد تقوّضت صفوفهم. كانت الغلبة في بداية معركة حنين لصالح هوازن، جاء في النّص القرآني: «... وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» (التّوبة ٩/ ٢٥). لم يحسن جيش هوازن الاستفادة من تقوّض صفوف جيش محمّد، وسرعان ما تحوّل نصرهم إلى هزيمة، وتمّ هذا التّحوّل بشكل مفاجئ، إذ لا تذكر المصادر أشياء ذات قيمة عن تفاصيل واقعة حنين. هرب مقاتلو هوازن، وخلّفوا أموالهم وأهلهم. عادت ثقيف إلى الطّائف، واحتمى الأعراب بالمرتفعات والجبال هروباً من مطاردة أتباع محمّد لهم.

ما يثير الاستغراب في واقعة حنين أنّه لم يقتل من أتباع محمّد سوى أربعة حسب أكثر الرّوايات انتشاراً[1]. من المرجّح أنّ عدد القتلى في صفوف جيش محمّد في هذه الواقعة أكثر من ذلك بكثير، ولكنّ الذاكرة الجماعيّة نسيت القتلى من الأعراب الذين لم يمض زمن طويل على انضمامهم إلى جيش محمّد. لا تقدّم المصادر عدد قتلى أعراب هوازن، وتذكر أنّ القتل استحرّ في بني نصر، وفي هذا دليل على أنّهم كانوا أكثر ثباتاً في ميدان القتال من بني جشم بسبب ما وقع بين دريد بن الصمّة الجّشمي ومالك بن عوف النّصري قبل بداية معركة حنين.

اتّجه محمّد بعد فكّ الحصار عن الطّائف إلى "الجّعرانة" حيث جُمعت الغنائم والسّبايا التي أخذت يوم حنين، تذكر المصادر أنّها غنائم عظيمة: «وكان السّبي ستّة آلاف، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، وكانت الغنم لا يُدرى عددها، قد قالوا أربعين ألفاً وأقل وأكثر...»[2]. قد تكون المصادر بالغت في تقدير ما غنمه أتباع محمّد يوم حنين، وما هو ثابت أنّها غنائم كثيرة، وهذا ما جعل رؤساء عجز هوازن لا يتأخّرون في القدوم إلى محمّد.

يبدو أنّ بني سعد بن بكر كانوا أوّل القادمين علي محمّد، ويرجع ذلك إلى حسن علاقتهم بقريش، ولعلاقتهم الخاصة به، فهو قد أُرضع فيهم وعاش فترة من صباه بينهم، وكان أقاربه من الرّضاعة يتردّدون عليه متى قدموا إلى مكّة. أظهر محمّد مروءة كبيرة تجاه أسياد هوازن القادمين عليه. فقد ردّ إليهم أهلهم، وحفظ مال مالك بن عوف، وأرسل أهله إلى بعض أقاربهم بمكّة. والظّاهر أنّ خبر ما فعله محمّد تناءى إلى مالك بن عوف، فلم ينتظر كثيراً، فهرب من الطّائف، ووفد على محمّد، فردّ إليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل. هذا وسيقوم سيّد بني نصر بن معاوية بدور مهمّ في نصرة محمّد في حربه ضد أهل الطّائف.

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ٩٢٢. (٢) نفسه، ج ٣، ص ٩٤٣.

كانت واقعة حنين أضخم مواجهة حربيّة بين الأعراب وأتباع محمّد، وبعد هذه الواقعة فقدت التّجمعات البدويّة التي تنزل الحجاز كلّ أمل حقيقي في الانتصار على محمّد، فتسارع نسق دخولها في حلف "سيّد العرب"[1] وعقده. فبعد واقعة حنين بمدّة زمنيّة قصيرة انضمّت معظم عشائر عجز هوازن إلى صفوف أتباعه، وفي آخر سنة ثمان وإثر عودة محمّد إلى يثرب بعد فراغه من واقعة الطّائف قدم عليه وفد ثعلبة إحدى عشائر ذبيان[2]، وفي أوّل سنة تسع قدم عليه وفد أسد بن خزيمة[3]، وقدم إلى يثرب الشّاعر كعب بن زهيّر المزني الذي أهدر محمّد دمه لما بلغه عنه[4]، فدخل في دين محمّد، وقال في مدحه قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فقلْبِي اليَوْمَ مَتبُولُ مُتَيّمٌ إثْرَهَا لم يُفدَ مَكْبُولُ[5]

ارتفع نسق دخول أعراب الحجاز في دين محمّد بعد واقعة حنين، وكلّف محمّد عدداً من أتباعه بجمع صدقات القبائل والعشائر البدويّة التي أصبحت جزءاً من الكيان الإسلامي. وكان بسر بن سفيان مكلّفاً بجمع صدقة كعب أحد أقسام خزاعة، وكان بنو كعب ينزلون بذات الأشطاط «وقد حلّ بنواحيهم بنو جُهيم من بني تميم وبنو عمرو بن جندب بن العتير بن عمرو بن تميم فهم يشربون معهم على غدير لهم...»[6]. كان هؤلاء التّميميون يعيشون في جوار بني كعب بعيداً عن مضارب ديار معظم بني تميم. والظّاهر أنّ عامل محمّد طالبهم بدفع الصّدقة، فرفضوا، وشهروا السّلاح، فأرسل محمّد إليهم عيينة بن حصن الفزاري ومعه خمسون فارساً، فأغاروا عليهم، وأخذوا عدداً من الأسرى والسّبايا[7].

تناءى خبر ما فعله عيينة بن حصن وأتباعه إلى بقيّة أقسام قبيلة تميم التي كانت معظم منازلها شرق جزيرة العرب، فقدم عدد من أبرز أسيادها على محمّد، وكان بينهم وبينه مفاخرة شعراً وخطابة، ثمّ ردّ إليهم الأسرى والسّبايا، ودخلوا في دينه وحلفه، ورضوا بدفع الصّدقة له[8]. وفي رجب من سنة تسع للهجرة، استنفر محمّد

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٨١.
(٢) نفسه، م ١، ص ٢٩٨.
(٣) نفسه، م ١، ص ٢٩٢.
(٤) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ١٧، ص ٩٧٤.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١١٧ ـ ١٢٩.
(٦) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ٩٧.
(٧) نفسه، ج ٣، ص ٩٧٤ ـ ٩٧٥.
(٨) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥.

الأعراب للخروج إلى بلاد الشّام، وكانت غايته من هذا التّوجّه نحو أراضي الشّمال توفير موارد رزق للقبائل البدويّة التي خضعت له وخلق لحمة بين مختلف مكوّنات الكيان الإسلامي وتوجيه طاقات الأعراب نحو آفاق جديدة حتّى يكفّوا عن تبادل الإغارة. وبعد رجوع محمّد من واقعة تبوك قدم عليه وفد فزارة ووفد مرّة[1]، وقدمت عليه وفود عدّة عشائر من بني عامر بن صعصعة[2]. وكان من بين الوافدين عامر بن الطّفيل الذي جاء يطلب من محمّد أن يقرّ له بالسّيادة على أهل الوبر، فرفض محمّد طلبه، فهدّده عامر بن الطّفيل، وتوعّده بالحرب، ولم يعش سيّد بني عامر حتّى ينفّذ وعيده، إذ وافته المنيّة وهو في طريق العودة من يثرب[3]. وفي أواخر سنة تسع، وفي زمن الحج كلّف محمّد علي بن أبي طالب بإبلاغ النّاس ما جاء في سورة "براءة" من منع الوثنيين من أداء الحج والعمرة: «يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...» (التّوبة ٩/ ٢٨). وجاءت سورة براءة بتحريم النّسيء: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يَضِلُّ بِهِ الذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ» (التّوبة ٩/ ٣٧). ويتمثل النسيء في إضافة عشرة أيام للسنة القمريّة لتتساوى مع السّنة الشّمسيّة، ومن المرجّح أنّه حُرّم لعلاقته بالوثنيّة ولالتباسه بعدّة معتقدات دينيّة.

في الفترة الأخيرة من عهد النّبوّة أصبحت معظم القبائل البدويّة الكبرى التي تنزل الحجاز خاضعة لمحمّد، وكان وفد محارب الذي قدم في آخر سنة عشر للهجرة آخر وفود مضر قدوماً عليه[4]. وكان لدخول فريق من الأعراب في دين محمّد معنى سياسي أكثر منه ديني: «قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (الحجرات ٤٩/ ١٤).

٢ ـ أعراب الحجاز يرتدّون عن دين محمّد

دخل نفر من الأعراب في دين محمّد في العهد المكّي، وكانوا قدموا إلى مكّة للتّجارة أو لأداء العمرة والحج، وبعد أن هاجر محمّد إلى يثرب ارتفع نسق دخول

---

(١) نفسه، م ١، ص ٢٩٧.
(٢) نفسه، م ١، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٣) نفسه، م ١، ص ٣١٠.
(٤) نفسه، م ١، ص ٢٩٩.

الأعراب في دينه، وينتمي معظم أتباع محمّد من الأعراب في الفترة الأولى من زمن وجوده في يثرب إلى بعض عشائر خزاعة وبعض عشائر بكر بن عبد مناة، وعندما حوّل محمّد قبلته إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس فارق عدد من الأعراب دينه، «... وأمّا الأكثرون من أهل التّحقيق فقالوا: هذه المحنة إنّما حصلت بسبب التّحويل فإنّهم قالوا: إنّ محمّداً صلّى اللّه عليه وسلّم لو كان على يقين من أمره لما تغيّر رأيه. روى القفّال عن ابن جريج أنّه قال: بلغني أنّه رجع ناس من أسلم، وقالوا: مرّة ههنا ومرّة ههنا...»[1].

كانت قبلة محمّد في بداية نبوّته إلى الكعبة، ثمّ توجّه إلى بيت المقدس، وقبل واقعة بدر بقليل رجع محمّد من جديد إلى التوجّه إلى الكعبة، فرأى عدد من الأعراب في ذلك دليلاً على عدم صدقه، واختاروا مفارقة دينه. جاء في النصّ القرآني: «وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التِي كُنْتَ عليها إلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتّبِعُ الرّسُولَ مِمّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإنْ كَانتْ لَكَبِيرَةً إلاّ عَلَى الذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إيمَانَكُمْ إنّ اللّهَ بِالنّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (البقرة ٢/ ١٤٣). بعد تحويل القبلة إلى مكّة بزمن قصير جرت واقعة بدر، وقاتل محمّد قومه أهل الحرم، وقتل عدداً كبيراً من أسياد قريش وأشرافهم. وأثار ما فعله محمّد يوم بدر غيظ عدد من أتباعه من الأعراب، فاختار أبو بكر بن الأسود اللّيثي (بكر بن عبد مناة) بسبب واقعة بدر مفارقة دين محمّد، وقال شعراً يرثي فيه من أصيب من قريش في تلك الواقعة[2].

ارتدّ بعض الأعراب عن دين محمّد بعد واقعة بدر، واختارت عناصر أخرى كثيرة الدّخول فيه، وكانت واقعة بدر منعرجاً حاسماً في تنامي مشاركة أتباعه في أنشطته الحربيّة. فبعد هذه الواقعة أصبح أتباع محمّد الموجودون بيثرب في مواجهة مفتوحة ضدّ أهل مكّة، وكان محمّد يدرك أنّ معركته القادمة ضدّ قريش ستكون ضارية، فاستنفر أتباعه من أهل البوادي وحثّهم على القدوم إلى يثرب، وجعل للمهاجرين منهم منزلة خاصة تفوق منزلة غير المهاجرين: «إنَّ الذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأمْوَالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وِلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إلاّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (الأنفال ٨/ ٧٢).

---

(١) الرّازي: **التفسير الكبير**، ج ٤، ص ١٠٤.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

التحق عدد من الأعراب بيثرب، وقاتلوا ضد قريش يوم أُحد، وكانت هزيمة محمّد في تلك الواقعة سبباً قوياً في انخراط عدد مُعتبر من التجمّعات البدويّة في حربه، وهي تجمّعات تضمّ عناصر دخلت في دينه ولم تهاجر إلى يثرب وظلّت تعيش في البوادي ضمن الأطر القبليّة. اختار فريق أوّل من أتباع محمّد من الأعراب أن يقاتلوا مع قبائلهم وعشائرهم ضده، واختار فريق ثان موقف الحياد. أباح محمّد دم "أتباعه" الذين دخلوا في دينه وآمنوا بنبوّته وقاتلوا مع أقوامهم ضدّه: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا. إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً. سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا» (النّساء ٤/٨٩ ـ ٩١).

استطاع أتباع محمّد أن يتجاوزوا هزائمهم يوم أُحد والرّجيع وبئر معونة، وصمدوا أمام جيش الأحزاب الذي ضمّ تحالفاً بين عدد من القبائل البدويّة الكبرى وأهل مكّة. وبعد واقعة الخندق ارتفع نسق دخول أعراب الحجاز في دين محمّد وحلفه، وكان من بينهم نفر من عرينة، وهي إحدى عشائر بجيلة، وكان بنو عرينة مخالطين لأبناء قبيلة عامر بن صعصعة ويعيشون في غمار بني عمرو بن كلاب[١]. وكلّف محمّد أولئك النّفر برعي لقاحه، وبعد فترة زمنيّة قصيرة «غدوا على اللّقاح، فاستاقوها»[٢]، فلحق بهم يسار مولى محمّد «فأخذوه، فقطعوا يده ورجله، وغرزوا الشّوك في لسانه وعينيه حتّى مات...»[٣]. وبلغ الخبر محمّداً، فأرسل وراءهم عشرين فارساً، واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهري، فلحقوا بهم، وأسروهم، وجاؤوا بهم إلى محمّد، «فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُملت أعينهم، وصُلبوا هناك...»[٤]، كان ذلك في شهر شعبان من سنة ستّ للهجرة.

---

(١) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ١١، ص ١٤٤.
(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٢، ص ٩٣.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٦٩.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ٥٧٠.

بعد أن سيطر محمّد على مكّة وفضّ جموع هوازن يوم حنين اختار عدد من أسياد الأعراب الدّخول في دينه وحلفه، فقدم عليه علقمة بن علاثة أحد أسياد بني عامر بن صعصعة، وكانت لعلقمة بن علاثة رغبة في أن يكون سيّد قومه، وكانت بينه وبين عامر بن الطّفيل منافرات. والظاهر أنّ علقمة بن علاثة أراد من خلال دخوله في دين محمّد كسب دعمه في مواجهة خصمه[1]، ولمّا أخفق في مسعاه ارتدّ عن دين محمّد، وذهب إلى الشّام مع أبي عامر الرّاهب[2]، ولم يعد إلى الحجاز إلا بعد وفاة محمّد. لقد كانت ردّة علقمة بن علاثة حركة فرديّة، وهذا ما دفعه إلى مفارقة قبيلته والبحث عن مناصرين من قبائل أخرى، أمّا ردّة طليحة بن خويلد فاتخذت طابعاً جماعيّاً، إذ انضمّ إليه معظم أبناء قبيلة أسد بن خزيمة.

كانت ديار قبيلة أسد بن خزيمة غرب يثرب في مرتفعات نجد، ولم تكن لأبناء هذه القبيلة مساهمة مهمّة في أنشطة الأعراب المعادية لمحمّد، وتختلف المصادر حول مشاركتهم في واقعة الخندق، ومن المرجّح أنّ عدم حضورهم بقوّة في أحداث النبوّة يعود إلى انشغالهم بمحاربة قبيلة طيء. وبعد أن انتصر محمّد على أعدائه يوم فتح مكّة ويوم حنين اختارت عدّة تجمّعات بدويّة الدّخول في دينه وعهده، وفي أول سنة تسع قدم إلى يثرب بنو أسد بن خزيمة بالأثقال والعيال معلنين دخولهم في دين محمّد، وطالبوه أن يعطيهم من أموال الصّدقة[3].

كانت سنة تسع للهجرة سنة شهباء أهلكت الضّرع، وكان ذلك سبباً قويّاً لقدوم بني أسد بن خزيمة على محمّد بعد أن تناءى إليهم جمعه غنائم كثيرة يوم حنين. دخلوا في دينه وحلفه، وطالبوه أن يعطيهم من مال الصدقة كما أعطى غيرهم، وكان قدومهم بالأثقال والعيال مصدر إزعاج لسكّان يثرب، طالب بنو أسد بن خزيمة محمّداً أن يتكفّل بهم كما يتكفّل رؤساء العشائر بأتباعهم، فأعطاهم شيئاً من مال الصّدقة، وجعل عليهم قضاعي بن عمرو العذري.

عاد بنو أسد بن خزيمة إلى مضارب ديارهم، وواصلوا الإغارة على عدد من عشائر طيء: «قالوا: وكتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: بسم اللّه الرّحمن الرّحيم من محمّد النّبي إلى بني أسد (...) فلا تقربنّ مياه طيء وأرضهم فإنّه لا تحلّ لكم مياههم، ولا يلجنّ أرضهم إلاّ من أولجوا، وذمّة محمّد بريئة ممن عصاه...»[4].

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ١١٦.

(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٩٢.

(٤) نفسه، م ١، ص ٢٧٠.

واصل هؤلاء الأعراب بعد دخولهم في دين محمّد حياة الإغارة، ولم يلتزموا بمقتضيات انتمائهم إلى الكيان الإسلامي، وكان على محمّد أن يتدبّر موارد رزق لأتباعه من الأعراب حتّى يكفّوا عن تبادل الإغارة، فاستنفرهم للخروج إلى بلاد الشام الخصبة. وفي عهد متأخّر من زمن النّبوّة وبعد أن جاءت الأخبار بردّة الأسود العنسي باليمن وردّة مسيلمة بن حبيب باليمامة أعلن طليحة بن خويلد نبوّته، وتابعه قسم من بني أسد بن خزيمة، وفارقوا دين محمّد، ولم تستغرق ردّته من زمن نبوّة محمّد إلاّ زمناً قصيراً.

كان طليحة بن خويلد كاهناً وأحد فرسان مضر المعدودين وصاحب أيّام كثيرة، ويقال إنّه يعدل ألف فارس، وقامت نبوّته على مبدأ الاتّصال بقوى غيبيّة، ويُدعى صاحبه الذي يأتيه بالوحي ذا النّون، وكان له "قرآنه" وهو كلام مسجوع يشبه سجع الكهّان، من ذلك: «والحمام واليمام والصّرّد الصّوّام قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلغنّ ملكنا العراق والشّام»[1]. وأبقى طليحة بن خويلد على الصّلاة، وأسقط عن أتباعه الرّكوع: «وكان يأمرهم بترك السّجود في الصّلاة، ويقول: إنّ اللّه لا يصنع بتعفّر وجوهكم وتقبّح أدباركم شيئاً، اذكروا اللّه أعفّة قياماً»[2]. كان الرّكوع أحد أسباب نفور قسم من العرب من دين محمّد: «... عن علي بن أبي طالب قال: بينا أنا مع النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم في حير لأبي طالب أشرف علينا أبو طالب، فبصر به النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فقال: يا عم، ألا تنزل فتصلّي معنا، قال: ابن أخي لأعلم أنّك على حقّ ولكنّي أكره أن أسجد فتعلوني إستي...»[3]. وأسقط نبيّ بني أسد بن خزيمة عن أتباعه السّجود لإغراء النّاس باتّباعه.

آمن قسم من بني أسد بن خزيمة بنبوّة طليحة بن خويلد، وتركوا دين محمّد، وتابعوه، وأخذ أنصاره يتكاثرون، فأقام بسميراء «وهو منزل بطريق مكّة»[4]، وقدم إليه الأعراب «واتّبعه العوام، واستكثف أمره»[5]، وبعث رسولاً إلى نبيّ قريش يدعوه إلى الموادعة، وخيّر محمّد أن لا يرسل جيشاً لقتال طليحة بن خويلد، واعتمد في مواجهته سياسة الرّسل: «وبعث ضرار بن الأزور الأسدي إلى عوف الزّرقاني من بني الصّيداء وسنان الأسدي ثم الغنمي وقضاعي الدّئلي، وبعث نعيم بن مسعود الأشجعي

---

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ١١٥.
(٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، م ٢، ص ٣٤٤.
(٣) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، م ٢، ص ٢٧٤.
(٤) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٣، ص ٢٥٥.
(٥) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٥٦.

إلى ابن ذي اللّحية وابن مشيمصة الجبيري...»[١]. بدأ أتباع محمّد يتجمّعون لمواجهة طليحة بن خويلد، وقبل أن يتمكّنوا من القيام بأي شيء جاءت الأخبار بوفاة محمّد.

استطاع طليحة بن خويلد أن يقنع قسماً من بني أسد بن خزيمة بنبوّته، ومن المؤكّد أنّه كان للعصبيّة القبليّة دور مؤثّر في متابعة النّاس له. فقد أراد أولئك الأعراب أن يكون لهم نبيّهم على غرار قريش ليأكلوا به النّاس.

ينتمي أغلب أعداء محمّد من أعراب الحجاز إلى المجموعة القبليّة التي تُعرف باسم "مضر"، وهي المجموعة التي تنتمي إليها قبيلة قريش. وشاركت في حركة معاداة محمّد عشيرتا المصطلق والحيا اللّتان تنتميان إلى قبيلة خزاعة التي تنحدر من أصول يمنيّة وتنزل قريباً من مكّة، وتنتمي العشيرتان إلى الأحابيش حلفاء قريش. ويتوزّع أعداء محمّد من أعراب الحجاز على فرعي مضر: قيس عيلان وخندف. ومثّلت قبيلة عبس إحدى قبائل غطفان أبرز استثناء بين قبائل قيس عيلان الكبرى، إذ لم يكن لهذه لقبيلة أيّ نشاط معاد لمحمّد، وقد يعود موقفها هذا إلى ما تكبدته من خسائر في حروبها الطويلة ضد ذبيان. أمّا من فرع خندف فلم تشارك قبيلة مزينة في حركة معاداة محمّد، وهي قبيلة على درجة يُعتدّ بها من القوّة ووفرة العدد.

يشترك أغلب أعداء محمّد من أعراب الحجاز مع معظم أتباع محمّد من المهاجرين في الانتماء إلى "مضر" وكانت نسبة المهاجرين من مجموع أتباع محمّد في تزايد مستمر، وكان للانتساب إلى مضر حضور لدى النّاس وتأثير فيهم زمن النّبوّة. وينزل أعداء محمّد من أعراب الحجاز على مقربة من يثرب ومكّة القريتين اللّتين عاش فيهما محمّد أغلب فترات حياته، ولا تقدّم المصادر معلومات كافية عن طبيعة معتقداتهم الدّينيّة، ونذهب إلى أنّهم كانوا في أغلبهم على الوثنيّة، الدّين الغالب على مضر: «... إنّ العرب كانت النّصرانيّة فيها فاشية وعليها غالبة إلاّ مضر، فلم تغلب عليها يهوديّة ولا مجوسيّة، ولم تفش فيها النّصرانيّة»[٢]. اعتنقت بعض عشائر مضر الصّغيرة اليهوديّة، ولحقت بيهود يثرب وفارقت البداوة، ولم تعد مرتبطة بأصولها القبليّة. ولم تكن النّصرانيّة منتشرة بين العشائر البدويّة النّازلة بالحجاز، فنصارى تميم كانوا ينزلون البحرين[٣]. وتقوم الوثنيّة العربيّة على عدّة عناصر مثل الاعتقاد في عدّة آلهة وعبادة بعض الكواكب وتعظيم قوى وعناصر طبيعيّة عديدة والإيمان بوجود قوى

(١) نفسه، م ٣، ص ٥٧.

(٢) الجاحظ: **الرّسائل - من كتاب في الرّد على النّصارى**، م ٢، ج ٣، ص ٣١٣.

(٣) سلوى بالحاج صالح العايب: **المسيحيّة العربية وتطوّراتها**، ص ٧٨.

غيبيّة مثل الجن والشّياطين والملائكة. وعظّم أعراب الحجاز عدّة آلهة، وجسّدوها في أغلب الأحيان في أصنام، وكانت هذه الأصنام بمكّة والطّائف وبأماكن عديدة من بوادي جزيرة العرب، وكان لهذه الآلهة سدنة وحجاب، وكان أعراب الحجاز يأتونها وينحرون عندها ويهدون لها. جاء في النّص القرآني: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ» (المائدة ٥/١٠٣).

كان أعراب الحجاز يُشهدون آلهتهم على معاهداتهم ويقسمون بها ويتوجّهون لها بالدّعاء ويعتقدون في قدرتها على الرّحمة والعقاب: «... قال: فأتى بعيره، فأطلق عقاله، ثم خرج حتّى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أوّل ما تكلّم به أن قال: بئست اللاّت والعزّى، قالوا: مه يا ضمام، اتّق البرص، اتّق الجذام، اتّق الجنون، قال: ويلكم، إنّهما، واللّه، لا يضرّان، ولا ينفعان...»[١]. ورغم كثرة الآلهة كان أعراب الحجاز على وعي بأنّهم على دين واحد لاجتماعهم على تعظيم الكعبة.

بدأت عداوة أعراب الحجاز لمحمّد في زمن متأخّر من تجربته النّبويّة، وتعرّف أولئك الأعراب على دين محمّد باعتباره كياناً سياسيّاً آخذاً في التّوسّع. كانت أنشطة محمّد العسكريّة الأولى موجّهة ضدّ قريش، واختارت عدّة تجمّعات بدويّة صغيرة تنزل بين مكّة ويثرب موادعته، ورضي محمّد منها بذلك ليتفرّغ لمواجهة قريش. وبعد واقعة بدر انخرط الأعراب في الصّراع ضدّ محمّد لمواجهة تنامي نفوذه. فبعد انتصاره على قريش انتشر صيته في وسط جزيرة العرب، وهذا ما أغرى عدداً من أسياد أعراب الحجاز وفرسانها بالدّخول في مواجهة ضدّه بحثاً عن الزّعامة ومنافسة له على الرّئاسة: «... وقد قال له قومه: يا عامر، إنّ النّاس قد أسلموا فأسلم، قال: واللّه، لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتّى تتّبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش...»[٢]. رأى عدد من أسياد الأعراب أنّ محمّداً طالب ملك ورئاسة، فتصدّوا له، وحاربوه حفاظاً على مكانتهم بين النّاس[٣].

لم يستطع أسياد الأعراب أن يشكّلوا منافسين أكفّاء لمحمّد، واستطاع محمّد أن يجمع حوله عدداً غفيراً من النّاس، وتعاظمت قوّته، فلم يعد يكتفي بموادعة الأعراب له، وطالبهم بالخضوع إليه ودفع الصّدقة، فقاتل أعراب الحجاز محمّداً حفاظاً على استقلالهم ورفضاً لسلطان محمّد عليهم وبحثاً عن الزّعامة السّياسيّة ولتحقيق مكاسب

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٨٥. (٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧٢٩.
(٢) نفسه، ج ٤، ص ١٧٩.

اقتصاديّة، إذ سعى الأعراب للاستفادة ماديّاً من الصّراع بين أهل مكّة ومحمّد، فنفّذوا عدّة غارات على سرح أتباعه، وشاركوا في واقعة الخندق، وحدثت عدّة مواجهات بين الأعراب وأتباع محمّد بسبب التنافس على المراعي ومواطن الكلأ.

عادى الأعراب محمّداً لأسباب اقتصاديّة ونصرة لقريش الذين تجمعهم بهم أواصر قرابة دمويّة أو تحالف وصداقة ونصرة لحلفائهم وأصدقائهم من اليهود، وعادى الأعراب محمّداً حفاظاً على معتقداتهم الدّينيّة التي تتداخل فيها المعطيات الغيبيّة ووصايا الآباء المؤسّسين: «فقالوا: ما وراءك يا أربد ؟ قال: لا شيء، واللّه، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنّه عندي الآن فأرميه بالنّبل حتّى أقتله»[1]. وانضمت عدّة مجموعات بدويّة إلى قريش للدّفاع عن بيت اللّه الحرام، ونقم أعراب الحجاز على محمّد لقتله قريشاً أهل الحرم وولاة البيت، وتحرّكوا ضدّه دفاعاً عن معتقداتهم التي سفّهها، وفي مرحلة متأخّرة من عهد النّبوّة منع محمّد الوثنيين من الوصول إلى الكعبة لأداء شعائرهم، وأعلن حرباً شاملة عليهم، وألزمهم بترك دينهم.

عادى أعراب الحجاز محمّداً لأسباب عديدة يتداخل فيها السّياسي بالاقتصادي والدّيني، وتحرّكوا ضدّه في شكل مجموعات صغيرة، واعتمدوا على الغارات الخاطفة، وتجنّبوا المواجهات الكبرى، وتحالفوا مع أهل القرى يوم الخندق ويوم حنين فشكّلوا جيشاً وافر العدد، وترأس أنشطتهم المعادية لمحمّد عدد من الأسياد أبرزهم عيينة بن حصن الفزاري وعامر بن الطّفيل وطليحة بن خويلد الأسدي وأبو الأعور سفيان بن عبد شمس السّلمي ومالك بن عوف النّصري، وكانوا من الفرسان وأصحاب الأيّام المعروفين بكثرة وقائعهم، ولم يكن لأغلبهم أيّ اهتمام خاص بالدّين.

كانت عداوة أعراب الحجاز لمحمّد في أسبابها وطرقها مرتبطة بعدّة معطيات تمسّ حياتهم في مختلف وجوهها: فعلى المستوى الاجتماعي كانوا يعيشون في شكل مجموعات صغيرة تتناسب مع حياة التّرحال المتواصل بحثاً عن مواطن الكلأ، ولم تكن العشيرة خاضعة لمؤسسة تتجاوزها، وكانت العلاقات بين العشائر تنتظم وفق نظام القرابة الدّمويّة ونظام التّحالف، وتبنى العلاقات الدّمويّة على القرابة من جهة الأب في درجة أولى وعلى القرابة من جهة الأم في درجة ثانية. وكان التّقسيم القائم على القرابة الدّمويّة، وبقطع النّظر عن صحّته التّاريخيّة، حاضراً في أذهان الأعراب وأحد العوامل المساهمة في بناء العلاقات بين العشائر البدويّة. وبالإضافة إلى القرابة الدّمويّة تُبنى العلاقات بين العشائر وفق نظام التّحالفات، ويمكن أن نميّز بين نوعين من التّحالف:

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٨٠.

تحالف يقوم على المصلحة المشتركة وتحالف يقوم على مبادئ مشتركة. وعادة ما تكون التّحالفات التي تبنى على المصالح المشتركة تحالفات هشّة ومتحوّلة، وهي الأكثر انتشاراً بين العشائر البدويّة، أما التّحالفات التي تقوم على مبادئ مشتركة فهي قليلة، وأبرزها التّحالف الذي يُعرف بالأحابيش. ولعدم وجود مؤسّسة تتجاوز العشيرة لم يستطع أعراب الحجاز تنظيم صفوفهم، ولم يتوحّدوا وراء زعامة واحدة، ولم يشكّلوا جبهة موحّدة باستثناء في واقعة حنين عندما اجتمعت عدّة عشائر تنحدر من عجز هوازن وراء مالك بن عوف النّصري.

كانت العشيرة هي المؤسّسة الاجتماعيّة الأكثر حضوراً زمن النّبوّة عند أعراب الحجاز، ولكنّها لم تكن تحظى باحترام مطلق، ففي آخر عهد الجاهليّة تفشّت ظاهرة الصّعلكة، وكانت أعداد غير قليلة من الشذّاذ والخلعاء يعيشون في شكل مجموعات مستقلّة عن العشائر، وبالتّوازي مع ظاهرة الصّعلكة تنامى التّفاوت الطّبقي داخل التجمّعات البدويّة. ويظهر تراجع حضور العشيرة في خروج أعداد من الأعراب من عشائرهم ودخولهم في دين محمّد أو تحالفهم معه، فأغلب العشائر البدويّة التي عادت محمّداً دخل عدد من أبنائها في دينه، وفي كلّ مرّة يقوم أتباع محمّد بالإغارة على إحدى العشائر البدويّة يجدون أعرابيّاً يدلّهم على سرح أبناء عمومته.

تراجع حضور العشيرة، ولم تظهر بين أهل بوادي الحجاز مؤسّسات قويّة قادرة على تعويضها، ويعود ذلك في أحد أسبابه إلى نمط اقتصاد الأعراب الذي يقوم بصفة أساسيّة على الرّعي، وكانت موارد الحجاز الشّحيحة تضطرهم إلى الظّعن المتواصل بحثاً عن مواطن الكلأ ومنابع المياه. وبالإضافة إلى الرّعي كانت لأعراب الحجاز مشاركة في الأنشطة التّجاريّة من خلال خفارة القبائل ومشاركة بعض أسيادهم رجال قريش في تسيير بعض القوافل التّجاريّة، وكان أعراب الحجاز يحضرون المواسم والأسواق ويأخذون الجّلب ومشتقات الحليب والأدم إلى القرى. ولم تؤدّ مشاركتهم في الحركة التّجاريّة إلى ظهور تحالفات مرتبطة بالأسواق، فعندما استنفر عروة بن مسعود أهل سوق عكاظ للدّفاع عن مكّة ضد محمّد لم يستجيبوا له. ولم يبد أعراب الحجاز حرصاً كبيراً على استمرار الأسواق، ولم يجد بعضهم حرجاً في الإغارة عليها: «وأتى عيينة سوق عكاظ، ، فرأى النّاس يتبايعون، فقال: أرى هؤلاء مجتمعين بلا عهد ولا عقد، ولئن بقيت إلى قابل ليعلمنّ. فغزاهم من قابل»[1]. مكّن النّشاط الرّعوي أعراب الحجاز من الصّمود كثيراً أمام هجمات محمّد، فالنّشاط الرّعوي نشاط

---

(١) ابن قتيبة: **المعارف**، ص ٣٠٤.

اكتفائي في جانبه الأكبر، ولهذا يصعب محاصرتهم أو قطع الرزق عنهم، ووجد أولئك الأعراب في مرتفعات نجد مجالات واسعة للهروب، فلقي أتباع محمّد عنتاً كبيراً في ملاحقتهم.

لم تؤد مشاركة أعراب الحجاز في الحركة التّجاريّة إلى تغيير خصائصهم بشكل كبير، وظلّ التّشتّت هو ميزة حياتهم الاجتماعيّة. وتتفاوت التّجمّعات البدويّة في اهتمامها بالدّين، إذ اختصت بعض العشائر البدويّة بالمشاركة في تنظيم شعائر الحج[1]، وتولّى عدد من الأعراب نسء الشّهور: «نسأة الشّهور من كنانة وهم القلامسة وأحدهم قلمّس، وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم»[2]. وكان قسم من أعراب الحجاز مع قريش من الحمس، وكان الأحابيش قوماً يتألّهون وقد تحالفوا مع قبيلة قريش على حماية الحرم المكّي. يقول سيّدهم الحليس بن زبان يوم الحديبيّة: «يا معشر قريش، واللّه، ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم، أيُصدّ عن بيت اللّه من جاء معظّماً له...»[3]. تولّى الأحابيش حماية الحرم المكّي، وشاركوا رجال قريش في عدد من حروبهم، وحاول بنو مرّة من غطفان اتّخاذ حرم خاص بهم يكون بديلاً عن الكعبة، ومنعهم أصدقاء قريش من ذلك، وقاتلوهم[4]. وكان في بني مرّة البسل، «والبسل، فيما يزعمون، ثمانية أشهر حرم لهم من كلّ سنة من بين العرب، قد عرفت ذلك لهم العرب: لا ينكرونه، ولا يدفعونه، يسيرون به إلى أيّ بلاد العرب شاؤوا لا يخافون منهم شيئاً...»[5].

رغم توحّد أعراب الحجاز حول تعظيم الكعبة فإنّ أغلبهم لم يكونوا يولون المقدّس أهمّية كبيرة. تذكر المصادر حالات عديدة انتهك فيها أولئك الأعراب حرمة الكعبة: «... فلم يزالوا يقتلونهم حتّى انتهوا بهم إلى أنصاب الحرم، فقالوا: يا نوفل إلهك إلهك قد دخلت الحرم! قال: لا إله لي اليوم، يا بني بكر! قد كنتم تسرقون الحاج أفلا تدركون ثأركم من عدوّكم»[6]. واشتهرت عدّة تجمّعات بدويّة بسرقة الحجّاج، مثال ذلك «... أنّ الأقرع بن حابس جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٦٩.
(٢) ابن حبيب: **المحبّر**، ص ١٥٦.
(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٢٦٧.
(٤) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ١٩، ص ١٩ ـ ٢٠.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٥٢.
(٦) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧٨٣.

وسلّم فقال: إنّما بايعك سرّاق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينة...»[1]. وكانت الوظائف الدّينيّة لدى عشائر ضعيفة، ولم تكن لرجال الدّين من سدنة وحجاب وكهّان قاعدة اجتماعيّة قويّة تدعمهم[2]. ولم تكن لرجال الدّين مشاركة مهمّة في تسيير شؤون الحياة العامّة، ولم يكن الدّين هو المصدر الأساسي للقيم والمبادئ الأخلاقيّة عند الأعراب مثل الشجاعة والإقدام والصّبر عند الشّدائد والمروءة. وعرفت القيم البدويّة تراجعاً في آخر عهد الجاهليّة، وكانت ظاهرة الصّعلكة في أحد معانيها شكلاً من أشكال الاحتجاج على تراجع القيم الموروثة وظهور التّفاوت الطبقي بين أفراد العشيرة الواحدة.

لا يعني تراجع قيم البداوة وتقلّص مكانة الدين أنّ حياة أعراب الحجاز ضربٌ من العنف المتواصل والمشاعيّة التّامة، إذ كانت لأعراب الحجاز محرّماتهم، ولهم رؤيتهم الفنيّة للوجود التي عبّروا عنها بالشّعر خاصة، ولهم تأمّلاتهم في الوجود وتساؤلاتهم عن المعنى والمصير.

خاتمة

بدأت حركة أعراب الحجاز المعادية لمحمّد بعد استقراره في يثرب، وظلت قائمة إلى زمن وفاته، وعادى أعراب الحجاز محمّداً حفاظاً على استقلال عشائرهم ولتحقيق مكاسب ماديّة ولنصرة قريش واليهود. وتحرّكوا في شكل مجموعات صغيرة يترأسها مجموعة من الفرسان وأصحاب الأيّام، وتحالفوا مع أهل القرى في واقعتين رئيسيّتين هما الخندق وحنين، ووجد أتباع محمّد صعوبة بالغة في ملاحقتهم لاحتمائهم بالفيافي والجبال.

كانت حركة أعراب الحجاز المعادية لمحمّد في جزء كبير منها مواصلة لعادة قديمة في الإغارة، وكانت محكومة بخصائص حياتهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والدّينيّة وبطبيعة علاقتهم بأهل القرى. كان أعراب الحجاز يتوزّعون على عدّة كيانات صغيرة، فلم يجتمعوا على حرب محمّد، ولم يشكّلوا قوّة عسكريّة يُعتد بها إلاّ بتحالفهم مع أهل القرى. وكان أعراب الحجاز على الوثنيّة يعبدون عدّة آلهة ويجتمعون على تعظيم الكعبة، ولم يكن للدين حضور كبير في حياتهم، لذلك لم يلعب الكهان وسدنة الآلهة دوراً مؤثّراً في قيادة حركة أولئك الأعراب.

---

(١) السّمعاني: **الأنساب**، ج ١، ص ٢٦.

(٢) مراد اليعقوبي: **القبائل العربية الشمالية...**، ص ٤٥٥.

لم يشكّل أعداء محمّد من أعراب الحجاز جبهة واحدة، ولم يتعامل أغلب أولئك الأعراب مع محمّد على أساس أنّه عدوّهم الرّئيسي، بل كان محمّد بالنّسبة إلى أغلبهم مجرّد عدوّ من أعداء كثيرين، ولهذا لم يجد أسياد الأعراب الذين تزعّموا حركة معاداة محمّد حرجاً في الانتقال السّريع إلى صفوف أتباعه. وظلّ أعراب الحجاز بعد دخولهم في دين محمّد غير منضبطين وشكّلوا قسماً كبيراً من المرتدّين.

الفصل الثالث

أعداء محمّد من أهل خيبر وبلاد الشّام

مقدّمة

تمتدّ بلاد الشّام على مساحة شاسعة من الأرض[1]، وتدلّ شواهد عديدة على أنّ حدودها مع الحجاز كانت حاضرة في ذهن العرب زمن نبوّة محمّد على الأقلّ: «فلمّا كان زمن عمر رضي اللّه عنه أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يُخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنّهما داخلتان في أرض الشّام، ويرى أنّ ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز وأنّ ما وراء ذلك من الشّام»[2]. كانت بلاد الشّام خاضعة في معظمها للنّفوذ البيزنطي، وينحدر سكّانها من قوميات عديدة، وكان العرب ينزلون بكثافة في أطرافها الجّنوبيّة ويتراجع حضورهم كلّما توجّهنا إلى الشّمال.

ينتمي سكّان جنوب بلاد الشّام الذين كانت لهم علاقات مباشرة بمحمّد إلى قبائل قضاعة وقبيلة لخم وقبيلة جذام، وتمتدّ ديار هذه القبائل على مساحات شاسعة تصل إلى عمق بلاد الشّام. وتحضر هذه القبائل في المصادر العربيّة بشكل ضعيف مقارنة بغيرها من قبائل وسط جزيرة العرب وشمالها. ويعود ضعف اهتمام المصادر بقبائل بلاد الشام العربيّة إلى سببين رئيسيين: يتمثّل السّبب **الأوّل** في وقوع أقسام واسعة من هذه القبائل تحت النّفوذ البيزنطي واعتناق قسم كبير منها للنّصرانيّة وقلّة مساهمتها في الشّعر الجاهلي. ولهذا تعاملت الذّات العربيّة مع هذه القبائل وكأنّها قد انسلخت من هويّتها العربيّة، فلم تهتمّ الذّاكرة الجماعيّة بحفظ أخبارها؛ ويتمثل السّبب **الثاني** في بعد هذه القبائل عن مكّة ويثرب القريتين اللّتين شهدتا معظم أطوار النّبوّة وإلى تعرّف أبناء هذه القبائل على دين محمّد في زمن متأخّر من الفترة النّبويّة وضعف مساهمتهم في تأسيس الإسلام المبكّر.

(١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٣، ص ٣١٢.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧١١.

بسبب قلّة ما ورد في المصادر عن قبائل بلاد الشّام تبقى جوانب عديدة من خصائص هذه القبائل يلفّها الغموض، فما تقدّمه المصادر من أخبار لا يُمكّن من إدراك مدى خضوع هذه القبائل للنّفوذ البيزنطي وإلى أيّ مدى كان للانتماء القبلي حضور عند سكّان قرى بلاد الشّام، ولا تقدّم المصادر معلومات كافية عن طبيعة معتقدات أهل الشّام الدّينيّة. تقع خيبر في الأطراف الشّمالية للحجاز القريبة من بلاد الشام، وكانت تمثّل حلقة في سلسلة قرى يهوديّة تقع قريباً منها، ولهذا اخترنا أن نجمع بين أهل بلاد الشام وأهل خيبر في فصل واحد.

١ ـ أهل الشام وأهل خيبر يجمعون النّاس لحرب محمّد ويحاولون قطع تجارة أتباعه

كانت لسكّان مكّة حركة تجاريّة نشطة مع بلاد الشّام وعلاقات مع سكّانها من العرب وغيرهم، وكان أسياد مكّة مدركين للصّراع القويّ الدّائر بين الإمبراطورية الفارسيّة والإمبراطورية البيزنطيّة للسّيطرة على بلاد العرب التي تمثّل طريقاً تجاريّاً وممرّاً لسلع أساسيّة قادمة من شرق آسيا في اتّجاه الدّول الواقعة على ضفاف بحر الرّوم، ولهذا استعان عثمان بن الحويرث أحد بني أسد بن عبد العزّى بالرّوم ليكون ملكاً على مكّة، واعتنق النّصرانيّة[1] ورفض أهل مكّة تنصيبه ملكاً عليهم، وقاموا بقتله.

تردّد محمّد عدّة مرّات قبل إعلانه نبوّته على بعض قرى الشّام للقيام بأنشطة تجاريّة، وكان له بعد إعلانه نبوّته موقف إيجابي من الرّوم النّصارى على عكس أعدائه من أهل مكّة الذين كانوا أميل إلى الفرس، وكان يتوقّع انتصار الرّوم في حربهم ضد أعدائهم، واعتبر انتصارهم انتصاراً لكلّ المؤمنين. جاء في النّص القرآني: «أَلَم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ» (الرّوم ٣٠/١ ـ ٤). وقدّم القرآن صورة إيجابيّة عن ذي القرنين أحد أبطال الرّوم: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قَلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا. إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا» (الكهف ١٨/ ٨٣ ـ ٨٤).

من الممكن أنّ محمّداً فكّر في الاستعانة بالرّوم لإبلاغ رسالته أو طلب مساعدة إحدى قبائل الشّمال للهيمنة على مكّة مثلما فعل جدّه الأكبر قصي يوم استعان بقبيلة

---

(١) ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، ص ١١٨.

عذرة[1]. وعرض محمّد نفسه على أعضاء وفد قبيلة كلب طالباً منهم أن يوفّروا له الحماية[2]، ومن الممكن أنّه اختارهم لقرابتهم بدعيّه زيد بن حارثة. لم يقبل بنو كلب عرضه، وقبله أبناء الأوس والخزرج، وانتقل محمّد ومعظم أتباعه من أهل مكّة إلى يثرب، وبعد عدّة أشهر من تاريخ هجرته بدأ محمّد وأتباعه في التّعرّض لقوافل مكّة التّجاريّة، وحاولت بعض عناصر من جذام مساعدة قريش في صراعهم ضده: «عن أبي عون مولى المسوّر بن مخرمة بن نوفل قال: لمّا لحقنا بالشّام أدركنا رجل من جذام، فأخبرنا أنّ محمّداً كان عرض لعيرنا في بدأتنا وأنّه تركه مقيماً ينتظر رجعتنا»[3].

كانت قبائل الشّام بعيدة عن مسرح أحداث النّبوّة طيلة السّنوات الأولى من الفترة النّبويّة، فلم تشارك في أحداثها بصورة مباشرة. ولا شكّ في أنّ العشائر الوثنيّة التي كانت تعظّم الكعبة والنّازلة على أطراف بلاد الشّام الجّنوبيّة كانت على علم بما يجري في الحجاز من أحداث، ولا تذكر المصادر أيّ شيء عن موقف تلك العشائر من حرب محمّد وقومه أهل الحرم. وفي بداية السّنة الخامسة وبعد أن أبرم محمّد معاهدة صلح مؤقّت مع رجل غطفان القويّ عيينة بن حصن الفزاري خرج في ألف من أتباعه إلى دومة الجندل، وهي «حصن وقرى بين الشّام والمدينة قرب جبلي طيء»[4]. تقع دومة الجندل في أطراف بلاد الشّام الجنوبيّة، وهذا ما جعلها تقوم على التّعدّد في خصائصها: فمن النّاحية السّكانية كان أغلب سكّانها من قبيلة كلب إحدى قبائل قضاعة، وكان عليها ملك من كندة هو أكيدر بن عبد الملك، ومن النّاحيّة الدّينيّة كان أهلها على النّصرانيّة والوثنيّة، وعبد الوثنيون منهم عدّة آلهة أشهرها "ودّ" الذي كان مقامه بهذه القرية، وكان أتباعه يأتونه ويقيمون له الاحتفالات ويؤدّون بحضرته طقوس البغاء المقدّس، وهي ظاهرة كانت منتشرة بكثرة في بلاد الشّام قبل أن تتراجع لانتشار المسيحيّة. تذكر روايات عديدة أنّ أهل دومة الجندل هم المتحدّث عنهم في النّص القرآني: «وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا...» (النّور ٢٤/ ٣٣) ويقول أحد الشعراء:

«حَـيَّـاكِ وَدٌّ فـإنّـا لا يَـحُـلّ لـنّـا لَهْوُ النّسَاءِ وإنّ الدِّينَ قدْ عَزَمَا[5]

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٣٤.

(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٢٨.

(٤) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج ٢، ص ٤٨٧.

(٥) ابن الكلبي: **كتاب الأصنام**، ص ١٠.

ومن النّاحية الاقتصاديّة تجمع قرية دومة الجندل بين الأنشطة الفلاحيّة والتّجارة، واشتهرت بزراعة النّخيل والحبوب[1]، وكانت ممرّا تجاريّاً مهمّاً يربط قرى الحجاز وبلاد الشّام والعراق، «وكان بها سوق عظيم وتجّار»[2].

تذكر المصادر أنّ محمّداً خرج إلى دومة الجندل لتحقيق هدفين رئيسين: يتمثّل الهدف الأوّل في حماية تجارة يثرب وإحباط محاولة بعض أهلها جمع النّاس لحربه: «وقد ذُكر له أنّ بدومة الجندل جمعاً كثيراً وأنّهم يظلمون من مرّ بهم من الضّافطة (...) وضوى[*] إليهم قوم من العرب كثير وهم يريدون أن يدنوا من المدينة»[3]؛ ويتمثّل الهدف الثّاني في إفزاع قيصر: «وقيل له إنّها طرف من أفواه الشّام فلو دنوت لها كان ذلك ممّا يُفزع قيصر»[4].

من الممكن أنّ قطع بعض أهل دومة الجندل تجارة يثرب مع الشّام كان بفعل تأثير بني النّضير النازلين بخيبر، ومن المرجّح أنّ محمّداً أراد من خلال خروجه في جمع كبير من أتباعه إلى دومة الجندل أن يرهب قبائل قضاعة الكبيرة التي كانت تنزل بالقرب من هذه القرية لخوفه من أن ينجح اليهود في تكوين تحالف يضمّ قبائل قضاعة النّازلة جنوب بلاد الشّام وقبائل مضر النّازلة بالحجاز.

تقدّم المصادر روايتين عن مآل خروج محمّد وأتباعه إلى دومة الجندل: تذكر الرّواية الأولى أنّهم رجعوا من منتصف الطريق ولم يصلوا إليها[5]، وتذكر الرّواية الثانية أنّهم نزلوا بإحدى ساحاتها وقد هرب منها أهلها، فأقاموا بها عدّة أيّام، وغنموا عدّة قطع من الإبل[6]. ما تتّفق فيه الرّوايتان أنّ محمّداً وأتباعه عادوا إلى يثرب من دون قتال، ومن المرجّح أنّهم لم يصلوا إلى دومة الجندل وأغاروا على بعض التجمّعات البدويّة النازلة قريباً منها.

أقام قسم من بني النّضير الذين أخرجهم محمّد من ديارهم وأخذ معظم أموالهم في خيبر التي تقع غرب يثرب على حدود بلاد الشام في منطقة جبليّة تعرف أمطاراً غزيرة، وكانت فيها منابع مياه عديدة، وهذا ما جعلها ذات نشاط زراعي جيّد،

---

(١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج ٢، ص ٤٨٧.
(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٤٠٣.
(*) ضوى: انضمّ ولجأ.
(٣) نفسه، ج ١، ص ٤٠٣.
(٤) نفسه، ج ١، ص ٤٠٣.
(٥) ابن هشام : **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٦٨.
(٦) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

واشتهرت بوفرة نخيلها وإنتاجها الحبوب. وبالإضافة إلى النّشاط الزراعي، تعاطى أهلها التّجارة وعديد الحرف، وكانت بها سوق مشهورة تعرف بسوق النطاة[١]. أقام بنو النّضير ومن معهم من يهود أوس مناة بخيبر، وبدأوا يحاولون جمع النّاس لحرب محمّد، وكان أكثرهم حماساً لذلك أبا رافع سلام بن أبي الحقيق «تاجر أهل الحجاز»[٢]. وكان محمّد على علم بما كان يدبّره بعض أسياد اليهود، فكلّف نفراً من أتباعه بقتل أبي رافع سلاّم بن أبي الحقيق «وكان (...) قد أجلب في غطفان ومن حوله من مشركي العرب، وجعل لهم الجعل العظيم لحرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم»[٣]. ورغم نزول تاجر أهل الحجاز في خيبر نجح أتباع محمّد في قتله، وتذكر المصادر أنّ أحد قتلته وهو عبد اللّه بن عتيك له أمّ بالرّضاعة بخيبر، وكان «يرطن باليهوديّة»[٤]. قامت أمّ عبد اللّه بن عتيك بدور مهمّ في تمكين أتباع محمّد من الوصول إلى أبي رافع، فأجهزوا عليه، وخرجوا هاربين، فانتبه إليهم النّاس «واختبأ القوم في بعض مناهر خيبر»[٥]. وعندما خفّ عنهم الطّلب عادوا إلى يثرب، وفي نفس المدّة الزّمنيّة قام بعض أتباع محمّد بقتل عمرو بن جحّاش أحد أسياد يهود خيبر[٦].

لم يثن قتل أبي رافع وعمرو بن جحّاش بقيّة أسياد يهود خيبر عن مواصلة السّعي لجمع النّاس لحرب محمّد، وتولّى هذه المهمّة عدد من أسياد بني النّضير وبني وائل (أوس مناة)[٧] وسخّروا إمكانياتهم الماليّة لهذه الغاية: «وجعلت اليهود لغطفان تحريضاً على الخروج نصف تمر خيبر كلّ عام»[٨]، واستنفروا عدّة قبائل بدويّة، وذهبوا إلى مكّة، وتحالفوا مع أسياد قريش، وتعاقدوا معهم على حرب محمّد. وتذكر المصادر أنّهم تعاهدوا عند الكعبة أن لا يخذل بعضهم بعضاً: «... قال النّفر: فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلّها أنت فيهم وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتّى نلصق أكبادنا بها، ثمّ نحلف باللّه جميعاً لا يخذل بعضنا بعضاً ولتكوننّ كلمتنا

---

(١) البيروني: **الآثار الباقية ...**، ص ٢٩١.
(٢) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج ٣، ص ٢٣٦.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٣٩٤.
(٤) نفسه، ج ١، ص ٣٩٢.
(٥) نفسه، ج ١، ص ٣٩٣.
(٦) نفسه، ج ١، ص ٣٧٤.
(٧) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ١٧١.
(٨) الديار بكري: **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، ج ١، ص ٤٨٠.

واحدة على هذا الرّجل ما بقي منّا رجل. ففعلوا...»[1]. استطاع أعداء محمّد من اليهود أن يجمعوا عدداً كبيراً من النّاس لحرب محمّد، وما يثير الاستغراب في واقعة الخندق أنّ يهود خيبر لم يجهّزوا جيشاً ليشارك قريشاً والأعراب القتال ضد محمّد، وحضر عدد من أسيادهم حصار يثرب، ولعب بعضهم دوراً مهمّاً في إقناع أسياد بني قريظة بنقض عهدهم مع محمّد.

شاركت عدّة قبائل بدويّة تنزل بالحجاز في واقعة الخندق، وغابت عنها قبائل بلاد الشّام. وبعد حصار دام أسابيع انفض الأحزاب عن يثرب، وقام محمّد بعد هذه الواقعة مباشرة بإنزال عقاب شديد ببني قريظة، فقد قتل الرّجال، وسبى النّساء والأطفال، وأرسل عدداً من السّبايا والأطفال إلى الشّام لبيعهم وشراء السّلاح والخيل. وأرسل رسله إلى أهل الشّام يدعوهم للدّخول في دينه والتّحالف معه، ولقيت دعوته بعض النّجاح، وبدأ دينه ينتشر بين عدد من العشائر والقبائل، وبدأت وفود أهل الشام في القدوم إلى يثرب لإدراك ما الذي يحدث فيها من تحوّلات عن قرب وللتّحالف مع سيّدها والدّخول في دينه، فقدم وفد ضُبيب إحدى عشائر قبيلة جُذام التي تمتدّ ديارها على مساحات شاسعة من بلاد الشّام تشمل مدين وعمان وأذرح وما حول هذه القرى من البوادي، وتدين هذه القبيلة بالنّصرانيّة والوثنيّة[2]. والظاهر أنّ عشيرة ضُبيب كانت بسبب قربها من الحجاز على دين الوثنيّة، وكان على رأس وفد هذه العشيرة رفاعة بن زيد، وبعد قدوم هذا الوفد بمدّة زمنيّة قصيرة وفي جمادى الآخرة من سنة ستّ للهجرة وبينما كان دحيّة بن خليفة الكلبي رسول محمّد إلى قبائل الشّام بحسمى، «وهي أرض ببادية الشّام»[3]، لقيه ناس من جذام بقيادة الهنيد بن عارض، «فقطعوا عليه الطريق، وأصابوا كلّ شيء معه»[4]. وتختلف الرّوايات في ما وقع بعد ذلك، فتذكر رواية أولى أنّ رسول محمّد وصل يثرب بسمل، وتذكر رواية ثانية أنّ متاعه رُدّ إليه عن طريق رجل من قضاعة أو نفر من ضبيب، ويتّفق الرّواة أنّه بعد عودة دحيّة بن خليفة الكلبي إلى يثرب بعث محمّد زيد بن حارثة في خمسمائة رجل إلى قوم الهنيد بن عارض، فأغاروا عليهم «وقتلوا فيهم، وأوجعوا»[5] وأخذوا النّعم والسّبايا، وتناءى ما فعلوه إلى رفاعة بن زيد سيّد ضبيب، فقدم على محمّد للعهد الذي بينهما، فردّ إليه

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٤٤٢.

(٢) Bosworth (C. E): Art «Djudham», in *E I 2*, T II, p. 588.

(٣) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٢، ص ٢٥٨.

(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

(٥) نفسه، ج ٢، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

محمّد ما غنمه أتباعه[١]. وفي شهر شعبان من سنة ستّ للهجرة أرسل محمّد عبد الرّحمن بن عوف إلى بطن من قبيلة كلب ينزل بدومة الجندل. تنتمي هذه القبيلة إلى مجموعة قضاعة، وتتمتّع بدرجة جيّدة من القوّة، فهي واحدة من جماجم العرب[٢] وتمتدّ ديارها على مساحات شاسعة تبدأ من البوادي المحيطة بدومة الجندل وتصل إلى عمق بلاد الشّام، وتشمل جزءاً كبيراً من بادية السّماوة التي تقع بين العراق والشّام، وتجمع هذه القبيلة بين الرّعي والفلاحة والتّجارة، وتدين بالنّصرانيّة والوثنيّة. استجاب بنو كلب النّازلون في دومة الجندل بصورة سريعة لما عرضه عليهم رسول محمّد، «... فلمّا كان اليوم الثّالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيّا، وكان رأسهم»[٣]، وتزوّج عبد الرحمن بن عوف ابنة سيّدهم، والظّاهر أنّه كان لدخول بني كلب في دين محمّد تأثير في عدّة عشائر من قضاعة، إذ قدم بعد إسلامهم بفترة زمنيّة قصيرة وفد خشين إلى يثرب[٤].

تناءى خبر ما فعله محمّد ببني قريظة إلى يهود خيبر، فحزنوا لذلك حزناً شديداً. «قالوا: وبلغ النّساء، فصيّحن، وشققن الجيوب، وجززن الشّعور، وأقمن المآتم...»[٥]، ولكنّهم لم يتّفقوا على حربه، ولم يتحمّس معظم أسيادهم لفكرة تكوين تحالف بين يهود خيبر ويهود فدك ويهود تيماء: «... قال: محمّد قد فرغ من يهود يثرب، وهو سائر إليكم فنازل بساحتكم وصانع بكم ما صنع ببني قريظة، قالوا: فما الرّأي ؟ قال: نسير إليه بمن معنا من يهود خيبر فلهم عدد ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب (...) ثمّ نسير إليه في عقر داره، فنقاتل على وتر حديث وقديم. فقالت اليهود: هذا الرّأي. فقال كنانة: إنّي قد خبرت العرب، فرأيتهم أشدّاء عليه، وحصوننا هذه ليست مثل ما هناك، ومحمّد لا يسير إلينا أبداً لما يعرف. قال سلاّم بن مشكم: هذا رجل لا يُقاتل حتى يُؤخذ برقبته...»[٦]. وحاول يسير بن زارم جمع أهل البوادي من جديد لحرب محمّد، «... فقام في اليهود، فقال: إنّه، واللّه، ما سار محمّد إلى أحد من اليهود إلاّ بعث أحداً من أصحابه فأصاب منهم ما أراد، ولكنّي أصنع ما لا يصنع أصحابي. فقالوا: وما عسيت أن تصنع ما لم يصنع أصحابك ؟ قال: أسير في غطفان، فأجمعهم...»[٧].

كان محمّد على علم بما يدبّره يسير بن زارم، أخبره بذلك أحد بني أشجع

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٥٥٩ ـ ٥٦٠.
(٢) ابن حبيب: **المحبّر**، ص ٢٣٤.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٦١.
(٤) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٣٢٩.
(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٥٣٠.
(٦) نفسه، ج ٢، ص ٥٣٠ ـ ٥٣١.
(٧) نفسه، ج ٢، ص ٥٦٦.

الذين وادعوه بعد واقعة الخندق. فأرسل عدداً من أتباعه بقيادة علي بن أبي طالب إلى بني سعد أحد أقسام قبيلة ذبيان، وكانوا قد عزموا على الخروج مع يهود خيبر، فشنّوا عليهم الغارة، وساقوا سرحهم، فتراجع الأعراب عن نُصرة اليهود، وخافوا[1].

وانتدب محمّد ليسير بن زارم ثلاثين رجلاً، وجعل عليهم عبد الله بن رواحة. ذهب أتباع محمّد إلى خيبر، ودخلوا على يسير بن زارم، وأخبروه أنّهم رسل محمّد وأنّه يريد أن يستعمله على خيبر ويحسن إليه، فقبل العرض، وخرج مع عدد من أتباعه يريد يثرب، وعلى بعد أميال قليلة من خيبر قام عبد الله بن رواحة ورفاقه بقتله مع أغلب أتباعه.

٢ ـ أهل الشام وأهل خيبر يقاتلون أتباع محمّد

نجح محمّد في قتل رؤساء يهود خيبر الذين حاولوا جمع النّاس لحربه، وبعد أن فرغ من موادعة قريش في صلح الحديبيّة لم ينتظر كثيراً، وخرج مع أتباعه يريد خيبر التي كان فيها، حسب مصادر عديدة، عشرة آلاف مقاتل. ولا شكّ في أنّ في ذلك مبالغة كبيرة، فعندما خرج محمّد إليها لم يحرص على استنفار كلّ أتباعه، واكتفى بالذين خرجوا معه إلى مكّة، ورفض أن يخرج معه إلى خيبر من تخلّف عن الخروج معه إلى مكّة. جاء في النّص القرآني: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً» (الفتح ٤٨/ ١٥).

كان يهود خيبر على علم بخروج محمّد إليهم، ولم يتّفق أسيادهم على طريقة مواجهته، «وكانوا قد اختلفوا فيما بينهم حيث أحسّوا بمسير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليهم»[2]. نادى بعضهم بالبروز إلى أتباع محمّد ومواجهتهم خارج الحصون، ولم يتحمّس أغلب أسياد خيبر لهذا الرّأي، واختاروا أن يدخلوا حصونهم، وكانت حصوناً كثيرة وتنقسم إلى ثلاث مجموعات: النّطاة والشّق والكتيبة. جرّد اليهود حصون النّطاة للمقاتلة، وجعلوا معهم السّلاح والطّعام، وجرّدوا حصون الكتيبة للنّساء والأطفال، واستنفروا حلفاءهم من غطفان خاصة لمشاركتهم في قتال محمّد، وتجمع المصادر على أنّ الأعراب لم يُقاتلوا مع يهود خيبر، وتختلف الرّوايات حول أسباب ذلك.

نزل أتباع محمّد بالرّجيع على مسافة من حصون خيبر حتّى لا تطالهم نبال

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٥٦٢.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٦٣٧.

اليهود، وبدأوا بحصار ناعم أوّل حصون النّطاة، وجوبهوا بمقاومة قويّة، فأمرهم محمّد بقطع النّخيل: «... ووقع المسلمون في قطعها حتّى أسرعوا في القطع، فجاءه أبو بكر فقال: يا رسول اللّه، إنّ اللّه عزّ وجلّ قد وعدك خيبر وهو منجز ما وعدك، فلا تقطع النخل. فأمر، فنادى منادي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فنهى عن قطع النّخل»[1].

جوبه أتباع محمّد بمقاومة شديدة، وسقط عدد منهم قتلى وجرحى، واستمرّت محاولات اقتحام حصن ناعم عدّة أيّام، وسقط من اليهود عدد غير قليل من المقاتلين[2]. وبعد معارك ضارية اقتحم أتباع محمّد الحصن، وهرب منه اليهود، واحتموا بحصن الصّعب بن معاذ، فحاصره أتباع محمّد، وكان بين الفريقين قتال كبير، يقول أحد أتباع محمّد: «... فخرجوا مستميتين، ورجعنا إليهم، فاقتتلنا على باب الحصن أشدّ القتال...»[3]. وبعد ثلاثة أيّام من المواجهات الدّامية اقتحم أتباع محمّد هذا الحصن، ووجدوا فيه طعاماً كثيراً. يقول أحدهم: «... فوجدنا، واللّه، من الأطعمة ما لم نظنّ أنّه هناك من الشّعير والتّمر والسّمن والعسل والزيت والودك»[4]. كان أتباع محمّد قد أنهكهم الجوع ونفد زادهم، ووجدوا في الحصن ما يكفيهم من الطّعام، ودلّهم أحد اليهود على سلاح كثير كان يهود خيبر «قد غيّبوه في بيت من حصونهم تحت الأرض»[5]. وبعد أن فرغ أتباع محمّد من حصن الصّعب بن معاذ مرّوا إلى حصن قلعة الزّبير، وكان «في رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرّجال لصعوبته وامتناعه»[6]. أقاموا على حصاره عدّة أيّام، ولم يستطيعوا النّفاذ إليه، فدلّهم أحد اليهود على دبول لهم تحت الأرض تأتيهم بالمياه إلى داخل الحصن، فقاموا بقطعها، ولم يطق أهل الحصن المقام على العطش، «فخرجوا، فقاتلوا أشدّ القتال، وقتل من المسلمين يومئذ نفر، فأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة، وافتتحه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فكان آخر حصون النّطاة»[7].

بعد أن فرغ أتباع محمّد من حصون النّطاة، غيّروا مكان نزولهم، وعسكروا قريباً منها، ومرّوا إلى حصون الشّق، وبدؤوا بحصن أبي، ودارت بينهم وبين المدافعين عنه مواجهات سقط فيها عدد من اليهود قتلى. وبعد مواجهات دامية، «... هرب من كان فيه من المقاتلة، وتقحّموا الجدر كأنّهم الظّباء حتّى صاروا إلى حصن النّزار»[8]،

---

(1) نفسه، ج ٢، ص ٦٤٤.
(2) نفسه، ج ٢، ص ٦٥٧.
(3) نفسه، ج ٢، ص ٦٦٣.
(4) نفسه، ج ٢، ص ٦٦٤.
(5) نفسه، ج ٢، ص ٦٤٧.
(6) نفسه، ج ٢، ص ٦٦٦.
(7) نفسه، ج ٢، ص ٦٦٧.
(8) نفسه، ج ٢، ص ٦٦٨.

فالتحق بهم أتباع محمّد، وقاتل أهل الحصن أشدّ القتال، ثمّ هربوا إلى حصون الكتيبة، وأخذ أتباع محمّد من حصن النّزار عدداً من السّبايا.

تجمّع من بقي من يهود خيبر في حصون الكتيبة «وجعلوا لا يطلعون من حصونهم مغلّقين عليهم»[1]. وبعد أربعة عشر يوماً من الحصار، فقدوا القدرة على الصّمود، فنزلوا على حكم محمّد: «فنزل ابن أبي الحقيق، فصالح رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذّريّة لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلّون بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وبين ما كان لهم من مال أو أرض وعلى الصّفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى البزّ إلاّ ثوباً على ظهر إنسان»[2]. وغنم أتباع محمّد من خيبر غنائم كثيرة: «وجمعوا أثاثاً كثيراً وبزّاً وقطائف وسلاحاً كثيراً وغنماً وبقراً وطعاماً وأدماً كثيراً...»[3]. واصطفى محمّد لنفسه من سبايا يهود خيبر صفيّة بنت حيي.

فضّل محمّد أن يظلّ يهود خيبر في أرضهم لخبرتهم في الأنشطة الزراعية على أن يكون له نصف المحصول: «وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لمّا فتح خيبر سأله اليهود فقالوا: يا محمّد، نحن أرباب النّخل وأهل المعرفة بها. فساقاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خيبر على شطر من التّمر والزّرع، وكان يُزرع تحت النّخل...»[4].

دام حصار أتباع محمّد لحصون خيبر عدّة أسابيع سقط فيها منهم أربعة عشر رجلاً، وقُتل من أهل الحصون ثلاثة وتسعون رجلاً[5]. ومن أجل الثّأر لقتلى اليهود دبّرت زينب بنت الحرث محاولة لاغتيال محمّد بطعام مسموم، تقول الرواية: «فلمّا اطمأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أهدت له زينب ابنة الحرث امرأة سلاّم بن مشكم شاة مصليّة، وقد سألت: أيّ عضو من الشّاة أحبّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ؟ فقيل لها: الذّراع. فأكثرت فيها من السّم، ثمّ سمّت سائر الشّاة، ثمّ جاءت بها، فلمّا وضعتها بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تناول الذّراع، فلاك منها مضغة، فلم يُسغها، ومعه بشر بن البرّاء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فأمّا بشر فأساغها، وأمّا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فلفظها...»[6]. ولم يرم بشر من مكانه «حتّى عاد لونه كالطّيلسان، وماطله وجعه

---

(١) نفسه، ج ٢، ص ٦٧٠.
(٢) نفسه، ج ٢، ص ٦٧١.
(٣) نفسه، ج ٢، ص ٦٨٠.
(٤) نفسه، ج ٢، ص ٦٩٠.
(٥) نفسه، ج ٢، ص ٧٠٠.
(٦) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٢٩٦.

سنة، لا يتحوّل إلاّ ما حوّل، ثمّ مات منه، ويُقال لم يقم من مكانه حتّى مات»[١]. أمّا محمّد فظلّت الآلام تعاوده إلى أن توفّي بعد هذه الحادثة بأربع سنوات، و«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قد قال في مرضه الذي توفّي فيه، ودخلت أمّ بشر بنت البرّاء بن معرور تعوده: يا أمّ بشر، إنّ هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر»[٢]. ما تذكره المصادر عمّا فعلته زينب ابنة الحرث مع محمّد يكتنفه غموض كبير، وتبقى فرضيّة موته بفعل السّم فرضيّة ممكنة.

مثّل فتح خيبر نصراً مهمّاً لمحمّد، إذ جعله يتحكّم في ممرّ تجاري مهمّ، ووفّر له موارد ماليّة وفيرة ودائمة جعلت الكثير من الأعراب ومن أهل مكّة يلتحقون بصفوفه، فبفتح خيبر «طويت صفحة من تاريخ الإسلام النّاشئ (...) بإمكان محمّد الآن أن ينظر إلى المستقبل بعين مطمئنّة»[٣]. وبخضوع خيبر لمحمّد فقد يهود فدك كلّ أمل لهم في إمكانيّة الانتصار عليه، فأرسلوا إليه يطلبون الصّلح، «فوقع الصّلح بينهم: أنّ لهم نصف الأرض بتربتها لهم، ولرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم نصفها»[٤]. كانوا يشكّلون مجموعة صغيرة لا قبل لها بحرب محمّد: «وقال لهم محيّصة: ما لكم منعة ولا رجال ولا حصون، لو بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إليكم مائة رجل لساقوكم إليه»[٥]. وكان يهود فدك في حماية أعراب قضاعة مقابل قسم من محصولهم، ولمّا تخلّى عنهم حماتهم فضّلوا الدّخول تحت حماية محمّد رجل الحجاز القويّ.

بعد أن فرغ محمّد من خيبر وفدك سار مع أتباعه إلى وادي القرى حيث تنزل مجموعة يهوديّة صغيرة حول عدد من منابع المياه. كان يهود وادي القرى يتعاطون النّشاط الزراعي، وكانوا تحت حماية بعض قبائل قضاعة مقابل طعمة وأكل كلّ عام[٦]. ولم يستطع هؤلاء اليهود أن يصمدوا أمام أتباع محمّد سوى يوم واحد، ولم ينصرهم حلفاؤهم من الأعراب، فقرّروا الاستسلام بعد أن فقدوا أحد عشر رجلاً، وغنم أتباع محمّد «أثاثاً ومتاعاً كثيراً»[٧]. وصالح محمّد يهود وادي القرى على ترك

---

(١) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٦٧٨.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٣) Morabia (A): *Le Gihad dans L'islam médiéval*, p. 63.

(٤) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧٠٧.

(٥) نفسه، ج ٢، ص ٧٠٧.

(٦) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٤، ص ٣٣٨.

(٧) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧١١.

النّخل والأرض بأيديهم على أنّ له نصف المحاصيل. ولمّا تناءى خبر يهود خيبر وفدك ووادي القرى إلى يهود تيماء الواقعة شمال وادي القرى[١] استجابوا لدعوة محمّد، ورضوا بدفع إتاوة له[٢]. وبعد خضوع خيبر لمحمّد لم تبد بقيّة القرى اليهوديّة التي تقع بين بلاد الشام والحجاز مقاومة كبيرة ضده، ورضيت بالخضوع له، ويعود ذلك إلى أنّها قرى صغيرة تعوّل على أعراب قضاعة لحمايتها، ولم يجد أولئك اليهود حرجاً في إحلال محمّد محل الأعراب.

تسارع تنامي نفوذ محمّد في جنوب بلاد الشّام بعد خضوع خيبر له، وأغراه ذلك بمحاولة التّوغّل في عمق بلاد الشّام، فبعث رسله إلى عدد من عمّال الرّوم من العرب يدعوهم إلى الدّخول في دينه والتّحالف معه، فقام شرحبيل بن عمرو الغسّاني بقتل الحارث بن عمير الأزدي أحد رسل محمّد. كانت مملكة الغساسنة أعظم ممالك العرب ببلاد الشّام قد زالت قبل ذلك بزمن قصير في خضم حروب الرّوم والفرس، وانتهى حكم حجر بن النّعمان آخر ملوكهم زمن بداية تجربة محمّد النّبويّة[٣]. ولم تبقَ من مملكة الغساسنة سوى طوائف متفرّقة على رأس كلّ طائفة سيّد يحاول استعادة أمجاد الغساسنة الماضية.

أرسل محمّد في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة جيشاً قوامه ثلاثة آلاف شخص إلى عمق بلاد الشّام لإرهاب أعدائه وللثّأر من قتلة رسوله. وتناءى خبر هذا الجيش إلى عامل بيزنطة على منطقة الأردن، فجمع عدّة كتائب من القبائل العربيّة التي تنزل تلك المنطقة[٤] وهي جذام ولخم وعدّة قبائل من قضاعة، وكانت قيادة هذا الجيش لرجل من بليّ «يُقال له مالك»[٥]. تبالغ المصادر العربيّة كثيراً في تقدير أفراد هذا الجيش، فتذكر أنّه يعدّ مائة ألف مقاتل. التقى الجيشان بمؤتة، ولا تذكر المصادر أشياء ذات قيمة عن تفاصيل هذه الواقعة التي انتهت بهزيمة أتباع محمّد وهروبهم. وما يدعو إلى الاستغراب في واقعة مؤتة كما تتحدّث عنها المصادر أنّه لم يسقط من أتباع محمّد سوى ثمانيّة قتلى ثلاثة منهم قادة الجيش، وهم جعفر بن أبي طالب، زيد بن حارثة وعبد اللّه بن رواحة[٦] وهذا أمر يصعب قبوله.

---

(١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٢، ص ٦٧.

(٢) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧١١.

(٣) بيغوليفسكيا: **العرب على حدود بيزنطة وإيران...**، ص ٢٥٤.

(٤) Buhl (Fr): Art «Mu'ta», in *E I 2*, T VII, p. 758.

(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧٦٠.

(٦) نفسه، ج ٢، ص ٧٦٩.

حاول محمّد التّوغّل في بلاد الشّام، وانهزم جيشه في واقعة مؤتة هزيمة فادحة. والأرجح أنّ انتصارات الرّوم المتتالية على الفرس أذكت حماس نصارى العرب على مواجهة أتباع محمّد، إذ تزامنت واقعة مؤتة مع دخول قيصر القسطنطينيّة منتصراً بعد أن غاب عنها سنوات عديدة قضّاها في قتال الفرس(١). وأغرت هزيمة أتباع محمّد يوم مؤتة قبيلة بليّ إحدى قبائل قضاعة بمحاولة التّوسّع في مجال نفوذهم، فأرسل محمّد إليها جيشاً قوامه ثلاثمائة مقاتل، واختار لقيادتهم عمرو بن العاص الذي كان ذا رحم ببليّ، «وكانت أمّ العاص بن وائل بلويّة»(٢). ولمّا علم قائد جيش أتباع محمّد بكثرة مقاتلي بليّ ومن معهم من قبائل قضاعة أرسل إلى محمّد يستمدّه الرّجال، فأمّده بمائتي مقاتل بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح. زحف جيش محمّد على بلاد قضاعة، ودوّخها، «حتّى انتهى إلى أقصى بلاد بليّ وعذرة وبلقين (...) ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير، فقاتلوا ساعة، وتراموا بالنّبل (...) وحمل المسلمون عليهم، فهربوا، وأعجزوا هرباً في البلاد، وتفرّقوا...»(٣). وبعد هذه الواقعة انشغل محمّد بصراعه ضد أعدائه بالحجاز، فتوجّه إلى مكّة، وغلب عليها، وهزم هوازن يوم حنين، وفضّ جموعهم، وكان لفتح مكّة تأثير في قبائل الشام التي تعظّم الكعبة(٤).

بعد خضوع مكّة لمحمّد قدمت عليه وفود عدّة قبائل وعشائر من قضاعة، في أوّل سنة تسع للهجرة قدم وفد جرم(٥)، وفي شهر صفر من سنة تسع قدم وفد يمثّل قسماً من قبيلة عذرة(٦)، وفي شهر ربيع الأوّل قدم وفد بليّ(٧)، ومن المرجّح أنّ هذا الوفد يمثّل بني جعيل حلفاء بني عبد مناف(٨)، وفي بداية سنة تسع قدم وفد الدّاريين من لخم(٩).

دخلت عدّة قبائل وعشائر من مضر وقضاعة ولخم وجذام في دين محمّد وحلفه، وكان على محمّد أن يتدبّر موارد رزق لهذه القبائل والعشائر لإقناعها بالكف

---

(١) Diehl (Ch), Marçais (G): *Le monde oriental de 395 à 1081*, p. 150.

(٢) الواقدي، **كتاب المغازي**، ج ٢، ص ٧٧٠.

(٣) نفسه، ج ٢، ص ٧٧١.

(٤) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٣٣٦.

(٥) نفسه، م ١، ص ٣٣٥.

(٦) نفسه، م ١، ص ٣٣١.

(٧) نفسه، م ١، ص ٣٣٠.

(٨) نفسه، م ١، ص ٢٧٠.

(٩) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٢، ص ٥٦٣.

عن تبادل الإغارة، وكان ذلك أحد أسباب خروجه في جيش عظيم إلى بلاد الشّام، «... وذلك في زمن عسرة من النّاس وشدّة من الحرّ وجدب من البلاد وحين طابت الثّمار والنّاس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشّخوص على الحال من الزّمان الذي هم عليه»[1]. حرص محمّد على الاستعداد الجيّد للخروج إلى بلاد الشّام، فاستنفر أتباعه من أهل القرى ومن أهل البوادي، وكوّن جيشاً عظيماً قدّرته المصادر بثلاثين ألف مقاتل. وفي شهر رجب من سنة تسع للهجرة خرج جيش محمّد في اتّجاه أراضي الشّام، وفي تبوك وهو «موضع بين وادي القرى والشّام»[2]، أنزل محمّد جيشه، وعسكر هناك، وبعث خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، «وكان أكيدر من كندة قد ملكهم، وكان نصرانيّاً»[3]. كانت مملكة كندة تمتدّ على قسم واسع من الجزيرة العربيّة وجنوب بلاد الشام الذي يعرف عند الرّوم ببلاد النّخيل، وتولّى الغساسنة تدمير هذه المملكة في أواسط القرن السّادس للميلاد[4] ويمثّل أكيدر بن عبد الملك أحد ورثة مملكة كندة البائدة.

خرج أكيدر بن عبد الملك مع نفر من أهل بيته للقنص، فأسره خالد بن الوليد، وحقن دمه مقابل «ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح»[5]. وقدم به على محمّد. وتختلف الرّوايات حول ما وقع بعد ذلك، فتذكر رواية أولى أنّ ملك دومة الجندل دخل في دين محمّد وتعهّد بدفع الصّدقة، وتذكر رواية ثانية أنّه ظلّ على النّصرانيّة وتعهّد بدفع إتاوة سنويّة لمحمّد.

أغرى قدوم محمّد في عدد جمّ من أتباعه إلى تبوك عناصر عديدة من قبائل قضاعة ولخم بالدّخول في دينه، واختارت عدّة قرى تقع جنوب بلاد الشّام أن تدخل في عقد محمّد وحلفه، فأرسلت وفودها إليه، فقدم وفد أيلة (العقبة) وهي قرية صغيرة على ساحل بحر القلزم[6] وكان على رأس هذا الوفد يحنّة بن رؤبة، وكان نصرانيّاً. وقدم وفد مقنا التي تقع غير بعيد عن أيلة على ساحل بحر القلزم[7]. وقدم وفد أذرح

---

(١) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٣٢.
(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٢، ص ١٤.
(٣) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ١٠٢٥.
(٤) بيغوليفسكيا: **العرب على حدود بيزنطة**، ص ٢١٧.
(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ١٠٢٧.
(٦) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ١، ص ٢٩٢.
(٧) نفسه، م ٥، ص ١٧٨.

ووفد جربا، وهما قريتان متجاورتان تقعان في نواحي البلقاء شمال وادي القرى[١]. وصالحت وفود هذه القرى محمّداً على دفع إتاوة سنويّة إليه مقابل أن يتعهّد محمّد بحمايتها.

بعد واقعة تبوك واصلت القبائل والعشائر العربيّة النّازلة ببلاد الشام الدّخول في دين محمّد وفي حلفه، فقدم عليه وفد سلامان إحدى قبائل قضاعة في شوّال سنة عشر للهجرة[٢]. ودخلت حدس إحدى عشائر لخم في دينه[٣]، وفي سنة عشر «أرسل فروة بن عمرو الجذامي رسولاً إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للرّوم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان في أرض الشّام»[٤]، ولم يغفر الرّوم لعاملهم دخوله في دين محمّد، وقاموا بقتله.

كانت إحدى أولويّات محمّد في الفترة الأخيرة من حياته توسيع دائرة نفوذه في بلاد الشّام. ولحثّ أتباعه على غزو أرض الشّام الخصبة وعد بعض أتباعه بإعطائه عدداً من قراها متى غلب عليها. «قالوا: وكتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لنعيم بن أوس أخي تميم الدّاري أنّ له حبري وعينون بالشام قريتها كلّها سهلها وجبلها وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها، ولعقبه من بعده...»[٥]. وفي زمن ردّة الأسود العنسي ومسيلمة بن حبيب أمر محمّد أتباعه «بالتّهيّؤ لغزو الرّوم»[٦]، وجعل على الجّيش أسامة بن زيد، وأمره بالسّير إلى أرض البلقاء، وقبل أن يبتعد هذا الجيش عن يثرب توفّي محمّد.

يمكن توزيع سكّان بلاد الشّام الذين عرفوا دين محمّد عن قرب زمن النّبوّة إلى مجموعتين: مجموعة أولى تنزل وسط بلاد الشّام في مقاطعة البلقاء خاصة ومجموعة ثانية تنزل في جنوب بلاد الشام على تخوم الحجاز، ينحدر سكّان وسط بلاد الشام من قوميات وقبائل مختلفة، وينزلون في عدّة قرى خاضعة لسلطة الإمبراطورية البيزنطيّة أو واقعة في دائرة نفوذها، وكان أغلب سكان وسط بلاد الشّام على النّصرانيّة، ومُني أتباع محمّد عندما قدموا إلى هذه المنطقة في أوائل سنة ثمان بهزيمة فادحة في واقعة مؤتة.

يمكن توزيع سكّان جنوب بلاد الشام إلى مجموعتين: مجموعة أولى تتمثل في سكان القرى ومجموعة ثانية تتمثّل في أبناء عدد من القبائل والعشائر البدويّة. يدين

---

(١) نفسه، م ١، ص ١٢٩؛ م ٢، ص ١١٨.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٣٣٣.

(٣) نفسه، م ١، ص ٢٦٦.

(٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، م ٢، ص ٢٩٧.

(٥) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٦٧.

(٦) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ٣، ص ١١١٧.

سكّان القرى في الأغلب باليهوديّة والنّصرانيّة، وتعتمد القرى السّاحليّة منها على الصّيد البحري بالأساس، وتعتمد القرى غير السّاحليّة على الزّراعة والتّجارة. وكانت القرى الواقعة في هذه المنطقة صغيرة تعيش تحت حماية عدّة عشائر بدويّة مقابل طعمة وأكل لأنّ المعطيات الطبيعيّة في جنوب بلاد الشّام وشمال الحجاز لا تؤهّل للتّوسّع في الأراضي المزروعة، ولهذا سارعت معظمها إلى الدّخول في حلف محمّد، ولم تستطع القرى التي حاولت مواجهته أن تصمد أمامه طويلاً.

كانت العشائر والقبائل البدويّة النّازلة جنوب بلاد الشّام تتعاطى الرّعي بصفة أساسيّة، ولم تكن لهؤلاء البدو مشاركة واسعة في أحداث النّبوّة، وتمثلت أنشطتهم المعادية لمحمّد في التعرّض لبعض أتباعه ومحاولة قطع تجارة يثرب مع الشّام. وقبلت عشائر كثيرة من جنوب بلاد الشّام الدّخول في حلفه وعقده بدون أن تتعرّض لضغط عسكري، ويعود ذلك إلى كونها عشائر ضعيفة لا تتمتّع بعصبيّة قبليّة قويّة، إذ لم يتجمّع أبناء القبيلة الواحدة لمواجهة محمّد، وكانت لكلّ عشيرة طريقتها الخاصة في التّفاعل مع الحدث الإسلامي.

على المستوى الدّيني كان سكّان بوادي جنوب الشّام يجمعون بين النّصرانيّة والوثنيّة، وكانت الدّيانتان تتعايشان ضمن العشيرة الواحدة. فانتشار النّصرانيّة لم يؤدّ إلى تأسيس كيانات منفصلة عن العشيرة، ولم يكن للمؤسّسات الدّينيّة المسيحيّة حضور قويّ في جنوب بلاد الشام، ولم يكن النّصارى العرب متعلّقين بالإمبراطوريّة البيزنطيّة، ولم ينظروا إليها على أنّها الوطن الأم. ويعود ذلك إلى أنّهم كانوا على اليعقوبيّة، واتّخذت الإمبراطوريّة البيزنطيّة الملكانيّة مذهباً رسميّاً، وعملت على نشره، وحاربت اليعقوبيّة التي ارتبطت بنزعة للانفصال والتّمرّد[1]. وكانت للمسيحيّة العربيّة عدّة خصائص ناتجة عن تأثّرها بالبيئة العربيّة، وأبرز هذه الخصائص تأليه مريم العذراء، إذ استبدل النّصارى العرب الذين جادلهم القرآن مريم العذراء بروح القدس: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...» (المائدة ١١٦/٥). ويُعرف النّصارى الذين يؤلّهون مريم بالفطائريين Collyridiens «وكانوا يقدّمون لها نوعاً من القرابين أخصّها أقراص العجين والفطائر»[2]. من المرجّح أنّ تأليه النّصارى العرب لمريم العذراء ناتج عن تأثّرهم بالوثنيّة العربيّة التي قامت على عبادة مجموعة من الآلهة الإناث، وكان النّصارى العرب يكنّون احتراماً كبيراً لبعض عناصر الوثنيّة، دين

(١) بيغوليفسكيا: **العرب على حدود بيزنطة**، ص ٣١٩.

(٢) جواد علي: **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ٦، ص ٨٨.

العرب الرّسمي، و«كانوا يحلفون بالأصنام والأوثان وبمكّة إلى جانب حلفهم بالصّليب والقربان والمعموديّة والمسيح...»[1]، وواصلوا أكل لحم الجمل الذي حرّمه عدد من رجال الدّين النّصارى[2]. كان النّصارى العرب النازلون في جنوب بلاد الشام يعيشون في تماس مع الرّوم وعدد من القوميات الأخرى وهذا ما أكسبهم تعلّقاً بهويّتهم العربيّة، أمّا اليهود النازلون شمال الحجاز وجنوب بلاد الشّام فكانوا موزّعين على عدّة قرى صغيرة، ولم يتوحّدوا لمواجهة محمّد، فاستطاع أن ينتصر عليهم بسهولة.

خاتمة

لم يساهم سكّان المنطقة الواقعة شمال الحجاز وجنوب بلاد الشام بكثافة في أحداث النبوّة لوقوعهم بعيداً عن يثرب ومكّة، وتمثلت أنشطتهم المعادية لمحمّد في التعرّض لعدد من قوافل أتباعه التجاريّة وجمع النّاس لحربه. وبعد أن أبرم محمّد صلح الحديبيّة مع أهل مكّة تفرّغ للتوسّع في أراضي الشّمال الخصبة لتوفير قاعدة اقتصاديّة لكيانه السّياسي الآخذ في التّنامي ولتسهيل عمليّة السّيطرة على القبائل المختلفة التي دخلت في دينه وحلفه وإقناعها بالكفّ عن تبادل الإغارة. ويتوزّع سكّان منطقة شمال الحجاز وجنوب بلاد الشّام وفق معايير عديدة هي الدّيانة والقبيلة ونمط الحياة. كان اليهود منهم منفصلين عن المحيط القبلي الذي يحيط بهم ويعيشون في قرى صغيرة تعتمد على تعاطي النّشاط الزّراعي والتّجارة، ويتوزّع بقيّة سكّان بلاد الشّام على عدّة قبائل تجمع بين الوثنيّة والنّصرانيّة وتقيم في البوادي والقرى وكانت في أقسام منها خاضعة للنفوذ البيزنطي. استطاع محمّد أن يسيطر على عدّة قرى تقع شمال الحجاز وجنوب بلاد الشام، ودخلت عدّة قبائل تنزل قريباً من هذه القرى في حلفه ودينه، فأغراه ذلك بالتوغّل نحو الشمال، فتعرّض أتباعه إلى هزيمة في واقعة مؤتة، وفي سنة تسع للهجرة خرج محمّد في جمع حاشد من أتباعه إلى تبوك، وعند وفاته كان أتباعه يتهيّؤون للتوجّه من جديد نحو بلاد الشام.

كانت منطقة شمال الحجاز وجنوب بلاد الشام تمتاز بالتّعدّد على مستوى خصائصها، فكان أهلها مزيجاً من الرّعاة والمزارعين من العرب وغير العرب من أهل الكتاب والوثنيين ولهذا لم يجتمعوا على حرب محمّد، وكانت أنشطتهم المعادية له ضعيفة ومشتّتة، واختار كلّ كيان طريقته الخاصة في التعامل مع الحدث الإسلامي.

---

(١) سلوى بالحاج صالح العايب: **المسيحية العربية...**، ص ٩٣.

(٢) بيغوليفسكيا: **العرب على حدود بيزنطة**، ص ٢٣٩.

الفصل الرّابع

أعداء محمّد من أهل اليمن وأهل اليمامة

مقدّمة

لم ينخرط أهل اليمن وأهل اليمامة بصورة جماعيّة في أحداث نبوّة محمّد إلاّ في مرحلتها الأخيرة لبعد هاتين المنطقتين عن مكّة ويثرب. توجد اليمن جنوب الجزيرة العربيّة، وتوجد اليمامة شرقها، وكان لهاتين المنطقتين مساران متشابهان في التّعامل مع الحدث الإسلامي، إذ دخل قسم واسع من سكّانهما في دين محمّد بدون التعرّض لضغط عسكري قويّ. وقبل وفاة محمّد بزمن قصير ارتدّ قسم مهمّ من أتباعه في هاتين المنطقتين. تزعّم حركة الردّة في اليمن الأسود العنسي، وتزعّم حركة الردّة في اليمامة مسيلمة بن حبيب، وادّعى كلّ واحد منهما أنّه نبيّ.

رغم أنّ ردّة الأسود العنسي وردّة مسيلمة بن حبيب قد وقعتا في زمن متأخّر من الفترة النّبويّة لا تحتفظ الذّاكرة الجماعيّة إلاّ بأخبار قليلة عنهما. والسّبب الرّئيسي في ذلك أنّهما وقعتا بعيداً عن يثرب ولم تستغرقا من الوقت إلاّ زمناً قصيراً، وتشكّلت في المخيال الجماعي صورة نمطيّة عن الأسود العنسي ومسيلمة بن حبيب موغلة في السّلبيّة، فهما رمز الكذب المطلق ونقيضا محمّد، وجاءت أخبارهما في معظمها لدعم هذه الصورة النّمطيّة. ومن أجل تفسير نجاح مدّعي النّبوّة في إقناع النّاس بصدقهما وُضعت أخبار كثيرة عنهما غلب عليها الطّابع الأسطوري، وتوسّل الرّواة بالعجيب والخارق في بناء عدد من أخبار نبيّ اليمن ونبيّ اليمامة.

١ ـ ردّة الأسود العنسي

الأسود العنسي هو عبهلة (أو عيهلة) بن كعب، ويُعرف في الأغلب بذي الخمار. وعبهلة لقب يطلق على الأشراف والأسياد باليمن، وتذكر بعض المصادر أنّه سُمّي الأسود لسواد لونه، والعنسي نسبة إلى قبيلة عنس إحدى قبائل مذحج. ما ورد

في المصادر من معلومات قليلة عنه يؤكد أنّه كان من كبار تجّار الطّيب والثّياب يأتيه الشعراء من بعيد ويمدحونه: «أتى الأعشى الأسود العنسي وقد امتدحه، فاستبطأ جائزته، فقال الأسود: ليس عندنا عين ولكن نعطيك عرضاً، فأعطاه خمسمائة مثقال دهناً وبخمسمائة حللاً وعنبراً...»[1]. وتذكر بعض المصادر أنّ الأسود العنسي كان قبل إعلانه نبوّته «من عيران الدّير»[2]، ممّا يدلّ على أنّه كان ذا اهتمام خاص بالدّين.

لم يظهر الأسود العنسي على واجهة الأحداث إلاّ في آخر سنة عشر هجرية زمن بداية حركة الرّدّة التي تعرف في المصادر بردّة الأسود العنسي أو ردّة اليمن الأولى. وتربط الرّوايات في أغلب الأحيان بين بداية حركته وموت باذام (أو باذان) عامل محمّد على بلاد اليمن وسيّد الأبناء، وكان باذام قبل أن يدخل في حلف محمّد عامل كسرى على بلاد اليمن التي خضعت للنّفوذ الفارسي بعد أن طردوا منها أهل الحبشة سنة ٥٧٥ للميلاد. وبعد هزيمة الفرس في حروبهم الطّويلة ضد الرّوم واغتيال خسرو الثّاني في بداية سنة ٦٢٨ للميلاد دخلت الامبراطوريّة الفارسيّة في حالة اضطراب داخلي، واحتدّ التّنافس على العرش، فاختار باذام في بداية سنة عشر للهجرة الدّخول في دين محمّد وحلفه[3]، وقدم على محمّد عدد من وفود أهل اليمن يمثّلون رؤساء قبائل وأذواء وملوك.

اختارت معظم التّجمّعات البشريّة الكبرى الموجودة ببلاد اليمن الدّخول في دين محمّد بصورة طوعيّة، ولدعم جهود حلفائه في السّيطرة على بلاد اليمن أرسل محمّد خالد بن الوليد «في شهر ربيع الآخر وقيل في شهر ربيع الأوّل وقيل في جمادى الأولى»[4]، سريّة في أربعمائة فارس إلى الحارث بن كعب إحدى قبائل مذحج، وكانوا ينزلون بنجران، وفي شهر رمضان من سنة عشر «وجّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم علي بن أبي طالب في سريّة إلى اليمن»[5]، وانضمّ إلى علي بن أبي طالب قسم من أتباع خالد بن الوليد الذي عاد إلى يثرب ومعه وفد بني الحارث بن كعب. لمّا وصل علي بن أبي طالب إلى أرض مذحج، «فرّق أصحابه، فأتوا بنهب وغنائم وسبي ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك...»[6]. واجتمع عليهم النّاس، وبعد قتال قليل

---

(١) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ٩، ص ١٤١.
(٢) الشّبلي: **محاسن الوسائل**، ص ٥٨.
(٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٥، ص ٥٣٣.
(٤) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٥.
(٥) نفسه، م ٣، ص ٥.
(٦) الواقدي: **كتاب الأغاني**، ج ٣، ص ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠.

استجاب أبناء مذحج لما دعاهم إليه رسول محمّد، «... فسارعوا، وأجابوا، وتقدّم نفر من رؤسائهم، فبايعوه على الإسلام»[١].

قدم أسياد الحارث بن كعب إلى يثرب وقبلوا ما عرضه عليهم محمّد، وفي شهر شوّال أو في صدر ذي القعدة رجعوا إلى قومهم وأميرهم قيس بن الحصين[٢]. وفي شهر ذي الحجّة وصل جيش علي بن أبي طالب مكّة التي قدم إليها محمّد لأداء ما صار يُعرف بحجّة الوداع، وقبل أن يعود محمّد إلى يثرب تناءى إليه خبر وفاة باذام، ففرّق عمّال اليمن بين جماعة من أتباعه وحلفائه، فكان أن «... استعمل عمرو بن حزم على نجران وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد وعامر بن شهر على همدان وعلى صنعاء ابن باذام وعلى عكّ والأشعريين الطّاهر بن أبي هالة وعلى مأرب أبا موسى الأشعري وعلى الجند يعلى بن أميّة، وكان معاذ معلّماً يتنقّل في عمالة كلّ عامل باليمن وحضرموت، واستعمل على أعمال حضرموت على السّكاسك والسّكون عكاشة بن ثور وعلى بني معاوية بن كندة عبد اللّه، أو المهاجر، فاشتكى فلم يذهب حتّى وجّهه أبو بكر وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وكان زياد يقوم على عمل المهاجر»[٣]. عندما بدأت حركة الأسود العنسي كان معظم عمّال محمّد على اليمن قد التحقوا بأماكن عملهم، ممّا يدلّ على أنّها بدأت بعد مضيّ شيء من الزّمن على وفاة باذام وارتبطت بدايتها بقدوم خلفاء باذام عمال محمّد إلى اليمن. ومن المرجّح أنّ إعلان الأسود العنسي لنبوّته قد تزامن مع بداية تحرّكه العسكري، ولا شيء يدلّ على أنّه قد سبق له أن دخل في دين محمّد.

بدأ الأسود العنسي حركته بإرسال كتاب إلى أتباع محمّد بالجند يطلب منهم أن يخلّوا ما جمعوا من الأموال ويعودوا من أين جاؤوا[٤]، ومن المرجّح أنّه أرسل كتباً مماثلة إلى بقيّة عمال محمّد ببلاد اليمن الوسطى. وكان أتباعه في بداية حركته من قبيلة عنس وقبيلة زبيد بصفة خاصة، وتذكر بعض المصادر المتأخّرة أنّ آلافاً من أبناء حمير التحقوا به[٥]، وهذا ما لا تذكره كتب التّاريخ الأساسيّة ولا تؤكّده الأحداث اللاّحقة.

انتشر خبر الأسود العنسي بين النّاس، ووجدت حركته استجابة سريعة من قسم

---

(١) نفسه، ج ٣، ص ١٠٨٠.

(٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٥، ص ٥٢٨.

(٣) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٩٠.

(٤) نفسه، م ٣، ص ٩١.

(٥) الدّيار بكري: **تاريخ الخميس...**، ج ٢، ص ١٥٦.

كبير من سكّان وسط بلاد اليمن وخاصة من بني الحارث بن كعب الذين لم يمض على دخولهم في دين محمّد سوى زمن قصير، فأرسلوا إليه يدعونه إلى القدوم إليهم، فهرب عامل محمّد على نجران عمرو بن حزم، وهرب عامل محمّد على ما بين نجران ورمع وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعادا إلى يثرب. قدم الأسود العنسي مع أتباعه إلى نجران، وأخذها في عشر لمخرجه، وانضمّ إليه قسم لا يُستهان به من سكّانها، وأعلن عمرو بن معد يكرب الزّبيدي فارس مذحج خروجه من حلف محمّد وانضمّ مع قيس بن مكشوح أحد أسياد قبيلة مراد إلى حركة الأسود العنسي، وثارا على فروة بن مسيك المرادي حليف محمّد وعامله على مذحج، فالتجأ مع من تابعه إلى الأحسيّة[1].

تضاعف أتباع الأسود العنسي في ظرف زمني وجيز، وأصبح جيشه وافر العدد بانضمام عدد كبير من رجال بني الحارث بن كعب إليه منهم ستمائة فارس. ولم يطل الأسود العنسي المكوث كثيراً في نجران، وتوجّه إلى صنعاء عاصمة بلاد اليمن الوسطى، وفي طريقه إليها انضمت إليه عدّة قبائل وعشائر تنحدر من مذحج مثل أود ومسلية وحكم[2]. وكان شهر بن باذام على علم بتوجّه الأسود العنسي إلى صنعاء، فخرج إلى قتاله، ولم يطلب عامل محمّد المدد والمساعدة من بقيّة حلفاء محمّد وأتباعه. وعلى مقربة من صنعاء وفي مكان يُعرف باسم شعوب دارت معركة بين الفريقين انتهت بانتصار الأسود العنسي وقتل شهر بن باذام.

دخل الأسود العنسي صنعاء منتصراً، وغلب عليها، فانضمّ إليه رؤساء الأبناء مثل داذويه وفيروز الدّيلمي وجشنس، وهرب معاذ بن جبل إلى مأرب. وذاع صيت الأسود العنسي بين قبائل اليمن «وجعل يستطير استطارة الحريق...»[3]، فهرب معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري من مأرب، واقتحما حضرموت «وانحاز سائر أمراء اليمن إلى الطاهر (...) والطّاهر يومئذ وسط عك بحيال صنعاء»[4]. هرب معظم عمّال محمّد على بلاد اليمن، ولا تذكر المصادر ما فعل عامر بن شهر الهمداني عامله على همدان. من المرجّح أنّه لم يهرب لأنّه كان في حماية قبيلته، ومن الممكن أنّ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل لم ينحازا إليه لخوفهما من أن ينضمّ إلى حركة الأسود العنسي لقرب ديار همدان من صنعاء.

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٥٥.
(٢) الدّيار بكري: **تاريخ الخميس**. . . ، ج ٢، ص ١٥٦.
(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، م ٣، ص ٩١.
(٤) نفسه، م ٣، ص ٩١.

حرص الأسود العنسي على أن يكون قادة جيشه وكبار مساعديه من قبائل مختلفة لحثّ هذه القبائل على متابعته: «وكان قوّاده قيس بن عبد يغوث المرادي ومعاوية بن قيس الجنبي ويزيد بن محرّم ويزيد بن حصين الحارثي ويزيد بن الأفكل الأزدي»[(١)]، وأوكل الأسود العنسي لعمرو بن معد يكرب مهمّة مواجهة فروة بن مسيك، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز وداذويه. اختار الأسود العنسي أن يكون قوّاده من قبائل مختلفة لضمان ولائها، ولم يسند لأقاربه دوراً مهمّاً في قيادة حركته.

تذكر المصادر أنّ الأسود العنسي سيطر على مساحات شاسعة من اليمن «وثبت ملكه، واستغلظ أمره، ودانت له سواحل من السّواحل، حاز عثر والشرجة والحردة وغلافقة وعدن والجند ثم صنعاء إلى عمل الطّائف إلى الأحسيّة وعليب...»[(٢)]. تذكر المصادر أنّه غلب على معظم بلاد اليمن وامتدّ نفوذه من عدن إلى تخوم الطّائف مروراً بعليب، وهيمن على جزء واسع من سواحل اليمن على بحر القلزم انطلاقاً من غلافقة وصولاً إلى عثر. لا شكّ في أنّ الرّواة قد بالغوا كثيراً عند الحديث عن توسّع حركة الأسود العنسي، تنزل في الأماكن التي تذكر المصادر أنّه غلب عليها عدّة قبائل وعشائر لم تنضمّ إلى حركته مثل همدان وحمير وعدّة عشائر من مذحج مثل جعفى والنّخع. ومن المرجّح أنّه كان للأسود العنسي أنصار في أماكن شاسعة من اليمن وفي منطقة الهضبة الوسطى وبمنطقة أرض سبأ خاصة، ولكنّه لم يسيطر على كلّ هذه المناطق، ولم تكن له خالصة، وتركّز نفوذه الفعلي في صنعاء ونجران.

أقام الأسود العنسي في صنعاء، وأنزل عناصر جيشه في ديار أهلها، وتزوّج من آذاد زوجة شهر بن باذام وابنة عم فيروز الدّيلمي. وتذكر بعض المصادر أنه استذلّ الأبناء وأساء معاملتهم «... واستخدمهم، فأضرّ بهم»[(٣)]، و«سفل بمن بقي منهم وفضح النّساء»[(٤)]، وأجبر النّاس على الإيمان بنبوّته، وقام بقتل بعض من ثبت على دين محمّد، مثل: «... النّعمان وكان يهودياً من أهل سبأ فقدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فأسلم، ثم رجع إلى بلاد قومه، فبلغ الأسود بن كعب العنسي خبره، فبعث إليه، فأخذه، فقطّعه عضواً عضواً»[(٥)].

كثر أتباع الأسود العنسي، وتعاظم أمره، وآثر محمّد عدم إرسال جيش إلى اليمن، وفضّل أن يتوجّه أتباعه إلى بلاد الشّام، وأرسل إلى أتباعه وحلفائه باليمن

---

(١) نفسه، م ٣، ص ٩٢.
(٢) نفسه، م ٣، ص ٩٢.
(٣) البلاذري: **فتوح البلدان**، ص ١١٠.
(٤) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م٣، ص ٩٣.
(٥) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ٥، ص ٥٣٥.

يحثّهم على مواجهة الأسود العنسي والعمل فيه مصادمة أو غيلة: «فبعث وبر بن يحنّس إلى فيروز وجشيش الدّيلمي وداذويه الإصطخري، وبعث جرير بن عبد اللّه إلى ذي الكلاع وذي ظليم، وبعث الأقرع بن عبد اللّه الحميري إلى ذي زود وذي مُرّان»[1]. ولقيت دعوته استجابة من فريق من أهل نجران «فثبتوا، فتنحّوا، وانضمّوا إلى مكان واحد...»[2]، واستجاب له أذواء همدان وحمير، وكاتبوا الأبناء بصنعاء بذلك، وعلم الأسود العنسي بما يُدبّر ضدّه، ففقد الثّقة في مساعديه وقادة جنده، وأساء معاملة قيس بن مكشوح، وهدّده بالقتل.

لم يحسن الأسود العنسي سياسة النّاس، وضجر أهل صنعاء من نزول مقاتليه في ديارهم، وبدأ أمره في التّراجع، وأخذ الأبناء يكيدون له، ويتربّصون به الدّوائر، ووجدوا من قيس بن مكشوح موافقة. وتتّفق معظم المصادر على أنّ فيروز الدّيلمي وداذويه وقيس بن مكشوح هم من تولّوا تنفيذ قتل الأسود العنسي بالتّواطؤ مع زوجته آذاد. وتتعدّد الرّوايات في طريقة قتله، فتذكر رواية أولى أنّ آذاد «سقته الخمر حتّى سكر فسقط نائماً كالميّت»[3]، فلم يجد قاتلوه صعوبة في الإجهاز عليه. وتذكر رواية ثانية أنّ قتلته تمكّنوا من الوصول إليه بعد أن نقبوا قصره من الخلف[4]، ومن المرجّح أنّ آذاد أرشدت قاتلي الأسود العنسي على ممرّ سرّي يمتدّ من خلف القصر إلى داخله. ويجمع أغلب الرّواة على أنّ فيروز الدّيلمي هو من أجهز عليه، تمّ ذلك في اللّيل، ولمّا طلع الفجر نودي بالأذان الذي منعه الأسود العنسي عندما غلب على صنعاء، ولمّا تجمّع النّاس حول القصر لاستجلاء الأمر أُلقي إليهم رأسه، فاضطرب النّاس، وعمد أتباعه إلى خطف عدد من صبيان أهل صنعاء «وانتهبوا ما انتهبوا، ثم مضوا خارجين»[5]، فتعلّق بهم أهل صنعاء، واستطاعوا أن يأسروا منهم سبعين رجلاً، وتراضى الفريقان بعد ذلك على أن يخلّي كلّ فريق ما لديه من الأسرى. وأعلن أسياد صنعاء الجدد ولاءهم لمحمّد، وعندما تناءى خبر مقتل الأسود العنسي إلى نجران غلب عليها أتباع محمّد من جديد، وظلّ أتباع الأسود العنسي يتردّدون بين نجران وصنعاء، وما لبثت الأخبار أن جاءت بوفاة محمّد، فعظم أمرهم، وبدأت حركة ردّة اليمن الثّانية.

---

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٥٦.
(٢) نفسه، م ٣، ص ٩٣.
(٣) الدّيار بكري: **تاريخ الخميس**. . .، ج ٢، ص ١٥٧.
(٤) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٨٥.
(٥) نفسه، م ٣، ص ٩٥.

استغرقت حركة الأسود العنسي زمناً قصيراً، إذ امتدّت بين شهرين وثلاثة أشهر، وجرت أحداثها بوتيرة متسارعة، وظلّت جوانب عديدة منها يكتنفها الغموض. تذكر المصادر أنّ نبيّ اليمن كان صاحب شعوذة وأعاجيب، وتقوم نبوّته على مبدأ الاتّصال بقوى غيبيّة، ويُدعى صاحبه الذي يأتيه بالوحي من السّماء "ذا خمار"[١]، ويقوم دينه على مبدأ وحدانية الإله[٢]. ولا تقدّم المصادر سوى معلومات قليلة عن مبادئ دينه، ولا يعني هذا أنّ الجانب الدّيني لم تكن له فاعليّة في صنع أحداث حركته. لا شكّ في أنّ فريقاً ليس بالقليل من أتباعه كانوا يعتقدون في صدق نبوّته. تضافرت عوامل عديدة في دفع فريق من أهل اليمن إلى الانضمام إلى حركة الأسود العنسي، فدين محمّد انتشر بسرعة في هذه البلاد ولم يتمكّن من قلوب النّاس. وينحدر معظم أتباع نبيّ عنس من قبائل فرض عليها محمّد الخضوع لسلطته أو كانت مهدّدة بذلك مثل الحارث بن كعب وزبيد وعنس، والتحقت هذه القبائل بحركة الأسود العنسي للتّنصّل من هيمنة محمّد. أمّا قيس بن مكشوح وخاله عمروبن معد يكرب الزبيدي الذي كان يعيش ضمن قبيلة مراد[٣]، فانضمّا إلى حركة الأسود العنسي لمواجهة فروة بن مسيك الذي دعمه محمّد في سعيه للسّيادة على قبائل مذحج. أمّا انضمام داذويه وفيروز الدّيلمي وغيرهما من أسياد الأبناء إلى حركة الأسود العنسي فكان موقفاً ظرفيّاً[٤] أملته هزيمتهم في واقعة شعوب، وظلّوا يتربّصون به الدّوائر ويكيدون له في الخفاء. ويرجع موقفهم هذا إلى أنّ حركته كانت في أهدافها البعيدة تتعارض مع مصالحهم، إذ كانت في أحد جوانبها محاولة لاستعادة استقلال اليمن والتّخلّص من هيمنة الغرباء الوافدين[٥]. وهذا ما يظهر في رسالته إلى عمّال محمّد باليمن: «أيّها المتورّدون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفّروا ما جمعتم فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه»[٦]. وكان الأسود العنسي يفتخر أنّه من قوم أحرار ولهم أحساب[٧].

سبق لمعظم القبائل التي اتّبعت الأسود العنسي أن كوّنت حلفاً عُرف بحلف مذاب لمواجهة الأبناء، «وذلك أنّه اجتمع جماعة من الرّؤساء، فتشاوروا، وأجمعوا

---

(١) الشبلي: **محاسن الوسائل**، ص ٥٨.

(٢) Watt (W. M): Art «al 'Aswad b. Ka'b al 'Ansi», in *E I 2*, T I, p. 750.

(٣) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ١٦٨.

(٤) Daghfous (R): *Le Yaman Islamique*... T I, p. 334.

(٥) *Ibid.*, T I, p. 337.

(٦) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٩١.

(٧) نفسه، م ٣، ص ٩٨.

على حرب باذان بن ساسان في زمن كسرى بن هُرمز، وكان اجتماعهم بمذاب من الجوف (...) فعسكروا عسكراً عظيماً، وجمعوا جمعاً كثيفاً...»[١]. تحالفت عدّة قبائل تنتمي إلى مذحج خاصة ضد الأبناء، وتحالفت عدّة قبائل من مذحج ومن يمنيي الضّاحية لمواجهة القبائل العدنانيّة[٢]. وكانت ردّة الأسود العنسي في أحد وجوهها مواصلة لجهود أهل اليمن للاستقلال وإخراج الغرباء من أرضهم.

تمتاز معظم القبائل التي تابعت الأسود العنسي وانضمّت إلى حركته بأنّها قبائل بدويّة فقيرة تعيش في مناطق قاحلة وأقلّ خصوبة من باقي مناطق اليمن[٣]. وكان هؤلاء الأعراب يعتمدون على الرّعي بصفة خاصة لتحصيل معاشهم، وكانوا يحاولون التّوسّع داخل المناطق الأكثر خصباً، وهذا ما جعلهم في حالة عداء مع قبيلة همدان خاصة[٤]. وبالإضافة إلى الرّعي تولّى أبناء قبيلة مراد خفارة تجارة الأبناء[٥].

استطاع الأسود العنسي أن يحقّق نجاحاً كبيراً في مدّة زمنيّة قصيرة، فتابعه عدد كبير من النّاس، وهيمن على مساحات واسعة من بلاد اليمن، ولكنّه لم يتمتّع بنجاحه طويلاً، وقُتل على يد أقرب النّاس إليه، وبموته ضاعت نبوّته. ويعود فشله إلى أسباب عديدة أهمّها سوء معاملته لكبار قادته ومساعديه، وسوء سياسته لأهل صنعاء وإنزال جنوده في ديارهم. ومن المرجّح أنّه بعد أن غلب على صنعاء قُطعت تجارة أهلها مع الشّام، فكان ذلك دافعاً إضافياً لانفضاض النّاس من حوله. تزامنت ردّة الأسود العنسي مع ردّة مسيلمة بن حبيب، ولا شيء يدلّ على أنّهما قد سعيا إلى التّحالف وتكوين جبهة موحّدة ضد محمّد.

٢ ـ ردّة مسيلمة بن حبيب

ينتمي مسيلمة بن حبيب إلى قبيلة حنيفة التي تنتمي إلى مجموعة ربيعة العدنانيّة[٦]، وتشترك مع ذهل وشيبان في الانتماء إلى بكر بن وائل، وتقع ديارها بمنطقة اليمامة شرق جزيرة العرب، وأهم قرى اليمامة حَجر، «وحجر هي مدينة

---

(١) الرّازي: **تاريخ مدينة صنعاء**، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) القالي: **ذيل الأمالي والنّوادر**، ص ١٤٧.

(٣) Daghfous (R): *Le Yoman Islanique*, T I, p. 332.

(٤) نزار عبد اللّطيف الحديثي: **أهل اليمن في صدر الإسلام**، ص ٦٩.

(٥) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، ج ١٧، ص ٣١٨.

(٦) Kindermann (H): art «Rabi'a et Mudar», *E I 2*, T VIII, p. 365.

اليمامة وأمّ قراها»[١]. وتُعرف اليمامة بغزارة سقوط الأمطار فيها، ولذلك تعاطى فريق من سكّانها الأنشطة الزّراعيّة وسكنوا القرى: «وبنو حنيفة (...) وأنّهم أهل مدر وأكّالو تمر...»[٢]. واشتهرت اليمامة بزراعة النخيل والحبوب، هذا «ويقول أهل اليمامة غلبنا أهل الأرض شرقها وغربها بخمس خصال ليس في الدّنيا أحسن ألواناً من نسائنا ولا أطيب طعاماً من حنطتنا ولا أشدّ حلاوة من تمرنا ولا أطيب مضغة من لحمنا ولا أعذب من مائنا»[٣]. وكانت اليمامة تحقّق في السّنوات الجيّدة فائضاً في إنتاج الحبوب[٤]. وبالإضافة إلى الزّراعة كانت مركزاً تجاريّاً تمرّ بها قوافل اليمن نحو بلاد فارس.

اعتمد فريق من قبيلة حنيفة على الأنشطة الزّراعيّة وسكنوا القرى، واعتمد فريق آخر على الرّعي ونزلوا البوادي. وكانت لهذه القبيلة معاملات تجاريّة نشيطة مع أهل مكّة الذين كانوا يأتون بقسم من طعامهم من اليمامة: «وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة»[٥]. وكان لبني حنيفة حضور في أسواق الحجاز، وكان معظمهم على الوثنيّة الذين الأكثر انتشاراً بين العرب زمن النبوّة، وكانوا يعبدون مجموعة من الآلهة ويعظّمون الكعبة ويأتونها للعمرة والحج، وكان عدد منهم على النّصرانيّة، وكانت في قراهم عدّة أديرة، وتذكر بعض المصادر أنّ هوذة بن عليّ سيّد بني حنيفة في زمن نبوّة محمّد كان على النّصرانيّة.

عرض محمّد نفسه في الفترة الأخيرة من زمن وجوده في مكّة على بني حنيفة، «فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردّاً منهم»[٦]. وقبل الأوس والخزرج ما رفضه بنو حنيفة، وهاجر محمّد وأتباعه إلى يثرب البعيدة عن اليمامة، فلم تكن له بأهلها علاقة مباشرة إلاّ زمن صلح الحديبيّة عندما قام بعض أتباعه بأسر ثمامة بن أثال سيّد أعراب بني حنيفة[٧] فأحسن محمّد معاملته، وأطلق سراحه، فدخل ثمامة بن أثال في دينه، ونصر أتباعه ضد قريش.

قام سيّد أعراب بني حنيفة بقطع تجارة أهل مكّة، ومنع قوافلهم من الوصول إلى

---

(١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، م ٢، ص ٢٢١.

(٢) الجاحظ: **كتاب الحيوان**، ج ٤، ص ٣٨٠.

(٣) الهمذاني: **مختصر كتاب البلدان**، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٤) Eickelman (D. F): «Musaylima»... *J E S H O* (Leiden, E. J. Brill), Vol 10, 1967, p. 29.

(٥) ابن عبد البرّ: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ق ١، ص ٢١٥.

(٦) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٢، ص ٣٥.

(٧) Watt (W. M): *Mahomet à Médine*, p. 161.

اليمامة. حدث ذلك في زمن قطع تجارتهم مع الشّام من طرف أبي بصير وأتباعه من الصّعاليك والشذّاذ، فساءت حال قريش. وفي شهر محرّم من سنة سبع هجرية أرسل محمّد كتاباً إلى هوذة بن علي سيّد بني حنيفة يدعوه إلى الدّخول في دينه، فلم يستجب له، ولم يبعد كثيراً، وأحسن معاملة رسوله. وبعد أن غلب محمّد على مكّة في سنة ثمان للهجرة توفّي هوذة بن علي[1]، ومن المرجّح أنّ رئاسة بني حنيفة آلت إلى مسيلمة من بعده. قدم وفد بني حنيفة إلى يثرب في سنة عشر، ويتكوّن هذا الوفد من عدد من الأسياد منهم مُجاعة بن مرارة وسلمى بن حنظلة والرّجّال (أو الرّحّال) بن عنفوة[2]، ومن المرجّح أنّ هذا الوفد كان يعبّر عن موقف أهل المدر منهم[3]. تذكر المصادر أنّ مسيلمة كان أحد أعضاء الوفد، وتختلف الرّوايات حول مكانته بين أصحابه، فتذكر رواية أولى أنّه تولّى حفظ ركابهم ورحالهم، ممّا يدلّ على أنّه كان دونهم مكانة، وتذكر رواية ثانيّة أنّه وفد على محمّد ومعه أصحابه يسترونه بالثّياب[4] ممّا يدلّ على أنّ له مكانة متميّزة بينهم ومرتبة رفيعة. الأحداث اللاّحقة تثبت أنّ الرّواية الثّانية هي الأدعى إلى القبول.

تذكر بعض المصادر أنّ مسيلمة أعلن أنّه نبيّ قبل أن يهاجر محمّد إلى يثرب[5]، وكان يُعرف بـ"رحمن اليمامة"، من المرجّح أنّ هذه الرّواية وُضعت لتفسير النّص القرآني: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا» (الفرقان ٢٥/ ٦٠). لا شكّ في أنّه كان لمسيلمة اهتمام خاص بالدّين قبل وفادته على محمّد بمدّة طويلة، ومن المرجّح أنّه كان أحد الكهّان أو أحد سدنة الآلهة، ومن المستبعد أن يكون قد دخل في النّصرانيّة أو اليهوديّة يقول الجاحظ: «... فذكر أنّ مسيلمة طاف قبل التنبّي في الأسواق التي كانت بين دور العجم والعرب يلتقون فيها للتّسوّق والبياعات كنحو سوق الأبلّة وسوق لقّة وسوق الأنبار وسوق الحيرة قال: وكان يلتمس تعلّم الحيل والنّيرجات واختيارات النّجوم والمتنبّئين...»[6].

كان لمسيلمة بن حبيب اهتمام خاص بالدّين منذ مدّة طويلة قبل إعلانه نبوّته التي كانت، على الأرجح، بعد عودة وفد بني حنيفة من يثرب. وتقوم نبوّته على مبدأ الاتّصال بقوى غيبيّة، وتذكر بعض المصادر أنّ صاحبه الذي يأتيه بالوحي يُدعى "رحمن"[7]. واحتفظت المصادر ببعض النّصوص القصيرة من هذا الوحي، وهو كلام

---

(١) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، م ١، ص ٢٦٢.
(٢) نفسه، م ١، ص ٣١٦.
(٣) Watt (W. M): *Mahomet à Médine*, p. 161.
(٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ١٨٧.
(٥) الواقدي: **كتاب المغازي**، ج ١، ص ٨٢.
(٦) الجاحظ: **كتاب الحيوان**، ج ٤، ص ٣٧٠.
(٧) الشبلي: **محاسن الوسائل**، ص ٥٨.

شبيه بكلام الكهّان يقوم على جرس موسيقي مخصوص ويعتمد السّجع من قبيل: «يا ضفدع ابنة ضفدع، نقّي ما تنقّين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطّين، لا الشّارب تمنعين، ولا الماء تكدّرين»[(١)]. وكان مسيلمة يقول بإله واحد وبالبعث والحساب يوم القيامة، واتّخذ حرماً باليمامة، ومنعه، وحرّم القتال فيه[(٢)]، وحرّم الخمر وفرض الصّوم.

جاء مسيلمة بمبادئ دينيّة، واحتفظ بجوانب عديدة من دين محمّد، ولم يجحد نبوّته. كان الآذان يذكر أنّ محمّداً رسول اللّه ويردف ذلك بأنّ مسيلمة رسول اللّه. وقد حافظ مسيلمة في البداية على الصّلوات الخمس قبل أن يسقط منها صلاتين بعد وفاة محمّد[(٣)]. ولا تحدّد المصادر إن كانت صلاة أتباع مسيلمة تتمّ بقرآن محمّد أو "قرآن" مسيلمة، واختلف نبيّ بني حنيفة عن نبيّ قريش بأنّه «قد حرّم النّساء على من له ولد ذكر»[(٤)]. ويتناقض تضييقه في الزّواج مع مزاج العرب في ذلك الزّمن والذي كان يحثّ على الزّواج للإكثار من الذّكور. وتذكر المصادر أنّ الرّجّال بن عنفوة كان أكثر النّاس حظوة عنده، وكان الرّجّال بن عنفوة «قد هاجر إلى النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم، وقرأ القرآن، وفُقه في الدّين، فبعثه معلّماً لأهل اليمامة، وليشغب على مسيلمة، وليشدد من أمر المسلمين»[(٥)]. شهد الرّجّال بن عنفوة رسول محمّد أنّ مسيلمة نبيّ، وكان شديد الاعتقاد في نبوّته، ومات وهو يقاتل دونه يوم عقرباء، وكان لموقفه دور رئيسي في إقناع العديد من بني حنيفة بصدق نبيّهم.

احتفظ مسيلمة بجوانب عديدة من دين محمّد، ولم يسئ معاملة أتباعه، وكان يقرّ له بالنّبوّة، وأرسل مسيلمة عندما غلظ أمره رسالة إلى محمّد يدعوه فيها أن يعترف بنبوّته: «وقد كان مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: من مسيلمة رسول اللّه إلى محمّد رسول اللّه، سلام عليك، أمّا بعد فإنّي قد أشركت في الأمر معك، وإنّ لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون»[(٦)]. ومن المرجّح أنّ كتاب مسيلمة وصل إلى محمّد بعد فراغه من حجة الوداع.

---

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ١٣٤.
(٢) نفسه، م ٣، ص ١٣٣.
(٣) نفسه، م ٣، ص ١٢٦.
(٤) نفسه، م ٣، ص ١٢٥.
(٥) نفسه، م ٣، ص ١٣٣.
(٦) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج ٤، ص ٢١٠.

رفض محمّد دعوة مسيلمة، وأرسل إلى عدد من أتباعه يحثّهم على محاربته والعمل فيه: «وبعث فرات بن حيّان العجلي إلى ثمامة بن أثال، وبعث زياد بن حنظلة التّميمي ثمّ العمري إلى قيس بن عاصم والزّبرقان بن بدر، وبعث صلصل بن شرحبيل إلى سبرة العنبري ووكيع الدّارمي وإلى عمرو بن المحجوب العامري وإلى عمرو بن الخفاجي من بني عامر...»[1]. فضّل محمّد أن لا يرسل جيشاً إلى اليمامة البعيدة عن يثرب، واستنفر بني تميم أعداء بني حنيفة التقليديين لمواجهة مسيلمة الذي تابعه قسم من أهل قرى اليمامة. وتمسّك أعراب بني حنيفة بتأثير من ثمامة بن أثال بولائهم لمحمّد، وقبل أن يتمكّن أتباع محمّد من القيام بأيّ شيء ضد مسيلمة توفّي محمّد، وبدأت حقبة جديدة من تاريخ الإسلام.

اهتمّ مسيلمة بتأسيس قاعدة دينيّة لحركته، ولم يسعَ إلى أن يكون دينه بديلاً عن دين محمّد، بل أراده أن يكون مكمّلاً له بإضافة ما جحده نبيّ قريش بدافع التّعصّب لقومه. واقتصرت دعوة مسيلمة طيلة حياة محمّد على بني حنيفة، وتوجّه بخطابه إلى أهل المدر منهم خاصة. وتعكس نصوصه المقدّسة جوانب عديدة من حياتهم ومشاغلهم منها قوله: «والمبذّرات زرعا والحاصدات حصدا والذّاريات قمحا والطّاحنات طحنا والخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاّقمات لقما إهالة وسمنا لقد فضّلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترّ فآووه، والباغي فناوئوه»[2]. كانت حركة مسيلمة تهدف إلى تأسيس دين خاص ببني حنيفة يضمن لهم عدم الوقوع تحت هيمنة قريش المعتدين: «... وجعل مسيلمة بن حبيب الكذّاب يعلو أمره باليمامة يوما بعد يوم، ويقول لقومه: يا بني حنيفة، أريد أن تخبروني بماذا صارت قريش أحقّ بالنّبوّة والإمامة منكم، واللّه ما هم بأكثر منكم وأنجد، وإنّ بلادكم لأوسع من بلادهم وأموالكم أكثر من أموالهم...»[3]. وكانت حركة مسيلمة في أحد جوانبها انتصاراً لربيعة ضد مضر: «... عن عمير بن طلحة النّمري عن أبيه أنّه جاء اليمامة فقال: أين مسيلمة ؟ قالوا: مه رسول اللّه ! فقال: لا حتّى أراه، فلمّا جاءه قال: أنت مسيلمة ؟ قال: نعم، قال: من يأتيك ؟ قال: رحمن، قال: أفي نور أو في ظلمة ؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنّك كذّاب وأنّ محمّداً صادق، ولكنّ كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر. فقُتل معه يوم

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ١٣٤.
(٣) الواقدي: **كتاب الردّة**، ص ١٠٨.

عقرباء»[١]. وتذكر رواية ثانية أنّ طلحة النّمري «قال: كذّاب ربيعة أحبّ إليّ من كذّاب مضر...»[٢]. أرادت قبائل ربيعة أن يكون لها نبيّها حتّى تتفادى الوقوع تحت نفوذ نبيّ مضر، وأراد أهل اليمامة أن يكون لهم حرم على غرار أهل مكّة، فيستفيدون من تعظيم العرب له.

خاتمة

كانت بلاد اليمن وبلاد اليمامة تتمتّعان بمستوى كبير من الرّخاء المادي مقارنة بمنطقة الحجاز، واختار قسم كبير من أهالي هاتين المنطقتين الدّخول في دين محمّد وحلفه من دون أن يتعرّضوا لضغط عسكري قويّ، وبعد فترة قصيرة اختار فريق منهم مفارقة دين "نبيّ مضر". قاد حركة الردّة في اليمن الأسود العنسي، وقاد حركة الردّة في اليمامة مسيلمة بن حبيب، وكان كلاهما يدّعي النّبوّة، واستطاع نبيّا اليمن واليمامة تحقيق انتصارات عديدة. اجتمع حولهما كثير من الأتباع والأنصار، وسيطرا على مساحات شاسعة من الأرض.

كانت الأهداف السّياسيّة المباشرة غالبة على مقالات الأسود العنسي ومسيلمة بن حبيب، وكانت حركتاهما محاولة للاستقلال عن يثرب ورفضاً للخضوع للغرباء وانحيازاً لذوي القربى ومحاولة للنسج على منوال محمّد الذي استطاع بنبوّته أن يبسط نفوذه على قسم كبير من جزيرة العرب وبلاد الشام. ولم تمثّل حركة الأسود العنسي وحركة مسيلمة بن حبيب تهديداً مباشراً للكيان الإسلامي المتأسّس في يثرب، ولهذا اختار محمّد مواجهة أعدائه في جنوب الجزيرة العربيّة وشرقها عبر سياسة الرّسائل، ووجّه طاقاته العسكريّة نحو بلاد الشّام. استطاع الأسود العنسي تحقيق انتصارات عديدة، ولكنّها لم تعمّر طويلاً، وقُتل على أيدي أصحابه المقرّبين، وسيتكفّل أتباع محمّد بعد وفاته بإنهاء حركة مسيلمة بن حبيب.

---

(١) الطّبري: **تاريخ الأمم والملوك**، م ٣، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) نفسه، م ٣، ص ١٣٦.

خاتمة الباب الثاني

يقيم أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب في مساحات شاسعة تمتدّ على معظم جزيرة العرب وقسم من بلاد الشّام، وينقسمون إلى مجموعات كثيرة قائمة على عدّة معطيات هي قرابة الدّم ووحدة المعتقد الدّيني والنّزول في فضاء واحد. كان أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب من الوثنيين ومن أهل الكتاب يهوداً ونصارى، وكانوا من أهل البوادي ومن أهل القرى، وتمثّلت أنشطتهم المعادية لمحمّد في الأنشطة العسكريّة بصفة خاصة، وتحرّكوا في مجموعات متفاوتة الحجم بعضها يتكوّن من عدّة أنفار والبعض الآخر يضمّ آلاف المقاتلين. وكانت بينهم وبين أتباع محمّد وقائع عديدة تتراوح بين المناوشات الصّغيرة والمواجهات الكبرى، وتزعّم أنشطة أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب عدد من الأسياد والفرسان والمتنبّئين.

تعرّف أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب على دينه على هيئة كيان سياسي آخذ في التوسّع، فتحرّكوا ضدّه للدّفاع عن استقلال قبائلهم وقراهم وأوطانهم ولحماية مقدّساتهم ولتحقيق مكاسب اقتصاديّة، واستطاعوا أن يحقّقوا انتصارات جزئية، لكنّهم لم يستمروا طويلاً على حرب محمّد، وانتهى معظمهم إلى الدّخول في دينه وحلفه. خيّر محمّد أهل الكتاب منهم بين الدّخول في دينه أو دفع الجزية، وألزم الوثنيين منهم بالدّخول في دينه.

ظهر أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب في مناطق متباعدة وفي سياقات متباينة، ولم يكوّنوا جبهة واحدة، ولم يتحرّكوا في زمن واحد، وكانت لهم بمحمّد وأتباعه علاقات مختلفة. كان معظم أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب إلى حدود سنة تسع للهجرة ينزلون بالحجاز وجنوب بلاد الشّام، وكانت ديارهم قريبة من يثرب، ولذلك شكّلت أنشطتهم خطراً كبيراً على الكيان الإسلامي، وفي آخر زمن النّبوّة كان معظم أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب ينزلون في اليمن واليمامة وبلاد الشام، لذلك استهدفت أنشطتهم أتباعه وعمّاله.

كانت طريقة أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب في معاداته محكومة بعدّة معطيات تشمل جوانب عديدة من حياتهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والدّينيّة. كانوا يتوزّعون على عدّة كيانات صغيرة بينها تاريخ طويل من الحروب والعداوات، لذلك لم يجتمعوا على

محاربة محمّد، وكانت تحالفاتهم القليلة هشّة ولم تستمر طويلاً، وكانوا يفتقرون إلى مؤسّسات قويّة، ولم تكن لهم تجربة سياسيّة عميقة. وكان الوجود القبلي القائم على أساس القرابة الدمويّة هو الأكثر حضورا بينهم لغلبة حياة البداوة عليهم، فالقرى التي كانوا ينزلون فيها قليلة وصغيرة وخاضعة في أغلبها لقبيلة واحدة أو تتقاسمها عدّة قبائل. ومن النّاحية الاقتصاديّة كان معظم أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب يعوّلون في تحصيل رزقهم على الرّعي في مناطق قاحلة قليلة الأمطار، فكانوا يعيشون في شظف وخصاصة. وكانوا في كثير من أنشطتهم العسكريّة ضد محمّد يواصلون عادة قديمة في الإغارة والنّهب، واعتمد أهل القرى منهم في تحصيل معاشهم على التجارة والنّشاط الزّراعي، وكانت القوافل التجاريّة تعبر مسافات طويلة في الفيافي والصحاري، وهذا ما جعلها هدفاً سهلاً لقطاع الطرق والأعداء. أمّا الزّراعة فكانت تتمّ في مساحات ضيّقة وبموارد مائية قليلة ومهدّدة بالنّضوب، ولهذا ظلّت القرى الزّراعيّة صغيرة تعتمد على أهل البوادي لحمايتها مقابل جزء من إنتاجها، ولمّا تخلّى عنها حماتها لم تستطع أن تصمد طويلاً أمام محمّد. ومن النّاحية الدينيّة كان أغلب أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب من الوثنيين يعبدون عدّة آلهة ويعظّمون الكعبة، وكانت هذه الدّيانة تفتقر إلى مؤسّسات قويّة قادرة على جمع النّاس وتعبئتهم، ولذلك لم يلعب رجال الدّين من الكهّان وسدنة الآلهة وحجّابها دوراً كبيراً في ترؤس الأنشطة المعادية لمحمّد. أمّا اليهود فكانوا موزّعين بين عدّة قرى صغيرة تعتمد على النّشاط الزّراعي والتجارة، واستطاع سادتهم من الأحبار وكبار رجال الدّين أن يصدّوا بأغلب أتباعهم عن دين محمّد، ولكنّهم لم يتوحّدوا لمواجهته، فاستطاع أن يهزمهم. وعلى عكس اليهود الذين كانوا مستقلّين في كيانات خاصة بهم، كان النّصارى موزّعين بين القبائل، ولم تكن لهم مؤسّسات قويّة، ولهذا لم تلعب المسيحيّة دوراً مهمّاً في توجيه الحركة المعادية لمحمّد. أمّا المتنبئون فلم ينجحوا في تأسيس عقائد دينيّة عميقة قادرة على حشد النّاس وتعبئتهم، وكانت المشاغل السّياسيّة المباشرة هي الطاغية على مقالاتهم.

استطاع محمّد أن يستفيد من تشتّت أعدائه خارج مكّة ويثرب، وواجه كلّ مجموعة على حدة، واستطاع الصّمود في واقعة الخندق التي شهدت تحالفاً بين أهل مكّة وعدد من القبائل البدويّة، وبعد أن غلب على مكّة وفضّ جموع هوازن يوم حنين دخل معظم عرب الحجاز في دينه، وأصبح أعداؤه بعيدين عن يثرب ولا يشكّلون تهديداً مباشراً للكيان الإسلامي، ولهذا لم يرسل محمّد جيشاً لمواجهة المتنبّئين في اليمن واليمامة، وأرسله إلى بلاد الشّام.

خاتمة عامة

لم تكن حياة محمّد قبل إعلانه نبوّته تنبئ بأنّ له شأناً عظيماً. فهو لم يكن من أثرياء مكّة وسادتها ولا من فرسان العرب، وكان يتيماً وبلا إخوة، ولم يكن له من الأطفال سوى البنات. بدأ محمّد تجربته النّبويّة في سنّ متأخّرة، وقضى القسم الأعظم من عهد نبوّته في مكّة حيث لم يعرف سوى نجاح جزئي. لكن استطاع محمّد بعد أن انتقل إلى يثرب أن يحقّق في ظرف سنوات قليلة نجاحاً كبيراً، إذ خضعت له أغلب مناطق جزيرة العرب وقسم من بلاد الشّام، وتبعه عدد هائل من النّاس، والتفّ حوله أتباع مخلصون، وأصبح "سيّد العرب" بلا منازع، ولعب أدواراً مختلفة، فكان داعية ومنذراً وقائداً عسكريّاً وقائداً سياسيّاً. وواجه محمّد طيلة فترة نبوّته أنشطة معادية كثيرة معلنة وخفيّة استهدفته واستهدفت أتباعه وأقاربه واتّخذت أشكالاً عديدةً.

مرّ صراع محمّد ضدّ أعدائه بمراحل عديدة، وعرف أحداثاً متنوّعة، واستطاع أعداؤه أن ينتصروا عليه في عدّة معارك ومواجهات، وآذوه في مناسبات عديدة، ونالوا من أتباعه ومن آل بيته، وتوفّي محمّد وأتباعه في حالة مواجهة ضدّ أعدائه في أكثر من جبهة. واستطاع أتباع محمّد من بعده أن ينشروا دينه، ومكّنوه من أسباب البقاء، وتأسّست حول دينه حضارة ودول، وتناقل أتباعه من بعده أخبار سيرته وسيرة أصحابه. أمّا أعداء محمّد فلم يكن لهم أتباع يحتفظون برواياتهم، فجلّ المصادر التي تورد أخبار محمّد مع أعدائه هي مصادر تشكّلت ضمن الحضارة الإسلاميّة، وتشكّلت رواية صراع محمّد مع أعدائه وفق نزعتين متناقضتين: نزعة أولى تتمثّل في تضخيم مكانة أعداء محمّد لتعظيم ما كابده السّلف الصّالح من عناء لتأسيس الإسلام والذّب عنه، ونزعة ثانية تتمثّل في التقليل من شأن أعداء محمّد للتهوين من الصّعوبات التي واجهها الإسلام المبكّر. واتّخذ الرّواة موقف إدانة من أعداء محمّد، وعبّروا عن ذلك بصريح اللّفظ، فلعنوهم في أحيان كثيرة، وذمّوا أعمالهم، ولم يمنعهم هذا الموقف من إيراد أخبار تحمل تمجيداً ضمنيّاً لأعداء محمّد ممّا يدلّ على تفاوت الوعي الدّيني عند المسلمين زمن التّدوين.

لم يمثّل أعداء محمّد مجموعة واحدة، وإنّما هم مجموعات كثيرة متفاوتة القوّة

ظهرت في أزمنة مختلفة ونشطت في أماكن متباعدة، فعندما كان محمّد في مكّة عاداه عدد من أسيادها، وبعد هجرته إلى يثرب وإلى زمن واقعة حنين وحصار الطّائف كان معظم أعداء محمّد من أهل قرى الحجاز وبواديه، وفي زمن متأخّر من عهد النّبوّة ظهرت أكثر الحركات المعادية لمحمّد شدّة في الشام واليمن واليمامة.

ينزل معظم أعداء محمّد جزيرة العرب، ويقيم قسم صغير منهم في بلاد الشّام. وما يجمع بين معظم أعداء محمّد أنّهم من العرب، ولا يشكّل اختلاف لهجاتهم عائقاً عن الفهم المتبادل. وشارك في حركة معاداة محمّد أتباع ديانات مختلفة، وكان القسم الأعظم من أعداء محمّد من الوثنيين، وشارك أغلب يهود الحجاز في حركة معاداة محمّد، وكان النّصارى أقلّ أتباع الدّيانات الكبرى الموجودة بالجزيرة العربيّة عداء لمحمّد.

تحرّك أعداء محمّد ضدّه بشكل فردي وبشكل جماعي، وكانوا أنفاراً قلائل وجيوشاً كبيرة العدد، تحرّكوا ضدّه في البداية بسبب مقولاته الدّينيّة، وفي مرحلة ثانية تحرّكوا ضدّه بسبب تنامي نفوذه السّياسي في يثرب وبسبب تنامي كيانه السّياسي خارجها، وانتهت أغلب الحركات المعادية إلى دخول أصحابها في دين محمّد باستثناء اليهود. رضي محمّد من أهل الكتاب بدفع الجزية، وأعلن على الوثنيين حرباً شاملة، وألزمهم بالدّخول في دينه.

كانت حركة معاداة محمّد محكومة بعدّة معطيات تمسّ خصائص الجزيرة العربيّة وخصائص نبوّة محمّد. شكّلت الجزيرة العربيّة زمن نبوّة محمّد كياناً ثقافيّاً واحداً يتأسّس على وحدة اللغة ووحدة الدّين، فاللّغة العربيّة غلبت زمن نبوّة محمّد على اليمن، وانقرضت اللّغة الحميريّة ويُفسّر ابن دريد ذلك بقوله: «... إنّ هذه الأسماء الحميريّة لا تقف لها على اشتقاق لأنّها لغة قد بعُدت وقدُم العهد بمن كان يعرفها»[1]. وكان أغلب سكّان الجزيرة العربيّة على الوثنيّة، وعظّم العرب آلهة عديدة، واجتمعوا على تعظيم الكعبة، وأُجهضت كلّ محاولة لبناء حرم يمكن أن يشكّل منافساً لها.

كان أغلب سكان جزيرة العرب على دين واحد ويتكلّمون لغة واحدة، وكان ذلك عاملاً مساعداً على خضوعها لنفوذ محمّد. وكان لدى العرب وعي بأنّهم " أمّة واحدة "، وكانت لهم رغبة خفيّة في بناء دولة عربيّة توازي دولة الفرس ودولة الرّوم، وكانت واقعة ذي قار التي هزمت فيها بعض القبائل العربيّة الفرس موضع فخر العرب، فهي أوّل يوم انتصفوا فيه من العجم، وكانت علاقة القبائل العربيّة الواقعة على التّخوم

---

(١) ابن دريد: **الاشتقاق**، ص ٥٣٣.

سيّئة مع الفرس والرّوم، وعمل محمّد على إذكاء رغبة العرب في اللّحاق بالأمم المزدهرة، وأعاد تذكيرهم باستمرار بالممالك العربيّة المنسيّة التي ازدهرت في الماضي وخاضت مواجهات ضد قوى أعجميّة.

كان العرب يشكّلون "أمّة ثقافيّة" تقوم على وحدة اللّغة ورصيد وافر من الشّعر، ولم يكن العرب زمن نبوّة محمّد ينتظمون ضمن كيانات سياسيّة. وكان الوجود القبلي هو الغالب، إذ انتهت عملياً هيمنة الفرس على اليمن قبل أن يبسط محمّد نفوذه عليه، وقبل ظهور محمّد بمدّة زمنيّة قصيرة قضى الرّوم على مملكة الغساسنة بالشام، وقضى الفرس على مملكة اللّخميين بالحيرة. نشر محمّد دعوته، وأسّس كيانه السّياسي خارج دائرة نفوذ الفرس والرّوم، وكان أغلب أعدائه ينتظمون ضمن قبائل، ولم تكن في الجزيرة العربيّة زمن نبوّة محمّد دولة مركزيّة، وكانت بلاد العرب تفتقر إلى وجود مؤسّسات قويّة قادرة على جمع النّاس، فالوثنيّة دين العرب "الرّسمي" لم تعرف نشوء طبقة قويّة من رجال الدّين قادرة على تعبئة النّاس وتوجيه حركتهم، ولم توجد في جزيرة العرب وجنوب بلاد الشام مؤسّسات مسيحيّة قويّة، ولم يكن النّصارى العرب مرتبطين بالإمبراطوريّة البيزنطيّة، وكان اليهود في جزيرة العرب وجنوب بلاد الشّام موزّعين على كيانات صغيرة، ولم يتوحّدوا لمواجهة محمّد. عادى فريق من العرب محمّداً لأسباب عديدة، وعملوا على إلحاق الأذى به وتقويض مشروعه، وكانت بلاد العرب تفتقر إلى مؤسّسات قويّة، فلم يستطيعوا أن يشكّلوا حركة منظّمة ضدّه، ولهذا السّبب وجد محمّد عنتاً كبيراً في توحيد أتباعه وجمعهم حول مشروع سياسي واحد، وظلت القبائل البدويّة الدّاخلة في دينه غير منضبطة.

لم يقطع محمّد مع موروث العرب الدّيني والأخلاقي والاجتماعي، وتبنّى جزءاً غير قليل منه، إذ «كانت العرب في جاهليتها تحرّم أشياء نزل القرآن بتحريمها...»[١]. كانت رسالة محمّد في أفق انتظار العرب، لذلك صدّقه عدد كبير منهم، وشاركوه في تأسيس الإسلام والذّب عنه، فالعرب «لا يحصل لهم الملك إلاّ بصبغة دينيّة من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدّين على الجملة. والسّبب في ذلك أنّهم لخلق التّوحّش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمّة والمنافسة في الرّئاسة، فقلّما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدّين بالنّبوّة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم...»[٢]. استطاع محمّد أن يحدّ من فاعليّة العصبيّة القبليّة بما جاء به من قيم دينيّة، واستطاع أن يستثمر

---

(١) الشّهرستاني: **الملل والنّحل**، ص ٥٠١. (٢) ابن خلدون: **المقدّمة**، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

العصبيّة القبليّة لصالحه، فحمته عشيرته، وتحمّس كثير من العرب لمشروعه السّياسي، ونصروه قبل أن يؤمنوا بنبوّته، يقول ابن خلدون: «... إنّ الدّعوة الدّينيّة من غير عصبيّة لا تتمّ»[1].

كانت للحركة المعادية لمحمّد تأثيرات كبيرة مسّت جوانب مختلفة من دينه. فبسبب عداوة اليهود نأى الإسلام عن اليهوديّة، وتصالح مع الموروث الجاهلي، ولأنّ المجتمع الإسلامي الأوّل كان في حالة حرب متواصلة على جبهات عديدة تضخّمت مكانة محمّد بين أتباعه، واقترنت النبوّة بالقيادة السّياسيّة والحربيّة، وبسبب الانشغالات الحربيّة حاز الرّجل المحارب المكانة الأولى على حساب المرأة التي جرى التّضييق عليها والحدّ من حضورها في الفضاءات العامة. واتّخذ الارتداد عن دين محمّد معنى الخيانة والتمرّد لارتباطه بنكث العهود ومفارقة الجماعة المسلمة. أمّا على مستوى العبادات فبسبب كثرة المشاغل الحربيّة سنّ محمّد لأتباعه صلاة الخوف، وأسقط عنهم الصّوم عند السّفر.

واجه محمّد صعوبات كثيرة، وخاض مواجهات عديدة، ولم يضيّعه قومه، وكان نبيّاً بينهم، وتبنّى محمّد جزءاً كبيراً من تراث قومه، وتصالح معهم.

---

(١) نفسه، ص ١٧٥.

التعريف بالمصطلحات

ـ **الأبناء**: اسمٌ يطلق على العناصر الفارسيّة التي أقامت في بلاد اليمن التي خضعت للنفوذ الفارسي منذ سنة ٥٧٥ للميلاد بعد أن كانت خاضعة لنفوذ أهل الحبشة.

ـ **الأحابيش**: تحالفٌ لعشائر بدويّة صغيرة تنحدر من أصول مختلفة وتنزل قريباً من مكّة، هي في أشهر الرّوايات عضل وديش والقارة (الهون بن خزيمة) والحيا والمصطلق (خزاعة) والحارث بن عبد مناة (كنانة). ويستشفّ من الأخبار أنّ هذا التّحالف قام على مبدأ شدّة تعظيم الكعبة، وتولّى الأحابيش حماية الحرم المكّي، وكانوا مع رجال قريش في حربهم ضد محمّد.

ـ **الأزلام**: القداحُ التي يستقسمون بها لاتّخاذ قرار في أمور عديدة مثل النّكاح أو السّفر أو تحديد نسب...

ـ **الأشهر الحرام**: أربعة أشهر (رجب، ذو القعدة، ذو الحجّة ومحرّم) كانت الكثير من القبائل العربيّة تكفّ فيها عن الإغارة، وفيها تجري عديد الشّعائر الدّينيّة المرتبطة بالكعبة من عمرة وحجّ.

ـ **الإيلاف**: صيغةُ تعاقدٍ تمّت بين أسياد قريش وعدد من القبائل البدويّة النازلة على طريق قوافل مكّة نحو الشام واليمن لحماية تجارة أهل مكّة والحيلولة دون تعرّضها للإغارة.

ـ **البسل**: ثمانية أشهر حرم لبني مرّة (غطفان) من كلّ سنة، فيها لا يتعرّضون للإغارة.

ـ **الجرّار**: الرّجل الذي يترأس جيشاً من ألف مقاتل.

ـ **جماجم العرب**: قبائل العرب الكبيرة التي تتفرّع إلى عدّة بطون.

ـ **حلف الفضول**: حلفٌ ظهر في مكّة في آخر عهد الجاهليّة، وضمّ عدّة عشائر قرشيّة هي هاشم والمطّلب وأسد بن عبد العزّى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرّة، وقام على مبدأ نصرة كلّ مظلوم بمكّة من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر النّاس.

ـ **حلف مذاب**: تحالفٌ جمع عدّة قبائل وعشائر يمنيّة لمواجهة الأبناء حكّام بلاد

اليمن زمن خضوعها للسّيطرة الفارسيّة التي بدأت سنة ٥٧٥ للميلاد.

ـ **الحمس والحلّة**: تقسيمٌ ظهر في آخر عهد الجاهليّة، يميّز بين طريقتين في آداء الحجّ والعمرة، فقد ترك الحمس الوقوف على عرفة والإفاضة منها والتزموا بعدّة ضوابط مثل إتيان البيوت من ظهورها والامتناع عن عدّة أنواع من الطّعام... وواصل الحلّة الوقوف على عرفة والإفاضة منها، ومُنعوا من أكل طعام جاؤوا به من خارج الحرم أو الطّواف بثياب جاؤوا بها من خارج الحرم. الحمس قريش وكلّ من ولدت قريش من العرب وكلّ من نزل مكّة من قبائل العرب.

ـ **دار النّدوة**: دارٌ أحدثها قصي بن كلاب بمكّة، كان شيوخ مكّة يجتمعون فيها للمشورة والرأي، وكانت تجري فيها بعض طقوس العبور مثل الزّواج وتدرّع الفتيات عند بلوغهن.

ـ **ذوات الرّايات**: البغايا، كنّ يجعلن على مساكهن رايات حمراء.

ـ **الضّافطة**: تجّار الميرة والطّعام.

ـ **المطيّبون والأحلاف**: بعد وفاة قصي بن كلاب اختلف أبناؤه حول العديد من الوظائف السّياسيّة والرّمزيّة (الحجابة واللّواء والسّقاية والرّفادة) التي كانت له، وانقسمت عشائر قريش إلى فريقين: فريق المطيّبين الذي يضمّ بني عبد مناف وبني أسد بن عبد العزّى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرّة وبني الحرث بن فهر، وفريق الأحلاف الذي يضمّ بني عبد الدّار وبني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي بن كعب.

ـ **النّسيء**: زيادة عشرة أيّام للسّنة القمريّة لتتساوى مع السّنة الشّمسيّة. من المرجّح أنّ هذه البدعة ظهرت مع تنامي أهميّة التجارة في جزيرة العرب، وكانت الغاية منها تجنّب إقامة الأسواق والمواسم في زمن القيظ الشّديد أو الرّياح العاتية.

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر

* ابن الأثير، عزالدّين (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م): **الكامل في التّاريخ**، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٦٥.

* ابن إسحاق، محمّد (ت ١٥١ هـ / ٧٦٨ م): **كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي**، تحقيق وتعليق محمّد حميد اللّه، تقديم الأستاذ محمّد الفاسي، معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب ـ الرّباط، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦ م.

* ابن بكّار، الزّبير (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م): **الأخبار الموفّقيات**، تحقيق الدّكتور سامي مكّي العاني. عالم الكتب للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت ـ لبنان ط ٢، ١٤١٦ / ١٩٩٦ م.

* ابن ثابت، حسّان (ت ٥٤ هـ / ٦٧٤ م): **الدّيوان**، حقّقه وعلّق عليه وليد عرفات ـ دار صادر، بيروت ١٩٧٤.

* ابن حبيب، محمّد (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م): **كتاب المحبّر**، اعتنت بتصحيح هذا الكتاب الدّكتورة ايلزه ليختن شتيتر. دار الآفاق الجديدة، بيروت (د. ت).

* نفسه: **كتاب المنمّق**، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه خورشيد أحمد فاروق. مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند ط ١ : ١٩٦٤ م.

* ابن حزم الأندلسي: (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م): **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق وتعليق عبد السّلام محمّد هارون، دار المعارف، ط ٥ (د. ت).

* ابن خلدون، عبد الرّحمن بن محمّد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م): **المقدّمة**، مؤسّسة باباي ـ تونس/ دار الجيل ـ لبنان، (د. ت).

* ابن دريد، أبو بكر محمّد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م): **الاشتقاق**، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، النّاشر مكتبة الخانجي بمصر، ط ٣ (د. ت).

* ابن سعد، محمّد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م): **الطبقات الكبرى**، دار صادر بيروت (د ت).

* ابن سلاّم، أبو عبيد (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م): **كتاب الأموال**، مؤسّسة ناصر للثقافة ـ بيروت، لبنان، ط ١ : ١٩٨١.

* ابن سيّد النّاس، أبو الفتح محمّد بن محمّد (ت ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م): **عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسّير**، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٦ هـ.

* ابن عبد البرّ ، محمّد (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م): **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق علي محمّد البجاوي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر (د. ت).

* ابن عبد ربّه، أحمد بن محمّد (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م): **العقد الفريد**، تحقيق وتعليق بركات يوسف هبّور. شركة الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ـ لبنان، ط ١ : ١٤٢٠ / ١٩٩٩ م.

* ابن العربي، أبو بكر محمّد بن عبد اللّه المعافري (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م): **أحكام القرآن**، دار إحياء الكتب العربيّة، ط ١: ١٩٥٧ م.

* ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن إبراهيم (ت ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م): **مختصر كتاب البلدان**، بريل، ليدن ١٩٢٧.

* ابن قتيبة، أبو محمّد عبد اللّه (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م): **الشّعر والشّعراء**، تحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة ١٣٦٤ هـ.

* نفسه: **المعارف**، حقّقه وقدّم له دكتور ثروت عكاشة، دار المعارف مصر، ط ٢ (د ت).

* ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م): **البداية والنّهاية**، مكتبة المعارف (بيروت) مكتبة النّصر (الرّياض)، ط ٢ : ١٩٧٨ م.

* ابن الكلبي، هشام بن محمّد بن السّائب (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م): **كتاب الأصنام**، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصريّة، ط ٢ : ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م.

* ابن ماجة، أبو عبد اللّه محمد بن يزيد (ت ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م): **السّنن**، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي (د ت).

* ابن المجاور (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م): **صفة بلاد اليمن ومكّة وبعض الحجاز المسمّاة تأريخ المستبصر**، اعتنى بتصحيحها وضبطها أوسكر لوفغرين، بريل، ليدن ١٩٥١ م.

* ابن هشام، أبو محمّد عبد الملك (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م): **السّيرة النّبويّة**، تحقيق وتعليق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود، علي محمّد معوّض، فتحي عبد الرّحمن أحمد حجازي. مكتبة العبيكان، الرّياض، ط ١ : ١٩٩٨ م.

* أبو عبيدة، معمر بن المثنّى (ت ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م): **كتاب النّقائض**، مطبعة بريل ـ ليدن ١٩٠٥.

* الأزرقي، أبو الوليد محمّد بن عبد اللّه بن أحمد (ت ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م): **أخبار مكّة**، طبعة جديدة، صحّحها وعلّق حواشيها ووضع فهارسها رشدي الصّالح ملحسن، الطبعة الماجديّة، مكّة المكرّمة، ج ١ : ١٣٥٢ هـ، ج ٢ : ١٣٥٧ هـ.

* الأصفهاني، أبو الفرج (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م): **كتاب الأغاني**، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ عبدا علي مهنّا، الأستاذ سمير جابر، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان ط ٢: ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

* البخاري، محمّد بن إسماعيل بن ابراهيم (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م): **الصّحيح**، عالم الكتب بيروت (د ت).

* البغوي، أبو محمّد الحسين بن مسعود الفرّاء (ت ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م): **تفسير البغوي**، بهامش تفسير الخازن، مطبعة مصطفى محمّد ـ مصر (د ت).

* البكري، عبد اللّه بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م): **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقّا، عالم الكتب، بيروت (د ت).

* البلاذري، أبو العبّاس أحمد (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م): **جمل من أنساب الأشراف**، حقّقه وقدّم له سهيل زكّار، رياض زركلي، دار الفكر ـ لبنان، ط ١ : ١٩٩٦ م.

* نفسه: **فتوح البلدان**، دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان ١٩٨٨ م.

* البيروني، أبو الرّيحان محمّد بن أحمد (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م): **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلميّة ـ بيروت لبنان، ط١: ٢٠٠٠ م.

* الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م): **الرّسائل**، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

* نفسه: **كتاب الحيوان**، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، دار الكتاب العربي ـ بيروت (د ت).

* الحلبي، أبو الفرج نور الدّين علي بن إبراهيم بن أحمد (ت ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م): **السّيرة الحلبيّة**، ضبطه وصحّحه عبد اللّه محمّد الخليلي، دار الكتب العلميّة بيروت ـ لبنان، ط ١ : ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.

* الدّيار بكري، حسين بن محمّد بن الحسين (ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م): **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، مؤسّسة شعبان للنّشر والتّوزيع ـ بيروت (د ت).

* الذّهبي، شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م): **سير أعلام النّبلاء**، تحقيق صلاح الدّين المنجّد، معهد المخطوطات العربيّة بجامعة الدّول العربيّة، دار المعارف بمصر (د ت).

* الرّازي (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م): **تاريخ مدينة صنعاء**، حسين بن عبد اللّه العمري، صنعاء، الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة، ط ٢ : ١٩٨١ م.

* الرّازي، فخر الدّين (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م): **التّفسير الكبير**، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط ٣ (د ت).

* الزّبيري، أبو عبد اللّه المصعب بن عبد اللّه بن المصعب (ت ٢٣٦ هـ/ ٨٥٠م): **كتاب نسب قريش**، عني لنشره لأوّل مرّة وتصحيحه والتّعليق عليه ليفي بروفنسال، دار المعارف للطباعة والنّشر، ط ٣ (د ت).

* الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م): **تاريخ بغداد**، مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ

المكتبة العربيّة ببغداد ١٩٣١

* السّمرقندي، نصر بن محمّد بن إبراهيم (ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م): **بستان العارفين** بهامش كتاب **تنبيه الغافلين**، لنفس المؤلّف المطبعة الخيريّة، مصر، ط ٣، سنة ١٣١٩ هـ.

* السّمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمّد بن منصور التّميمي (ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م): **الأنساب**، اعتنى بتصحيحه والتّعليق عليه الشّيخ عبد الرّحمن بن يحيى المعلّمي اليماني، دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد ـ الدّكن ـ الهند ط ١ : ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م.

* السّمهودي، أحمد الحسيني الشّافعي (ت ١٠١١ هـ / ١٦٠٢ م): **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلّم**، مطبعة الآداب، مصر ١٣٢٦ هـ.

* السّهيلي، عبد الرّحمن (ت ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م): **الرّوض الأنف في شرح السّيرة النّبويّة لابن هشام**، تحقيق وتعليق وشرح عبد الرّحمن الوكيل. دار النّصر للطباعة ـ القاهرة ـ ط ١ : ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.

* السّيوطي، جلال الدّين عبد الرّحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م): **الإتقان في علوم القرآن**، دار قهرمان اسطنبول ـ تركيا، ط ٤ : ١٩٧٨ م.

* الشّبلي، محمّد بن عبد الله (ت ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م): **محاسن الوسائل**، تحقيق الدّكتور محمّد ألتونجي، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط ١ : ١٩٩٢ م.

* الشهرستاني، أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م): **الملل والنّحل**، دار الفكر للطّباعة والنشر (د ت).

* الصّنعاني، أبو بكر عبد الرزّاق بن همّام (ت ٢١١ هـ / ٨٢٦ م): **المصنّف**، عني بتحقيق نصوصه حبيب الرّحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، ط ١ :١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.

* الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م): **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق وتعليق عبدا علي مهنّا، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ط١: ١٩٩٨م.

* نفسه: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، بيروت، ط ١ : ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.

* القالي، أبو علي إسماعيل بن عيضون (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م): **ذيل الأمالي والنّوادر**، دار الجيل ـ دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢ : ١٩٨٧م.

* **القرآن الكريم**

* القرشي، أبو زيد محمّد بن أبي الخطّاب (ت ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م): **جمهرة أشعار العرب في الجاهليّة والإسلام**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١ (د ت).

* المرزوقي، أحمد بن محمّد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م): **كتاب الأزمنة والأمكنة**، مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٣٣٢ م.

* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، عني بتنقيحها وتصحيحها شارل بلا، طبعة بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي بيروت ١٩٧٠.

* مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م): **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١ : ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣م.

* المقريزي، تقي الدّين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م): **إمتاع الأسماع بما للرّسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع**، صحّحه وشرحه محمود محمّد شاكر، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة ١٩٤١ م.

* النّيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م): **الصّحيح**، تحقيق وتصحيح وتعليق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، ط ١ : ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م.

* الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد (ت ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م): **أسباب النّزول**، دار الهلال، بيروت ١٩٩١ م.

* الواقدي، محمّد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م): **كتاب المغازي**، تحقيق مارسدن جونس، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م.

* نفسه: **كتاب الردّة**، رواية أحمد بن محمّد بن أعثم الكوفي المتوفّى سنة ٣١٤ هـ، تحقيق الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.

* ياقوت الحموي، شهاب الدّين أبو عبد اللّه (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت ١٩٩٥.

* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م): **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر، بيروت، ط ٦: ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

٢ ـ المراجع

أ ـ المراجع العربيّة

ـ الكتب:

* بالحاج صالح العايب (سلوى): **المسيحيّة العربيّة وتطوّراتها من نشأتها إلى القرن الرّابع الهجري / العاشر الميلادي**، دار الطليعة بيروت ـ لبنان، ط ٢، ١٩٩٨.

* بيغوليفسكيا (نينا فكتورفنا): **العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرّابع إلى القرن السّادس الميلادي**، نقله عن الرّوسيّة صلاح الدّين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٥ م.

* جعيط (هشام): **الشخصيّة العربيّة الإسلاميّة**، نقله إلى العربيّة المنجي الصيّادي، وقام

المؤلّف بتدقيقه وتنقيحه، دار الطليعة للطّباعة والنّشر، بيروت ـ لبنان، ط ٢، ١٩٩٠.

* نفسه: **الفتنة. جدليّة الدّين والسّياسة في الإسلام المبكّر**، ترجمة: خليل أحمد خليل بمراجعة المؤلّف، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت ـ لبنان، ط ٢، ١٩٩٣.

* نفسه: **الوحي والقرآن والنّبوّة**، دار الطّليعة، بيروت ـ لبنان، ط ١، ١٩٩٩.

* الحديثي (نزار عبد اللّطيف): **أهل اليمن في صدر الإسلام دورهم واستقرارهم في الأمصار**، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر (د ت).

* حميد اللّه الحيدر آبادي (محمّد): **مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة**، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م.

* سحّاب (فكتور): **إيلاف قريش رحلة الشّتاء والصّيف**، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدّار البيضاء، ط ١، ١٩٩٢.

* الشّرفي (عبد المجيد): **الإسلام بين الرّسالة والتّاريخ**، دار الطّليعة، بيروت ـ لبنان ط١، ٢٠٠١.

* شلحد (يوسف): **بنى المقدّس عند العرب**، تعريب خليل أحمد خليل، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت ـ لبنان، ط ١، ١٩٩٦.

* عمامو (حياة): **أصحاب محمّد ودورهم في نشأة الإسلام**، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٦.

علي (جواد): **تاريخ العرب قبل الإسلام**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦.

* وات (مونتغمري): **الفكر السّياسي الإسلامي ـ المفاهيم الأساسيّة**، ترجمة صبحي حديدي، دار الحداثة، ط ١، ١٩٨١.

* اليعقوبي (مراد): **القبائل العربيّة الشّماليّة وعلاقتها بدولة المدينة في عهد الرّسول محمّد**، شهادة دكتوراه دولة، بحث مرقون بكلّية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، تونس.

ـ الدّوريات:

* الجوادي (محمّد): «بدو الحجاز وعلاقتهم بمحمّد من ظهور الإسلام إلى فتح مكّة سنة ٨ هـ)، مجلة **إبلا**، السنة ٥٩، العدد ١٧٨، ١٩٩٦ (تونس)، ص ص ٦٧ ـ ٩٠.

* المناعي (مبروك): «في صلة الشّعر بالسّحر»، **حوليات الجامعة التّونسيّة**، العدد ٣١، ١٩٩٠، ص ص ٣٩ ـ ٧٧.

ب ـ المراجع الأعجمية

ـ الكتب :

* Blachère (R): *Le Coran traduction selon un essai de reclassement des sourates*, G. P Maisonneuve, 1949 - 1951.

* Bosworth (C. E): Art «Djudham», in *E I 2*, T II, Brill / Maisonneuve et Larose, 1977.

* Buhl (Fr): Art «Mu'ta», in *E I 2*, T VII, Leiden - New York / Paris, 1993.

* Daghfous (R): *le Yaman islamique des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes*, Université de Tunis I, 1995.

* Diehl (Ch), Marçais (G): *Le monde oriental de 395 à 1081*, Les presses universitaires de France, Paris, 1936.

* Fuck (J. W): Art «Ghatafan», in *E I 2*, T II, Brill / Maisonneuve et Larose, 1977.

* Kindermann (H): Art «Rabi'a et Mudar», in *E I 2*, T VIII, Leiden, 1995.

* Lammens (H): *L'Arabie occidentale avant l'Hégire*, Imprimerie catholique Beyrouth, 1928.

* Idem: *La cite arabe de Taif a la veille de l'Hégire*, Imprimerie catholique Beyrouth (Syrie), 1922.

* Idem: *Fatima et les filles de Mahomet*, Sumptibus pontifich instituti biblici, 1912.

* Lecker (M): Art «al Taif», in *E I 2*, T X, Brill / Maisonneuve et Larose, 1986.

* Idem: Art «Sulaym», in *E I 2*, T IV, Leiden, 1998.

* Levi Della vida (G): Art «Muharib», in *E I 2*, T VII, Leiden - New York / Paris, 1993.

* Morabia (A): *Le Gihad dans l'Islam médiéval*, Edition Albin Michel, Paris, 1993.

* Rentz (M. J): Art «Hudhayl», in *E I 2*, T III, Leiden / Maisonneuve et Larose, 1975.

* Tor (A): *Mahomet sa vie et sa doctrine*, Traduit de l'Allemand par Jean Gaudefroy Demombynes, Librairie d'Amérique et d'orient Adrien-Maisonneuve, Paris, 1945.

* Watt (W. M): Art «al 'Aswad b. Ka'b al 'Ansi», in *E I 2*, T I, Leiden / Maisonneuve et Larose, 1975.

* Idem: *Mahomet à la Meque*, Traduction D. F. Dourveil, Payot, Paris, 1958.

* Idem: *Mahomet à Médine*, Traduit de l Anglais par S. M Guillemin et Vaudou, Payot, Paris, 1978.

ـ الدّوريات:

* Arafat (W): «*New light on the story of Banu qurayza and the Jews of Medina*», *J R A S*, N° 2, 1976, pp. 100 - 107.

* Donner (F): «Muhammed's political consolidation in Arabia up to the conquest of Mecca», *The Muslim World* (U S A), vol LXIX, Nº 4, 1979, pp. 229 - 247.

* Idem: «Mecca's food supplies and Muhammed's boycott», *J E S H O* (Leiden, E. J. Brill) vol XX, part III, 1977, pp. 249 - 266.

* Eickelman (D. F): «Musaylima», *J E S H O* (Leiden, E. J. Brill) Vol X, 1967, pp. 17 - 52.

* Goto (A): «Al Madina at the time of Muhammed's coming», *Orient* (Japan), vol XX, 1984, pp. 33 - 41.

* Jones (J M B): «The Chronology of the Maghazi», *B S O A S* (University of London), vol 19, 1975, pp. 245 - 280.

* Kister (M. J): «Some Reports concerning al Ta'if», *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* (Institute of Asian and African Studies) Jerusalem, 1979, pp. 1 - 18, In *Studies in Jahiliyya and Early Islam*, (Variorum reprints), London, 1980.

* Idem: «Some reports concerning Mecca from Jahiliyya to Islam», *J E S H O*, Vol 15, Nº 1-2, June 1972, pp. 61 - 92.

* Rubin (U): «Muhammed's curse of Mudar and the blockade of Mecca», *J E S H O* (Leiden), vol XXXI, part III, October 1988, pp. 249 - 264.

فهرس المواضيع

- **مقدّمة عامة** ٥

- **الباب الأوّل: أعداء محمّد من أهل مكّة وأهل يثرب** ٩

- مقدّمة الباب الأول ١١
- الفصل الأوّل: أعداء محمّد من أهل مكّة في الفترة المكيّة ١٣
- الفصل الثاني: أعداء محمّد من أهل مكّة في الفترة المدنيّة ٥٣
- الفصل الثالث: أعداء محمّد من يهود يثرب ٩٥
- الفصل الرّابع: المنافقون ١١٩
- خاتمة الباب الأول ١٤٦

- **الباب الثاني: أعداء محمّد خارج مكّة ويثرب** ١٤٩

- مقدمة الباب الثاني ١٥١
- الفصل الأوّل: أعداء محمّد من أهل الطّائف ١٥٣
- الفصل الثاني: أعداء محمّد من أعراب الحجاز ١٦٧
- الفصل الثالث: أعداء محمّد من أهل خيبر وبلاد الشّام ٢٠٧
- الفصل الرّابع: أعداء محمّد من أهل اليمن وأهل اليمامة ٢٢٥
- خاتمة الباب الثاني: ٢٣٩
- **خاتمة عامة** ٢٤١
- **التعريف بالمصطلحات** ٢٤٥
- **المصادر والمراجع** ٢٤٧

دراسات تاريخية

صادرة عن دار الطليعة

□ **في السيرة النبوية: ١** الوحي والقرآن والنبوّة	د. هشام جعيط
□ **في السيرة النبوية: ٢** تاريخية الدعوة المحمدية في مكة	د. هشام جعيط
□ **الفتنة** جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر	د. هشام جعيط
□ **نشأة المدينة العربية الإسلامية:** الكوفة	د. هشام جعيط
□ **المؤرخون العرب والفتنة الكبرى** دراسة تاريخية منهجية	د. عدنان محمد ملحم
□ **صورة عثمان وعلي في "صحيحيّ" البخاري ومسلم** قراءة في الجذور والخصائص والدلالات	محمد عبد الوهاب يوسفي
□ **حركة الخوارج** نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي	د. لطيفة البكّاي
□ **دثّريني... يا خديجة** دراسة تحليلية لشخصية خديجة بنت خويلد	د. سلوى بالحاج صالح العايب

edots مطبعة دار الكتب ـ منطقة بئر حسن ـ بناية البارادايز ٨٥٣٧٥٣ /٠١

١٠٠٠/١٠/١٥٠٣